الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين
بين الجاهلية والإسلام

د. نضال أحمد باقر الزبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِـــي عِلْمًا)

صدق الله العظيم

سورة طه : من الآية

114

الإهـــــداء

إلى :

الأُفق البعيد ...
الذكرى التي لا تزول ...
الروح الطاهرة في عليائها ...
أستاذي القدير الذي لم يشأ القدر أن يرى ثمرة هذا الجهد بصـــورته المكتملة ... الدكتور محمود عبد الله الجادر " رحمه الله "

نضال

المحتويات

الموضــوع	الصفحة
المقدمة	**1**
التمهيد : التضاد والعلاقات الثنائية	**6-2**
الفصل الأول : الثنائيات المتضادة في النواحي الفكرية	**53-7**
المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الحياة ضد الموت)	**23-7**
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (الشباب ضد الشيب)	**40-24**
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه)	**53-41**
الفصل الثاني : الثنائيات المتضادة في النواحي الاجتماعية	**88-54**
المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض)	**68-54**
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (العزة ضد الذلة)	**77-69**
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان)	**88-78**
الفصل الثالث : الثنائيات المتضادة في النواحي الاقتصادية	**121-89**
المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل)	**99-89**
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (الغنى ضد الفقر)	**109-100**
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (القوة ضد الضعف)	**121-110**
الفصل الرابع : الثنائيات المتضادة في النواحي الأخلاقية	**149-122**
المبحث الأول: الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر)	**132-122**
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (الصدق ضد الكذب)	**140-133**
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر)	**149-141**
الخاتمة	**152-150**
قائمة المصادر والمراجع	**168-153**
ملخص الاطروحة باللغة الإنكليزية	**1-3**

المقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة:

الحمدُ للهِ رب العالمين ، والصـــــلاة والســـــلام على نبيه الأمين محمد ρ وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين :

أما بعد : الثنائيات المتضـادة مفهوم شـعري نجده في الشـعر العربي واضـحاً مؤثرا، مؤديا دورا جوهريا في إيصـــال الفكرة التي يروم الشـــاعر إيصـــالها إلى المتلقي ؛ ولا تبدو الثنائيات واضـحة إلاّ إذا نظر إليها من خلال حالة شـعرية تهز كيان الشـاعر ؛ وليس أكثر من الإسـلام تأثيراً في الشـاعر الجاهلي ؛ الذي أصـبح أمام حالة إنسـانية جديدة غيّرت حياته

كلياً ؛ في كل نواحي الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ؛ لذا كان الالتفات إليها ضرورة ملحة ؛ ودرسها ضرورة يقتضيها البحث الأدبي .

وقد دفعتني الرغبة في تناول جانب من أدب تلك الحقبة وبيان أثر الدين الجديد فيها، فضـــلاً عن رغبتي في كســـب علم يعود عليَّ بالنفع كي تكون لي القدرة على الوقوف بين الآراء وأخذ ما يخدم منها تراثنا العربي الأصـــيل ، وذلك جعلني لا أتوانى في الســـعي للقيام بدراسة متخصصة في أدب هذين العصرين .

فكانت رحلة البحث مضنية ، لكنها ممتعة في الوقت ذاته ؛ لأنها بلورت قيما ومفاهيم فلسفية ونفسية ونقدية ارتقت بالبحث إلى مستوى العثور على جوانب مهمة لم يكشف النقاب عنها ؛ ارتبطت ارتباطا عميقا بنفسية الشاعر المخضرم وانفعالاته الذاتية التي تجلّت بوضوح في شعره واستطاعت البوح بما يجول في داخله وقدّمت لنا كل ما نريد معرفته والإطلاع عليه ؛ وكشفت عن طبيعة عقلية الشاعر المخضرم وما وصل إليه تفكيره من وعي وثقافة أصيلة بلورتها الأحداث بشكل ينسجم مع المبادئ الإسلامية .

واقتضت طبيعة الموضوع تقسيم الكتاب على تمهيد وأربعة فصول :

ففي التمهيد حاولت توضيح مفهوم التضاد والعلاقات الثنائية وعلاقتها بالإنسان فهي الوسيلة التي استطاع أن يعبّر من خلالها عن بعض الإنكسارات الفكرية والحضارية والثقافية لديه .

وعمدت إلى الإيجاز في تناوله لسبقه بدراسات عدة أسهبت في تفصيله والوقوف عند كثير من جزئياته .

الفصل الأول : أفردته لدراسة الثنائيات المتضادة في النواحي الفكرية ، وقسمته على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : درست فيه الثنائية المتضادة (الحياة ضد الموت) .
- المبحث الثاني : درست فيه الثنائية المتضادة (الشباب ضد الشيب) .
- المبحث الثالث : درست فيه الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه) .

الفصل الثاني : أفردته لدراسة الثنائيات المتضادة في النواحي الاجتماعية وقسمته على ثلاثة مباحث .

- المبحث الأول : درست فيه الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض) .
- المبحث الثاني : درست فيه الثنائية المتضادة (العزة ضد الذلة) .
- المبحث الثالث : درست فيه الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان) .

الفصل الثالث : درست فيه أبرز الثنائيات المتضادة في النواحي الاقتصادية وقسمته على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : درست فيه الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل) .
- المبحث الثاني : درست فيه الثنائية المتضادة (الغنى ضد الفقر) .
- المبحث الثالث : درست فيه الثنائية المتضادة (القوة ضد العنف) .

الفصل الرابع : درست فيه أبرز الثنائيات المتضادة في النواحي الأخلاقية ، وقسمته على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : درست فيه الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر) .
- المبحث الثاني : درست فيه الثنائية المتضادة (الصدق ضد الكذب) .
- المبحث الثالث : درست فيه الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر) .

ثم ختمت الكتاب بأهم النتائج التي توصلت إليها .

وأخيراً أقول هذا بحثي الذي بذلتُ في سبيل إتمامه كل جهدي ، ولم أبخل عليه بوقت ولا جهد ، أرجو أن يكون خالصاً لوجهه تعالى ، وله الحمدُ من قبل ومن بعد .

الباحثــة

التمهيـــــد

التضاد والعلاقات الثنائية

التمهيـــد
التضاد والعلاقات الثنائية

كل شيء في الكون له ضد ، ليس على مستوى الأدب فحسب ، بل في الكون كله؛ غير أنَّ بؤرة التضاد وفاعليته تظهر حينما يجتمع الضدان على خطٍ مستقيم واحد ، فيتركان خلفهما ظلال المعاني ليظهر أحدهما أي المتضادين ـــ ثيمة الآخر ومحاسنه ؛ وكل أبعاده المعنوية والجمالية التي كانت متماهية خلف آثار اصطراع المتضادات .

وللتضـــــاد عدة مفاهيم منها أنه دلالة اللفظ الواحد على معنيين كل منهما ضـــــد الآخر[1] أو أنه ((نوع من أنواع الاشتراك اللفظي)) [2] والتفت سيبويه إلى دراسة التضاد بوصفه فناً معنوياً فقال ((إعلم إن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد واتفاق اللفظين وائتلاف المعنيين ، فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين نحو جلس وذهب واختلاف اللفظين والمعنى واحد ذهب وانطلق واتفاق اللفظين والمعنى مختلف قولك وجدت عليه من الموجدة ، ووجدت إذ أردت وجدان الضـــــالة)) [3] . وهو لم يذكر من ضمن الأمثلة مفردتين متضادتين إلاّ أنَّ التضاد يدخل في قوله اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين .

وجاء التضـــــاد بمعنى المقابلة ((وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب والمراد بالتوافق خلاف التقابل)) [4] ، أو هو ((الجمع

---

(1) ينظر الصاحبي : 97-98.

(2) المزهر في علوم اللغة : 305/1.

(3) كتاب سيبويه : 24/1.

(4) الإيضاح في علوم البلاغة : 195.

بين المتضـادين أي معنيين متقابلين في الجملة)) [5] ؛ وقد تأتي المقابلة عن طريق السـلب والإيجاب مثل (أعلم لا أعلم) وذُكر أنهما في هذه الحالة ((وجب ضرورة إذا صدق أحدهما أنْ يكذب الآخر)) [6] وذُكر أيضاً أنَّ ((التضاد بتشديد الدال يطلق على معانٍ منها التقابل والتنافي في الجملة ومنها الطباق .. وهذا المعنى من مصـطلحات أهل البديع)) [7] . وعلى هذا الأساس فالتضـاد أوسع وأشمل من الطباق ؛ لأن الطباق هو ((أن يؤتى بالشيء وضده في الكلام)) [8] وقد عدَّ الطباق من المحسنات البديعية وهو أقرب وأيسر من السجع [9] .

أما التضـاد فإنه يضفي على النص جواً مشحوناً بالحركات الثنائية ، فالموجودات في الكون معتمدة على حالة من الثنائيات المتضـــادة ، فهناك الليل والنهار ، والحرارة والبرودة ، والماء والنار ، والنور والظلمة ، والرجل والمرأة ... الخ وتذكرنا الثنائية الأخيرة هذه بـــــ ((تاريخ البشـر الأزلي في قصـة الوجود الأولى كما رسـمها القرآن الكريم ممثلة في حادثة أبينا آدم (عليه السـلام) مع حواء وهي قصـة حملت بذور الإنسـانية كلها حيث ثنائية الحياة ذكر وأنثى)) [10] . ومن هنا نرى أنَّ فكرة الثنائيات المتضـــادة ((فكرة قديمة ترجع إلى بداية الخلق الأولى ، عندما خلق الله تعالى آدم (عليه السـلام) وخلق له من جنسـه حواء تؤنس وحشـته ، وتبدد وحدته ؛ وأدخلهما الله تعالى الجنة ليبدأ رحلة الحياة معاً في ثنائية تكون أول ثنائية للجنس البشـري)) [11] . وأخذت الثنائيات المتضـادة تؤثر في تنظيم فعاليات سـلوك ذلك الجنس البشـــري ورغباته إذ يحكم بعضـــاً منها التقابل الثنائي ، فالكرم يقابله البخل ،

---

(5) المصدر نفسه : 192.

(6) منطق المشرقيين : 128.

(7) موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية : 874/4.

(8) الطراز المتضـــمن لأسـرار البلاغة : 377/2، وقد تتبع عدد من الباحثين تطور فكرة الطباق والمقابلة في البلاغة العربية مما يُغنينا عن إعادته ، ينظر في ذلك على سـبيل المثال لا الحصـر كتاب التصوير البياني ، للدكتور حنفي محمد شرف ، كتاب التقابل والتماثل في القرآن الكريم، د. فايز عارف القرعان ، ورسالة الباحثة هدى هادي عباس الموسومة بالثنائيات المتضـادة في شـعر القرن الثالث الهجري .

(9) ينظر إعجاز القرآن : 584.

(10) الخطيئة والتكفير : 111.

(11) ثنائية اللذة والألم في الشعر العربي قبل الإسلام : 1.

والحب يقابله البغض ، والخير يقابله الشر .. حتى اللغة والكلام اللذان هما الوسيلة الرئيسة للتفاهم بين الناس قامت على نوع من التقابل الثنائي إذ يرجع تمييزها بعضها من بعض إلى القول بثنائية الظواهر اللغوية في العصر الحديث إلى العالم السويسري فريناندي سوسير ، فقد عدَّ اللغة ((نظاماً اجتماعياً مستقلاً عن الفرد في حين أن الكلام هو بمثابة التحقق العيني الفردي للغة التي هي نسق عضوي منظم من العلاقات)) [12] . وهذا يعني أن اللغة هي نظام اجتماعي يخضع لمجموعة من القواعد المنظمة في حين أنَ الكلام هو فعل فردي يقوم به الشخص مع أقرانه .

ونخلص من هذا إلى أنَّ الثنائيات المتضادة هي ظاهرة تشيع في الكون والطبيعة وتدخل في تنظيم فعاليات الإنسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية .

ومن أهم الباحثين الذين أفادوا من الثنائيات المتضادة في دراستهم للمعنى العالم اللغوي (كريماس) فقد كان اهتمامه موجهاً إلى علم الدلالة ودراسة المعنى فعرض مجمل أفكاره في كتابيه (علم الدلالة البنيوي) 1966 و (المعنى) 1970 ، إذ حاول فيهما وصف البنية الحكائية بموجب النموذج اللغوي القائم على التعارضات الثنائية الذي صنف التقابلات إلى عدة أنواع :

أولاً: تقابلات محورية لا تقبل وسطاً (زوج / زوجة) .

ثانياً: تقابلات متناقضة (متزوج / أعزب) .

ثالثاً: تقابلات متضادة (صعد / نزل) .

رابعاً: تقابلات تبادلية (باع / اشترى) [13] .

والثنائيات المتضادة يجب أن لا تفهم أنها مجرد رغبة شعرية فارغة تدعو شاعراً ما إلى الجنوح إليها ، أو استدعاء ألفاظها لمجرد شيء لا يُعدُّ له ، بل العكس كائن ؛إذ أنَّ للثنائيات المتضادة هيمنة وفعّالية في فناءات النص ــ ولاسيما ــ النص الشعري ، فالثنائيات المتضادة على مستوى الإيقاع هي بذرة يؤمل الشاعر بها نفسه ، لأجل خلق فضاءات إيقاعية متناغمة مع الجو الفكري والنفسي الذي يحيط بلحظة إنتاج النص ؛ إذ يتوسل الشاعر بها لإحداث حراك صوتي داخلي يمازج بين حواشي الصوت المبعثر على بياض

---

(12) مشكلة البنية : 48.

(13) تحليل الخطاب الشعري : 239.

الورقة ؛ وهو يحمل جمهرة من الانكسارات الفكرية والحضارية والثقافية ، ممتهناً فيها ترقيع صوته الممزق المبحوح في الواقع ؛ ولأجل أن يعوض تلك الانكسارات بدفقات تعلو تارة وتنخفض تارة أخرى من التلوين الصوتي الذي يتناغم مع الدفقات الشعورية هدوءاً وصخباً ، سكوناً وحراكاً ، غموضاً وإسفاراً ، ألماً وأملاً ، هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى فإن الثنائيات المتضادة على مستوى الدلالة لها أبعاد نفسية (سايكولوجية) وعقائدية ، وفكرية ، وذاتية لا تنجلي بوضوح ما لم يلاحقها مجس الرصد النقدي المتأني اللاانفعالي المستند إلى معطيات علمية صرفة بعيداً عن الانطباعات الفردية ، والتأويلات الشخصية ، إذ تشكل الثنائيات المتضادة بنية قائمة بذاتها تختزن كثيراً من بؤر استنطاق (الكون ـــ الذات) التي لا يمكن استنطاقها . على ما نرى . إلاّ بالتضاد ، إذ أنَّ المتضادات تجتمع على عكس المتناقضات إذ يستحيل اجتماعها [14] ؛ ثم أنَّ الضد لا يقبع في منطقة الظل بل على عكس ذلك دائماً يكون بذرة (استصراخ) واستدعاء لعناصره المفقودة ، أو تكاد تكون كذلك . ثمَّ أن العلاقة الجدلية القائمة بين المتضادات باتت عنصراً مساعداً على اشتعال وهج الصورة الشعرية ، فمثلاً الحسن والقبح هما ضدان ما كان ليكون أحدهما لولا وجود الآخر ، فالحسن إنماز وظهر لوجود القبح الذي فيه من عناصر المغايرة ما ليس في الحسن ؛ والقبح ما ظهر وبدا إلاّ لوجود الحسن بفعل تراكمات مختزنة ، ومحدودات جمالية متساوقة مع غرائزية الشاعر وانسحاقه في فضاءات المتضادات .

وتحقق الثنائيات المتضادة بوصفها دعامة بنائية ومقومة أسلوبية إنفتاحاً نصياً مذهلاً يطفيء رغبة الكبت لدى الشاعر ؛لأن الثنائيات المتضادة ناتجة عن تأزم نفسي حاد لثيمة إشكالات وتأثيرات داخلية ـــ ذاتية وخارجية متراكمة في مسافات شعورية خانقة تفضي إلى تصدع كيان الذات ، الأمر الذي يولّد رغبة إسقاطية مؤداها تحميل تلك المتضادات قدراً من المسؤولية عن الذات ؛ ورأب الصدع من خلال تجميع أجزائه المبعثرة أو الميتة التي توفر المتضادات ؛ وتحيي جزءاً منها ، فليفي شتراوس أقام بحثه على أساس التعارضات الثنائية ((في كل مناحي الحياة ، بهدف الوصول إلى بناء فكر الإنسان من خلال تعامله مع الأشياء والكون والحياة وصولاً إلى إيجاد حل متوازن بينهما)) [15] ؛ وقد كان لظاهرة الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين صلة وأثر واضح في حياة المجتمع، ففيها تبرز

---

(14) ينظر التعريفات : 78.

(15) المدخل اللغوي في نقد الشعر قراءة بنيوية : 41.

أحوال الناس ومعتقداتهم ومشاعرهم ؛ وتتضح من خلالها أخلاقهم وطبيعة تعاملهم ، وتبيان ما يختلج في نفس شاعرهم من صراعات وتناقضات يستطيع المتلقي أن يتبين أثرها النفسي لدى الشعراء من خلال نتاجهم الشعري الذي بدا واضحاً فيه أنهم ((أخذوا يختصمون في شؤون جديدة ، لا عهد لهم بها وهي شؤون الدين فهم يختصمون حول الظلمة والنار ، وحول الهدى والضلال ، وحول الإيمان والكفر ، وحول الخروج من الجاهلية إلى حياة جديدة أو البقاء في هذه الجاهلية وحياتها القديمة)) [16] ولم يكن لهؤلاء الشعراء المخضرمين بُدٌّ من أنْ يحاولوا التوفيق بين هاتين الحياتين لأنهم لم يستطيعوا أن ينزعوا عنهم موروثات الجاهلية القريبة وآثارها متى أرادوا ؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا التذبذب بين الشعر الذي قيل في الجاهلية والشعر الذي قيل في الإسلام عند بعضهم كما سنرى ؛ لأن رواسب الجاهلية في شاعريتهم تعيش جنباً إلى جنب مع النزعات الإسلامية في نفوسهم ووجدانياتهم ؛ وهذا أمر طبعي في هذه المرحلة؛ وأن لكل واحد من هؤلاء دوافعه العقلية والبيئية التي أثرت في شعره فأظهرتها الثنائيات المتضادة .

وشعر المخضرمين قام تحت وطأة عدة عوامل هيمنت على كيان الشعراء أنفسهم وحركتهم للتعبير عن ذلك شعراً؛ وإنْ كانت تلك الدوافع مختلفة إلاّ أنها مصورة لواقع الحياة الذي عاشوا فيه .

والثنائيات المتضادة المبثوثة في شعر المخضرمين تلفت الأنظار إلى التماس جماليات الثنائيات المتضادة في المناحي الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية في ذلك النسيج الشعري الذي ارتفع إلى مستوى الإبداع والتميز ؛ لأنها تتعدى المستوى السطحي للنفس وتسعى إلى توسيع دائرة الرؤية معتمدة على الدلالة الاستدعائية بين طرفي الثنائية المتضادة والدلالة السياقية بين الثنائية والسياق ، والعلاقة التي تربط بين الثنائيات في النصوص الشعرية هي علاقة تضاد أو تناقض . وقد اعتمد البحث على الثنائيات المتضادة الأساسية التي بلورت رؤية الشعراء المخضرمين للوجود والحياة في العصرين الجاهلي والإسلامي ، وقد نبعت منها ثنائيات أُخرى يمكن من خلالها الولوج إلى نفسية الشعراء وجلاء عالمهم الباطن وكشف الغطاء عن رؤيتهم للوجود والحياة .

---

(16) تقليد وتجديد : 26–27 ينظر دراسات في الأدب الإسلامي : 105 ، وشعر المخضرمين : 264 إذ أشار المؤلف إلى المعاني الجديدة في شعر حسان بن ثابت .

الفصل الأول
الثنائيات المتضادة في النواحي الفكرية

المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الحياة ضد الموت) .
المبحث الثاني: الثنائية المتضادة (الشباب ضد الشيب) .
المبحث الثالث: الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه) .

المبحث الأول

الثنائية المتضادة (الحياة ضد الموت)

تعبّر مفردتا الحياة والموت عن معنى مشــترك ، أو أنهما نمطان لحالة واحدة بمعنى أن كل واحدة منها لا يكتمل معناها إلاّ بذكر الثانية فكل منهما بها حاجة إلى الأخرى وهما متســاويتان إصــطلاحاً متضــادتان في المعنى ((وبالضــد يعرف الضــد إذ لو لا الموت ما عرفت الحياة)) [17] .

فما أن خلق الله سـبحانه وتعالى الإنسـان حتى وجد نفسـه واقفا بين طرفين ضـديين (الحياة والموت) وأدرك أن الموت قدرهُ المحتوم منذُ وطيء الأرض تكفيراً عن ذنبه بعصــيان أمر ربه . قال تعالى : **(وَعَصَـــى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)** [18] ، فوقف مقهوراً أمام الموت ، فلغز الحياة أورثه الحيرة . وأخذ يتساءل عن فائدة الوجود المبطن باللاوجود ، ومن هنا بدأت أولى المشـــكلات الفكرية ، وبدأت معها هموم البحث عن الخلود ، فقد تعاظم الموت في عينيه حتى أضــحى قلقه الكبير وهاجســه المريع ؛ لكونه فراقاً لا تلاقي بعده ونهاية لا مفر منها ، وأمسى الإحساس به المثل الوحيد للحقيقة الإنسانية [19] .

وقد وجدت مع الإنســـان غريزتا حب الحياة وكره الموت ومقاومته ، فطالما حاول الإنســـان مقاومة الموت أو الهرب من ســـطوته ، والبحث عن الخلود ، وقد قام بمحاولات عديدة بحث من خلالها عن ســر الخلود ، ولعل محاولة الملك جلجامش هي أقدم ما وصــل إلينا عن هذا الصراع ؛ إذ سعى للحصول على ماء الحياة ليضمن الحياة الأبدية الخالدة.

ولم تكن دوافع محاولته هذه فردية ؛ لأنه أراد أن يشرك الناس جميعاً معه فقد ((حمل بين جنبيه مشــكلة البشــرية كلها)) [20] . لكن هدفه لم يتحقق إذ لم يجد لنفســه مغنماً ولا لوجوده خلوداً ، ولا للبشـــرية بقاءً ، فظل تحت طائلة الموت ، فبكى وحزن وأيقن بعدها أن الإنسان ولد ليموت .

---

(17) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : 133.

(18) ينظر سورة طه ، من الآية : 121.

(19) ينظر الشعر والموت : 23.

(20) ملحمة كلكامش : 149-150.

((إنها قصة انتصار بشكل اندحار . انتصار على الخوف وعلى الفردية ، ولو إنها اندحار أمام الخلود . مصالحة مع الحياة بشكل ثكل للحياة . مصالحة الوجود مع العدم فرحة بشكل مأساة)) [21] .

وقد أسهم البشر في إتمام تلك الرحلة التي بدأها جلجامش وكان للشعراء المخضرمين نصيب فيها .

فقد أيقن الشعراء المخضرمون في جاهليتهم أن الموت سبيل كل الأحياء ولا خلود لأحد في الحياة وما دام الموت لاحقهم فلا جدوى في الأماني التي ربما تتحقق بإمتداد الزمن الذي يعيشه الإنسان ، فالأفراح التي يصدح بها قلبه والغايات والأهداف التي يعمل من أجلها مردها إلى الزوال والفناء ما دام الموت لاحقهم ، وهذا متأتٍ من الفراغ الديني الذي يعيشه أغلب الشعراء المخضرمين في الجاهلية لعدم إيمانهم بوجود حياة ثانية بعد الموت ، وهذا ما يراه أبو زبيد الطائي حين قال :

إنَّ طُوْلَ الحياةِ غَيرُ سُعُودِ

وضلال تأميل نَيْلُ الخلودِ[22]

ويذهب الشاعر المخضرم سويد بن أبي كاهل إلى ما ذهب إليه غيره من الشعراء في جاهليتهم فإيمانهم بأن الموت ذاقه الناس جميعاً قبله ولا بد من إنه ذائقه فهو لاحق بهم لا محال إذ قال :

إنْ أذق حَتفي فقبلي ذاقهُ

طسم عاد وجديس ذو الشنعِ

وأبو مالك القيل الذي

قتلته بنتُ عمرو بالخدعِ[23]

فلا تخفى الصورة التي نافح الشاعر بنسجها عن الثنائية الضدية ،إذ الضد بقرينة أو بغيرها يظهر ضده وإن لم يكن التصريح به وارداً [24] ،فذوق الحتف(موت) لا بد من أن

---

(21) ملحمة كلكامش : 158.

(22) شعراء إسلاميون ، شعره : 592.

(23) ديوانه : 37، الشنع : الشهرة ، أبو مالك هو جذيمة بن مالك بن فهم بن الأزد من ملوك الحيرة، وبنت عمرو هي الزباء بنت عمرو بن ضرب بن حسام بن أُذينة .

(24) ينظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة : 377.

يقابله ضـــد في منطقة الظل وهو الحياة لكن الشـــاعر لا يأبه به ، لأنه قد طال كثيراً من الأقوام قبله ، ولم يذر منهم أحداً ، لذلك فهذا النحو من الثنائيات المتضـــادة يكون مدى اشتغاله في عالم المعاني أكثر من عالم الألفاظ ، وهو رصد لحالة انعكاسات عالم اللاوعي وأبعاد استجابات ذلك العالم لما يحدث في دائرة الوعي التي يحكم الحتف السيطرة عليها ولو رصدنا المتن الشعري قيد الدراسة على نحوٍ فاحص لوجدنا أنه يحفل بالثنائيات المتضادة ولاسيما الثنائيات الفكرية [25] . مما يدل على عمق العلاقة التي تشكلت في أقنية المجتمع عبر مراحل تطوره ونموه .

ثم أن التعبير عن الحتف بالذوق أمر يثير الدهشـــة ؛ لأن المعتاد أن الذوق يتعلق بكل ما هو جمالي شـــفاف فيه حياة وحيوية ، ولعل في هذا ما يدل على ســـلطان التفكير الوجودي ، أو على وجود جذوره ، لأن الشاعر بتجسيده (الحتف) جعله شيئاً يذاق أومأ إلى إمكانية التعامل معه أو الإحتجاج عليه بالتهوين من شـــأنه ، والرغبة العارمة في مواصـــلة الحياة على الرغم من كل الأضـــداد التي أحالت عالم الشـــاعر إلى رماد وذكريات يذروها النسيان .

وربما كان الإخبار عن الحتف بالذوق لكي يهوّن الشاعر على نفسه مرارة ما يتلقاه ويصيبه وعدم الخوف منه ؛ لأن دلالة الفعل ذاق دلالة تشيع جواً عاماً للإسترخاء والالتذاذ والإنقياد لنشوة ما ، فتصور إلى أي حد يكوّن الحتف ذلك الالتذاذ وتلك النشوة لو لم يكن الواقع على الرغم من كل الثنائيات المتضـــادة فيه ، قد ألح الحاحاً على نحوٍ لا يُطاق ولا يُسوّغ الأمر الذي دفع الشاعر إلى الإنكفاء على أمَّر الخيارين وأسرعهما إلى مهرب ونزوعه إلى الخلاص .

ويبدو أن ((فكرة الدهر كانت قاصرة عن حل كل ألغاز الفناء ، فهي تمثل القدر من دون أن تصور فيه قوة عادلة تطمئن إليها النفس، وإنما الدهر قدر ظالم ، ومن هنا تسبب

---

(25) ينظر على سبيل المثال لا الحصر ديوان أبي محجن الثقفي : 23، ديوان سويد بن أبي كاهل: 37، ديوان قيس بن الخطيم : 77، شرح ديوان حسان بن ثابت : 472، شرح ديوان لبيد بن ربيعة: 34–35، 108، 158، 220 ، شرح ديوان كعب بن زهير :56، 249، ديوان عبد الله بن رواحة : 204 ، شرح ديوان الخنساء : 46–47 ، 143، 176، 203، ديوان سحيم عبد بني الحسحاس : 40، 60، شعراء إسلاميون ، شعر النمر بن تولب : 391، 392.

في فقدان التوازن النفسي للقائلين به ، أما تمرداً وعنفاً وأما استسلاماً عاجزاً)) [26] . فهذا صرمة بن أبي أنس في رثاء النعمان يستسلم للدهر [27] حين قال :

إلا لَيْتَ شعري هَلْ يَرى الناسُ ما أرى

مِنَ الأمرِ أو يبدو لَهُمْ مَا بَدا لِيا

000000000000

بدا لي أني لست مدركاً ما مضى

ولا سَابقي شيءٌ إذا كانَ جائيا

ألا لا أرى على الحوادثِ باقيا

ولا خالداً إلا الجبال الرواسيا

وإلا السَّماءَ والبلادَ وَرَبَّنَا

وأيامَنا معدودةً والليالِيا[28]

يقف الشاعر عاجزاً بإزاء سطوة الموت فينظر إلى الحياة نظرة متشائمة لا أمل فيها ولا حياة ؛ فهو يشاهد الناس يفنون هم وأموالهم ويرى آثارهم متناثرة في كل مكان ينزله. فقد عاين الشاعر الوجود ببصرهِ وبصيرتهِ ، وعانى انحساره وعياً وتجربة ، فوقف الشاعر مندهشاً بإزاء جبروت الموت ، وسر فناء الأشياء ، فتعاظمت أمامه تجربته، إذ يقف عاجزاً أمام الزحف الذي يغتال زمنيته ووجوده ، فبدت تجربته سلبية إلاّ أنها واقعية قادته إلى الإستكانة والإستسلام والإقرار بحتمية الفناء ، فالشاعر هنا يستقبل الموت برضا المجبر أو بطوعية المؤمن الذي يقر بالبقاء لله سبحانه وتعالى وللجبال الرواسي .

يظهر من استقراء شعر الشعراء المخضرمين الجاهلي أنَّ طغيان الموت وعوامل التغيير التي يخلفها جبروت الزمن ، تجعل الإنسان الشاعر يصارع لكي تلتئم أجزاؤه ، ويسمو على عبوديته للزمن بابتداعه لشيء أكثر دواماً منه، فهو يبحث في شغف وإصرار،

---

(26) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : 193.

(27) ينظر الإصابة : 2/182-183 وقد ورد في ترجمة صرمة بن أنس إنه شاعر هم بأن يتنصر ثم أمسك واسلم وصحب النبي محمداً ρ .

(28) شرح ديوان زهير : 284- 288.

بعد أن أيقن أن لا سبيل إلى الخلود . فالشاعرة المخضرمة الخنساء وجدت في الشعر انتصاراً على حتمية الموت ؛ لأن الفن الأصيل يحمل سر الخلود إذ قالت :

وقافيةٍ مثْلَ حدِّ السِّنا

نِ تَبْقَى وَيَهلِكُ مَنْ قالهَا[29]

وقد خلقت معاناة الحياة في بيئة الصحراء المقفرة وشظف العيش عند الشاعر المخضرم أبي خراش الهُذلي في جاهليته أسمى معاني التسامي والتطلع إلى الخلود مكونة ثنائيات قد تبدو متناقضة في ظاهرها ، ولكنها عند إجالة النظر فيها سوف ترد إلى جوهر واحد . حسب ما نرى . .

وإني لأثوي الجُوعَ حتى يَملَّني

فيذهبَ لم يدنسْ ثيابيَ ولا جرْمِي

0000

أُردُ شجاعَ البطنِ قَدْ تعلمينه

وأوثرُ غيري من عيالكِ بالطُّعمِ

مخافةَ أن أحيا برَغْمٍ وذلّةٍ

وللموتُ خيرٌ مِن حياةٍ على رَغْمِ[30]

يمكن القول إن جميع ما يعتري الكون من متضادات مرده في الحقيقة إلى ثنائية متضادة واحدة هي (الحياة ضد الموت) وعنها تتولد الثنائيات الأخرى ، فقد بدأ الهذلي رسالته بالإصطراع مع الجوع الذي هو سبب من أسباب الهلاك ، ويبدو أنه أطال عراكه معه حتى إنه يصرُّ على أن يجعل ذلك الجوع يمل منه حتى يخلص عبر مكابدته التي تجلت في هذه الأبيات إلى حكمة ذات أبعاد شمولية عميقة انبعثت من أثناء الألفاظ المتضادة على نحوٍ متصاعد يتباعد عند القمة ، ولكنه ما يلبث أن يعود عند إنهماره ثانيةً في أصل انطلاقه ثم تصل تلك المكابدة إلى ذروتها حتى يبدو مشهداً للتفاضل بين إيثار الموت على الحياة إذ اقترنت (الرغم مع الذلة) ؛ لأنها عندئذٍ تتساوى في عين الشاعر عدماً ، والموت عدماً ، فيتساوى العدمان فلا أفضلية لأحدهما على الآخر قط ، ونجد الشاعر يلوذ

---

(29) شرح الديوان : 47 ، حد السنان ، حد السيف ، وينظر مثل ذلك شرح ديوان كعب بن زهير : 190.

(30) ديوان الهذليين :2/127-128 ، أثوي الجوع : أطيل حبسه عندي حتى يملني ، الجرم : الجسد، شجاع البطن : الجوع يتلظى في جوفه كما يتلظى الشجاع ، رغم : هوان وذلة.

بإبراز صورة (الجوع ضد الشبع) ؛ لأن ذلك أدى به إلى إيثار غيره إلى التجرد من مظاهر المادة الضيقة والتسامي في عوالم الروح الفسيحة على نحوٍ أتْرَعَ فيه رغبة الآخر التي وطئها الإنهزام بالتراجع عن تلك الروح التي لا تقرب بها إلاّ من خلال هلاكها .

وهذا لا يمكن أن يتوقع إلاّ عبر صدمة المتضادات المتلاحقة التي رسمت أدق تفاصيل الصورة وجسدت المعنى على نحوٍ بهيج يمد أنساق الدلالة بأسباب التجدد والديمومة .

والشاعر الفارس الحصين بن الحمام المري في جاهليته كان قد أدرك بعقله الواعي أن الخلود الجسدي ليس بمقدور أحد ، ولكن ثمة خلود آخر هو خلود ((المعاني العظيمة والأفعال الحميدة)) [31] إذ قال :

تأخرتُ استبقي الحياةَ فلمْ أجد

لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدَمَا

فلسنا على الأعقابِ تدمى كلوُمنا

ولكن على أقدامنا تقطرُ الدّمَا[32]

من خلال تموجات النص نلمح بؤرة الثنائيات المتضادة التي تبدو صاخبة صارخة، بل أن تشكلات الصورة تقوم على أساس توافق وتخالف الثنائيات المتضادة لتكون مشهداً واضحاً ودقيقاً ، إنَّ المعنى ما كان ليولد لولا دفق هذه الثنائيات التي دفعت به نحو التَكوّن والتشظي في آن معاً ، إذ (تأخر ضد تقدم) و(الأعقاب ضد الإقدام) و(الخلف ضد الأمام) قابعة بعضها في بعض ، بل إنها شكلت معنىً واحداً ولاسيما إذا علمنا أن هناك مَنْ يقول ((أن الحياة هي الموت)) [33] وهذه الثنائيات الضدية خلقت قوة تأثير في الحكمة التي ألح النص على إظهارها وجسدت الموقف تجسيداً حياً أزال كل ما يكتنف المشهد من ضبابية ، وإن كانت ضبابية ساحرة أطرت الصورة الكلية بجماليات متبرعمة تنمو حيناً بعد حين

---

(31) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : 258، وينظر الشعر الجاهلي : 432/1، وقصيدة الحرب العربية : 66، وفيها قرر الأستاذ الدكتور الجادر الحقيقة الفكرية التي قررها الموروث من الشعر الجاهلي ألا وهي ممارسة القيم الأخلاقية الموروثة في العرف الجماعي على سبيل خلود الذكر في الأقل .

(32) شعره : 114-115.

(33) مشكلة الحياة : 37.

لتضفي على المعاني والأخيلة نوعاً من الخلود في حواشي الزمن غير المتواتر صحةً وانتماءً إلى عالم الشاعر الذي له زمنه الخاص ومداراته الخاصة التي ترفض المراوغة أو النكوص ، لأن ثنائية أعمق وأعم فرضت وجودها هي ثنائية (الحياة ضد الموت) وما الثنائيات الأخرى التي أقترنت بها إلاّ غاية لها (فالتأخر هو الاستبقاء ـــ السكون ـــ الموت) و (التقدم هو الحركة . الحياة) .

وتلك الغايات جاءت متضـــادة إذ التقدم هو الحياة والحياة تدل على الحراك أو هو لازمة من لوازمها ، والتأخر هو الممات أو هو قرينة من القرائن الدالة عليه .

أسـهمت هذه الثنائيات في رسـم موقف التفاخر الذي كان الشـاعر يروم بيانه وإثباته، بـل إثبـات وجوده بـه لأنـه دال على وجود غير مـادي قيمي اعتبـاري ولولا تلـك الثنـائيـات المتضادة وتظافرها ما كان ليكون تأثير المشهد على ما هو عليه منذ أن قيل وإلى الآن .

كان لتحالف المتضادات بنية صورية معبّرة عن ثيمة الحكمة وخلفية التجربة الشعرية التي أودع الشاعر المخضرم أمانة البوح بها .

وبما أن الإنســان رهن للموت وهو لا يعلم متى تأتيه المنية وبقاؤه محال وكل شــيء ســـائر إلى الفناء ، فمن العبث أن يطمئن إلى الحياة ، فلا الكريم الفقير يفنيه جوده ، ولا الغني البخيل مخلّد بماله وهذا ما أشار إليه الأجواد في أشعارهم [34] إذ قال النمر بن تولب:

ألاّ يـا لـيـتـنـي حـجـرٌ بـوادِ ... اقـامَ ولـيـت أُمـي لَـمْ تـلـدنـي
ألاّ يـا حـادِ وَيـحَـكَ لا تـلـمـنـي ... ونفســـكَ لا تضـــيِّعهـا ودعني
فـإني قـد لبســـتُ العيشَ حتى ... مَللـتُ من الحيـاةِ فقلـتُ قـدني
ولاقـيـتُ الـخُـيُـورَ وأخـطـأتـنـي ... شـــرور جـمّـةٌ وَعـلـوتُ قـرنـي
يـلـومُ أخـي عـلـى أهـلاك مـالـي ... ومـا إن غَـالَـهُ ظَـهـري وَبـطْـنـي

---

(34) ينظر على سبيل المثال ، ديوان الحطيأة : 95، 96، 115، 173–174، شرح ديوان حسان ابن ثابت :363، شعر عمرو بن شأس : 48، شرح ديوان لبيد: 107، عشرة شعراء مقلون ، شعر المخبل السعدي : 5، شرح أشعار ديوان الهذليين (شعر أبي صخر الهذلي): 2/934–935 ، ديوان الهذليين، شعر أبي ذويب :123/1، المعمرون والوصايا ، أمية بن الاسكر : 86، شعر النابغة الجعدي : 226.

ولا ضـــيـعـتُـه فـألأُمَ فـيـهـا فـإن ضَـــيـاعَ مـالـكَ غيرُ مَعنِ
ولـكـن كـل مـخـتـبـط فـقـيـرٌ يقول ألاّ اســتمعْ أُنبئْـك شـــأني
ومســـكـين وأعـمـى قـال يـومـاً أغـثـنـي لـلآلـه ولا تـدعـنـي
وإعـطـانـي ذوي الأرحـام مـنـه وتوســيعي لـذي عجز وضـــفنِ
اقي حســبي بـه ويعزُّ عِرْضـــي عـلـيَّ إذا الـحـفـيـظـة أدركـتـنـي
وأعلـمُ أن ســتـدركني المـنـايـا فـإن لا أتـبـعـهـا تـتّـبـعـنـي
رأيـتُ الـمـانـعـيـنَ الـمـالَ يـومـاً مصـــيـرُهُـمُ لألـقـاءٍ فـدفـنِ[35]

لقد أسفر الشاعر عن ثنائية مهيمنة على النص كله هي ثنائية (الحياة ضد الموت) إذ (لبس الشـــاعر العيش) وفي النهاية وجد أنه لا بد (ســـتدركه المنايا) ولكن حينما تلح الأســـئلة على معرفة دافعية الرغبة في الفناء والهلاك نجد أن هذه الثنائية المتضـــادة ذات جذور نفسية اجتماعية ، إذ إن الالتذاذ بما يحققه الكرم لدى الشاعر أعظم من كل نفيس في حياته ، فكان اللوم الذي وجه إليه مدعاة إلى أن يختار ، بل يتمنى الشـــاعر حيازة الطرف الثاني من معادلة التضاد التي ترشح النص عنها .

فيختار بكل جرأة وصـراحة (الموت) ليس هرباً من سـخف الحياة ، بل انكسـاراً لما وضعته به من موقف ، إذ يلام على فعل الخير ، والإحسان إلى مَنْ يراه أهلاً لهما حتى أنه صـار يبحث عن الضـد أملاً في أن يجد فسـحة فيه يلقي فيها جزءاً من همومه وضـغوطات الواقع عليه . إذن البحث عن الضـد صـارَ غاية وفي الوقت نفسـه وسيلة ، وأي ضـد أقسـى وأمَرُ وأرهبُ ضد على الإطلاق .

وعبر إجالة النظر في مجمل النسـيج الشـعري للنص نجد بعض الثنائيات المتضـادة تولّدت عن الثنائية الأم مثل (لا أتبعها ضد تتبعني) ونجد أن ثمة ثنائيـات متضـادة قابعة في منطقة الظل كأنها جاءت متخفيّة دل عليها الرد عليها بالضـــد ، فكان هناك (لوم) دفع الشاعر إلى القول (لا تلمني) وكان هناك (منع) فرد الشاعر بقوله (دعني) ، ثم لو ربطنا على نحو رصد بؤر الثنائيات المتضـادة الكامنة في النص نجد السلسلة ممتدة (فدعني) بعد خمسة أبيات نجد ضدها (لا تدعني) مع افتراق في الأصوات ، ففي الأولى صوت الشاعر ، وفي الثانية صـوت المسكين ، ثم أن الشـاعر يمثل الأنا والمسكين يمثل الآخر . وهذا ما

---

(35) شعراء إسلاميون ، شعره : 391-392-393.

ترشح من ثنائيات متضادة في النص الذي ما تلبث انثيالات الثنائيات المتضادة مشعة به وعليه .

ولما لم يجد الشعراء المخضرمون في جاهليتهم بُداً من الفناء والهلاك ، وأصبحت هذه الحقيقة محسوسة لهم ولغيرهم ((أخذت آمالهم تتلاشى وتخيب في غمرة الحياة المليئة بالمتناقضات ما دام الموت يقف لهذه الحياة بالمرصاد فشعروا بعبثيتها وانطلقوا غيرَ آبهين يتزودون من ملذاتها وينهلون من متعها كردة فعل طبيعية تشعرهم بالانتصار على الموت والانتقام منه فكانت الخمرة والحياة الماجنة والنساء والفروسية مادة للهو الشاعر الجاهلي وعبثه)) [36] ومن أبرز الصور التي قدمها الشعراء المخضرمون لهذه الحياة اللاهية ما قاله حسان بن ثابت في جاهليته :

ومُمْسِكٍ بصّداعِ الرَّأسِ مِنْ سُكرٍ

ناديتُهُ وَهُوَ مَغْلُوبٌ ففدَّاني

لمَّا صحا وتَراخى العيشُ قلتُ لهُ

إنَّ الحياةَ وإنَّ الموتَ مِثْلانِ

فاشرب مِنَ الخمرِ ما آتاكَ مشربهُ

واعلم بأَنْ كل عيشٍ صالحٍ فانِ[37]

لو نظرنا إلى مجمل خط الثنائيات المتضادة الذي يسير عليه حسان بن ثابت لوجدنا إعراباً واضحاً عن إلحاح هواجس المتضادات في تفصيلات كيانه الذاتي النفسي ـــ ويمكن رصد تلك الثنائيات في نصه الشعري (السكر ضد الصحو) و(الموت ضد الحياة) ولو دخلنا عالماً أعمق في خط سير تلك الثنائيات لوجدنا أنه قد باح بأمر ربما هو الهاجس الأكثر إلحاحاً عليه ، إذ جعل الحياة تساوي الموت على الرغم من تضادهما الصارخ العنيف الذي لا يقبل المهادنة ، جعل منهما (مثلين) إلاّ أنه لم يجعل (السكر ضد الصحو) كذلك ، ثم لو نظرنا إلى ما أحدثته علاقة التضاد في اقترابها من المفهوم الإسلامي حول الموت والحياة ، إذ ركز هذا المفهوم على أن الحياة (غفوة ـ حلم ـ سكر) وأن الموت (خلود ـ دوام ـ صحوة) مما يدل دلالة لا ريب فيها على تواشج العلاقة بين كثير من مفاهيم ما قبل الإسلام مع المفاهيم الإسلامية .

---

(36) ثنائية اللذة والألم في الشعر العربي قبل الإسلام : 151.

(37) شرح ديوانه : 472، وينظر مثل ذلك ديوان أبي محجن الثقفي : 23.

ونجد أن الشاعر في إيراده الثنائيات المتضادة سعى إلى بناء هيكل صوري يزداد تأثيره وتبرز جماليته بالاتكاء على أسلوبية التضاد ، وأعني به إحداث تموجات نفسية في مساحات اللاوعي المتمركزة حول وعي مشوب بالانكسارات والقهر والغلبة ، فحاول من خلال موجة الصدمة أن يشرخ ذلك الوعي لكي يتصدع ويعيد بناء ذاته الفردية والجماعية وتكون على نحوٍ جديد يمهد لمرحلة الانتقال التي تحدّث عنها الشاعر فيما بعد اعتناقه فكر الإسلام وتبنيه عقيدة وأولها عقيدة التوحيد التي تثبت في الذهن أن الرب لا ضد له ، ولا ند وكل ما سواه له ضد وله ند .

أما الرب فهو يحضر على ذاته ، وينفيه ، ويتنزه عنه تعالى الله عما يصفون تعالياً كبيراً .

ويبدو أن طبيعة الحياة الدينية قبيل الإسلام كان لها أثر كبير في عدم وجود قناعة كافية عند الكثير من الشعراء المخضرمين بالبعث والنشور أو وجود حياة أخرى بعد الموت ؛ لذا نجد فيهم مَنْ قابل فكرة البعث والنشور بالسخرية ، إذ قال عبد الله بن الزبعرى [38] :

حياةٌ ثم موتٌ ثم نشرٌ

حَديث خرافة يا أمَّ عَمرِو[39]

وعلى الرغم من أن أبناء المجتمع كانوا يدينون بعدة ديانات منها اليهودية والنصرانية والأحناف ، إلاّ أن الوثنية كانت ديانة السواد الأعظم ((ونظرة الوثنية التي ترى في الموت نهاية لا بداية بعدها)) [40] . وهذه الحقيقة جسدها قوله تعالى على لسان حال المشركين **((أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ))** [41] .

---

(38) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي ، أبو سعيد ، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديد العداء للمسلمين إلى أن فتحت مكة ، فلما أسلم مدح النبي محمد ρ واعتذر عن كفره وعدائه للمسلمين ، ت سنة 15هـ ينظر أُسد الغابة : 239/3، والأعلام : 87/4.

(39) ثمار القلوب : 102.

(40) دراسات نقدية في الأدب العربي : 227 .

(41) سورة الواقعة ، الآية : 47.

وعلى الرغم من كل ذلك فإننا لا نعدم أن نجد في المخضرمين مَنْ يؤمن بالبعث بعد الموت كأمية بن أبي الصلت ولاسيما إذا علمنا إيمانه بالحنفية إذ قال :

يوقفُ النـاسُ للحســـابِ جميعـاً

فشـــقـيٌ مـعـذبٌ وســـعـيـدُ [42]

وبعد أن بيّنا بعض ملامح ثنائية الحياة والموت في شـعر الشـعراء المخضـرمين الجاهلي ننتقل إلى العصـر الإسـلامي ، فبعد بزوغ فجر الإسـلام طبعت معظم تلك الملامح بما ينســجم مع المبادىء العامة التي جاء بها الدين الجديد ، فضـــلاً عن التغييرات التي حصـلت في جوهر هذه الثنائية ، فما يتعلق بمعالم الحزن واليأس القاتل والجزع الشـديد الذي لاحظناه في حديثهم عن الموت ، نراه يتوجه وجهة إسـلامية ولاسيما في غرض الرثاء، ولعل السبب في ذلك يعود إلى حالة الموت التي تستدعي الرثاء ، ففي رثاء شـهدائهم نلحظ أن ما فقدوه من الحياة الدنيا إلاّ ليهنئوا بالحياة في الآخرة ، حيث الجنة والنعيم الدائم فعلى الرغم من أن الحزن عاطفة بهتت بعض الشـــيء في فجر الدعوة الإســـلامية من خلال الإيمان العميق الذي حفت به نفوس المسـلمين وأن ما يصـيبهم من أمر الشـهادة تطمح إليه نفوس المجاهدين لنيل الجزاء في الآخرة ، وبذلك حلّت صورة البشرى محل اليأس ، وقد حصل كل هذا بسـبب الإطمئنان إلى فكرة ((الحياة وراء الحياة أو امتداد حياة الإنسـان فيما بعد الموت وانفتاحها على المثوبة والعقاب فثمة جزاء مؤجل يمتلك حضوره بدءاً من أول لحظات الغياب عن حياتنا تلك)) [43] .

ويبدو لي أن إسـلام الشـاعر المخضـرم عمّق تجربته الشـعرية من خلال التخلص من انفعالاته الشـديدة وحزنه الكبير المؤلم ، لأن الإحسـاس بالموت بعد ظهور الإسـلام لم يكن فاجعاً مدمراً ، بل غدا عبوراً من الحياة الدنيا إلى الآخرة ، وبهذا أنقذ الإسلام النفس من شقاء التفكير في عبثية الحياة ومن إحسـاسـها الفاجع بالفناء المطلق . فالأشـتر النخعي يعبّر عن ذلك بقوله :

يا ربي جنبني سبيلَ الكفـره

---

(42) أمية بن أبي الصلت حياته وشعره : 198.

(43) النص القرآني من الجملة إلى العالم : 124.

وأجْعَلْ وفاتي بأكفِّ الفجــره

لا تَعْدِل الدُنيا جَميعاً وَبَــره

ولا بَعُوضَاَ في ثـوابِ البَرَرَه (44)

اســتغل الشــاعر الثنائيات المتضــادة (الكفرة ضــد البررة) في التعبير عن تجربته الذاتية ، فقد رأى أن الحياة لا تساوي شيئاً عند الله ، وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخروية ، وهكذا نرى تأثر الشاعر بالمعاني الإسلامية الجديدة فتمثلها ونبضت في عروقه .

ويبدو أن شـخصـية العربي قبل الإسـلام وبعده ظلت ذات محاور ثابتة لم تحد عنها على الرغم من فكر الإسلام وفلسفته ، إلاّ أنه لم يجب كثيراً من ميراث الشخصية العربية بل دعا إلى الازدياد من بعض تلك المزايا وهذا ليس تناقضــاً أو تضــاداً بقدر ما هو امتداد حي يدل على علاقة الإسـلام علاقة واضـحة لواقعهِ المعرفي الذي نشـأ فيه ، فالشـاعر عمرو بن شــأس يرى بَعْدَ إســلامه مثلما يرى غيره من الشــعراء المخضــرمين في جاهليتهم أن الموت لاحق بالبخيل والكريم على حدٍ سواء ، إذ قال :

وعَــاذِلَــةٍ هَبَّــتْ بــلــيــلٍ تــلــوُمــنــي

فلمَّــا غَلَــتْ في اللوّمِ قلــتُ لهــا مَهْلا

ذَريني فــإنّي لا أرى الموتَ تــاركــاً

بــخــيــلاً ولا ذا جَــودةٍ مــيّــتــاً هَــزْلا

متى ما أصِـــــب دُنيا فلســـــتُ بكائنٍ

عليهــا ولو أكثرت عــاذلَتِي قُفْلا(45)

فالشـاعر يرى أن الموت الذي هو هاجس الفناء الذي نشـأ عنه كل صـراع المخلوقات لا يترك بخيلاً ولا كريماً ، إذن فالمدخل واحد والمخرج واحد ، وبهما تتحالف الأضـــــداد ، ويؤكد الشـاعر صـدق رؤيته على الرغم من أن الرؤية هي رؤية ذات طابع فطري سـليم بكل أبعادها المعلنة وغير المعلنة ، لأن الطريق واحد ، فالأولى تضخيم صورة القيمة التي يتمسك بها الشاعر وتفويت الفرصة على تلك العاذلة التي قد تكون الشاعر نفسه.

---

(44) وقعة صفين : 429 ، الوبرة ، واحدها وبرة ومعناها صوف الإبل أو الأرانب .

(45) شعره : 41.

أن يكون الجود الصفة الألصق بالإنسان الرجل العربي امتداداً لأرومة كل ما فيها يشير إلى تلك القيمة الأخلاقية السامية التي تجعل خلود الإنسان أبدياً بعد أن كان حضوره مؤقتاً .

ويطالعنا معن بن أوس المزني بقوله :

تلومُ على إعطائيَ المالَ ضَلَّةً

إذا جَمَعَ المالَ البخيلُ وَعَدَدَا

000000

أعاذلُ إنّي قَدْ عَلِمْتُ بأنَّني

وإن كنتُ لا آتيكِ إلاّ مؤيَّداً

إذا زالَ نعشي واعترتني منيتي

وصَاحَبْتُ في لحدي الصَّفيحَ

فَقولي فتىً ما غَيَّبوا في ضَرِيحِهِمْ

المُنَضَّدَا

تَزَود مَن حُبِّ القرى ما تَزَوَّدا (46)

تتوقف قدرة الثنائيات المتضادة على ظهور مدى هيمنة إحساس ما على وجدان الشاعر من مخزون كيانه ودواخله وكل أبعاد عقله الباطن وعالم لا وعيه . إذ نفى الشاعر الإتيان ، ثم أثبت بالاستثناء حالة إتيان مغايرة هي (لا آتيك ضد آتيك مؤيداً) وهذا ما يسمى بتضاد السلب . فلنتصور حالة التضاد التي اخترقت كيان الشاعر لتحدث عنده فسحة يرى من خلالها ما كان يكره أن يراه على نحوٍ يجسم له كثيراً من الهواجس المعلقة التي كانت تبحث عن يقين ، إذ الملاحظ تحول اتجاهات الهواجس الإنسانية من حال إلى حال أُخرى يكثر فيها الموت ، وكأن ذلك حادث بفعل الخطاب الديني الإسلامي والإكثار من التذكير به ، فليس لموته علاقة بالكرم والبخل وإنما الإنسان يموت في الأجل الذي حدده الله سبحانه وتعالى له في الوقت الذي ينتهي عمره ، وكل ذلك بيده سبحانه وتعالى إذ قال : ((**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**))(47) . وهذا الإيمان جعل

---

(46) ديوانه : 80-81.

(47) سورة الأعراف ، الآية :34 ، وينظر مثل ذلك سورة يونس ، الآية :94 .

هاجس قول الشـــعر لتأكيد القيمة الوجودية على الرغم من أنها النهاية لكيان الإنســـان في المنظور المادي ، إلاّ إنها البداية في المنظور القيمي الإسلامي .

إذن التضــاد الحاصــل بين لا آتي وآتي يفهم على نحو القبول والتســليم ، خضــوعاً لمهيمنات الخطاب الجديد الذي يفنى فيه الجســد وتخلد فيه الروح لذلك تكون دلالة التضــاد هنا دلالة إتفاق لا دلالة افتراق ، ودلالة بقاء لا دلالة فناء .

وينحو الشاعر المخضرم تميم بن أُبي بن مقبل في نزعته التأملية الفكرية منحى غيره من الشعراء الذين لم يظهر تأثير الفكر الإسلامي واضحاً في شعرهم في استخدام الثنائيات المتضادة غير المباشرة للتعبير عما يخالج نفسه من آمال لا يمكن لها أن تتحقق فقد ((كان تميم واحداً من هؤلاء الشعراء الذين دخلوا في الإسلام لأن قبائلهم دخلت فيه ، ويبدو أنه لم يتحرج من إعلان حنينه إلى الجاهلية وبكائه على أيامه)) [48] ، إذ قال:

ما أطيب العيشَ لو أن الفتى حجرٌ

تنبو الحوادثُ عنــهُ وهو ملمُومُ[49]

فلم يكن لظهور مبادىء الإســـلام تأثير كبير في شـــعره فهو لا يلبث في ترديد المعاني الجاهلية ، فهو لم يحتســـب لموته حياة في الآخرة فمن خلال تموجات النص نلحظ تماهي المتضــادات في خلق ســورة الألفاظ . بيد أن إندلاع حرائقها ما يلبث أن يقوم فـــ (الحجر لا يفنى ← خالد) و(الفتى ← هالك) والمتضادة لم تترشح عن مباشــرة بل عبر مســامات فرعية أوجدت الطريق إلى كينونة الثنائيات المتضــادة على نحوٍ هادىء وأكدت حقيقة الوجود بالفناء والهلاك .

وسلك بعض الشعراء المخضرمين في قصائدهم الإسلامية مسلك التأمل والتفكير في حقيقة الموت من خلال ((مشاهد الخلق الإلهي سواء للإنسان أو السموات أو الأرض بين أبيات القصـــيدة العربية في معرض التفكير والتحذير)) [50] وهي غالباً ما تتأثر بالآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق والخالق ولهذا نجد شاعراً مثل النابغة الجعدي صاحب العمر

---

(48) قراءة معاصـرة في نصـوص من التراث العربي : 250 ،وينظر تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية : 91 .

(49) ديوانه : 273.

(50) أثر الإسلام في بناء القصيدة العربية : 104.

الطويل الممتد من الجاهلية إلى العصر الأموي ؛ يقابل بين دورة حياة النبات التي تشبه إلى حدٍ كبير دورة حياة الإنسان في معرض حديثه عن النصح والإرشاد إذ قال :

وما البغي إلاّ على أهلهِ
وما الناسُ إلاّ كَهذي الشَّجَر
ترى الغصنَ في عنفوانِ الشباب
بهِ أهتز في بهجات خَضر
زماناً من الدهرِ ثم التوى
فعادَ إلى صفرةٍ فانكسر(51)

من خلال تأمل الأبيات نجد أن أسلوبية التشبيه جعلت الناس كالشجر ثم ترادفت المتضادات في الصورة وليس في محور لفظي انفرادي واحد ، بل في عدة محاور مفادها الأساس وغايتها الأولى التمحور حول المعنى واجتذاب أطرافه التي قد يتوهم تباعدها ونأيها ، إذ الناس شجر يشب يلتوي يشيخ والتضاد حاصل في بيان صورة الناس عبر استخدام المقابلة للمتضادات في بنية التشبيه الاسلوبية ، وهذا هو الذي يولد نافذة الإختراق نحو المتلقي لإنثيالات الصورة عبر المسافة التي يخلقها اجتماع المتضادات، ولكن ما وجه العلاقة بين (الناس والشجر) لعل لهذا علاقة ببعض الأسطورة التي تقول : أن لكل إنسان ورقة في شجرة عظيمة تسمى (شجرة الحياة) فإذا أوشك على الهلاك تصفرُ شيئاً فشيئاً حتى تسقط فيهلك ...

ثم أن ظهور المتضادات لم يأتِ مصرحاً به ، بل جاء ضمن إطار الصورة مما يمكن أن نطلق عليه ولو تجوزاً التضاد الصوري ، بمعنى إن هناك تضاداً يرسم صورة وبالمقابل فإن هناك تضاداً تولّده الصورة .

وقد شكل الشاعر صورته متوسلاً حركية ممتزجة بنمط بصري إذ ذكر (ترى . صفرة) وذكر (يهتز ـــ التوى ـــ انكسر) وحتى في صورته الحركية هذه تجسيد لدورة حياة الإنسان .

نستنتج مما تقدم أن المقابلة الصورية التي أجراها الجعدي كانت قصدية فكرية ، نمت على حرصه على تقديم النصح والإرشاد في ضوء الفكر الإسلامي ؛ لذا تركت ((في

---

(51) شعره : 219.

الشـعور آثارا عميقة بأسـلوبها الموازن المقارن)) [52] فقد انصـرفت مقابلته الحكمية هذه إلى توجيه الناس وتذكيرهم بما ينفعهم وما يضرهم لمواجهة المصير المنتظر .

وتابع لبيد بن ربيعة العامري ، الجعدي في مسـلكه التأملي لحقيقة الحياة والموت في أثناء تعزيته لنفسـه بمصـاب أخيه أربد إذ ((ينفد الشـاعر من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة)) [53] حين قال :

فـلا جـزعٌ إنْ فـرَّقَ الـدهرُ بَيْنَنَـا

وكُـلُّ فتىً يومـاً بـهِ الـدهرُ فـاجعُ

فَـلا أنـا يـأْتيـني طريـفٌ بِفَرحَـةٍ

وَلا أَنـا ممـا أَحْـدَثَ الـدهرُ جـازعُ

00000

وما المرءُ إلاّ كالشِّـــهَابِ وضَـــوْئِـهِ يَحُورُ رماداً بَعْدَ إذْ هَوَ سَـــاطعُ[54]

يكشف النص عن أنساق ثنائية متضادة متوهجة تلفظ صوراً تقف على حاشية قرارة موجة صاخبة ، ولعل أبرز ثمرات هذه الثنائيات المتضادة حصلت بين (فرحة ضد جازع) و (رماد ضد ساطع) ولعل المتضادة الأخيرة هي متضادة إحالية أي أن الرماد يحيل إلى الإنطفاء الذي هو ضد السطوع ، ومن الملاحظ أن المتضادات الإحالية إن جاز لنا تسميتها هي الأكثر تنشـيطاً لبؤر التكون والتشـكيل الصـوري لأن مسـافة الإنزياح كلما بعدت بين الأضداد كانت أكثر ضدية وصخبا ، وكلما ازداد فيها ذلك ازدادت جمالية الصورة وتوهجت على نحوٍ يظهر كثيراً من مكنوناتها .

فحين تقوم الصورة التقابلية على الثنائية الضدية (الحياة ضد الموت) فإنها تعبّر عن نظرة الشاعر أو سواه إلى هذه الثنائية التي لا يملك لها تفسيراً بإزاء ديمومة هذا الصراع بين طرفيها ، وحين يكون الشاعر المخضرم مسلماً يكون الأمر مختلفاً ؛ لأن العقيدة الإسلامية أجْلت حقيقة الحياة وبينتها وأعطت الموت بعده الحقيقي ، فالإســـلام لم يأتِ ليزيل الموت ، بل جعله المحفز الدائم إلى الإيمان والعمل الصـــالح ، وأن الموت الذي أكد القرآن الكريم

---

(52) البلاغة والتطبيق : 443.

(53) دراسات في الأدب الإسلامي : 137.

(54) شرح ديوانه : 168-169.

وقوعه وحتميته حيث قال تعالى : ((**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُون**)) [55] هو انتقال من دار ضيقة زائلة إلى دار واسعة دائمة وذلك ما نجده راسخاً أيضاً في قول عبد الله بن رواحة حامل راية الإسلام في مُؤْتَة بعد استشهاد صاحبيه زيد بن حارثة وجعفر الطيار رضي الله عنهم جميعاً :

يَا نَفْسُ إلا تقتلي تَموتي
هذا حِمَامُ الموتِ قَدْ صَلَيْتِ
وما تَمنّيتِ فَقَدْ أُعطيتِ
إنْ تَفْعلي فِعْلَهُما هُديتِ
إن تسلمي اليومَ فلن تفوتي
أو تُبتلي فطالما عُوفيتِ
وإن تَأخَّرتِ فَقَدْ شَقيتِ [56]

فالشاعر من خلال التقابل الصوري المتضاد نجده يعبّر عن رغبة في اختيار الموت الشهادة مفضلاً إياها على حياة الذل والهوان ، وتكشف لنا الأبيات عن الواقع النفسي المتأزم الذي يعيش فيه الشاعر بين الرغبة في الشهادة والرهبة من الموت ((بحسب إسترجاعات النفس ووقفات اللسان ، وتهدي الفكر ، وكل قسم يأتي به يمثل جملة أو فقرة، أو دفعة من دفعات التعبير)) [57] مما يوحي بحركة التموج النفسي الحزين وهو بذلك يحقق الحياة في الموت بديلاً تقابلياً لحالة الموت في الحياة .

---

(55) سورة المؤمنون ، الآيتان : 15-16.

(56) ديوانه : 87 ، وينظر مثل هذه الصورة التقابلية ص 98-99 ، وينظر شرح ديوان حسان بن ثابت : 309-310 يرثي بها شهداء بدر ، وديوان كعب بن مالك : 187-188.

(57) الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري : 221.

المبحث الثاني
الثنائية المتضادة (الشباب ضد الشيب)

الشـــيب لغة ((بياض الشـــعر)) [58] والمشـــيب هو ((دخول الرجل في حد الشيب))[59] .

والشباب : الفَتاء والحداثة شب يشبُ شباباً وشيبة ثم تقول لقيت زيداً في شباب النهار أي في أوله .. والتشبيب النسيب بالنساء [60] .

إنَّ الشباب مرحلة واسعة من مراحل الحياة وأفق مترامي الأطراف ونهضة شامخة من نهضـات بَني البشـر ؛ وهو ربيع الحياة الزاهرة ومنطلق القوة والفتوة والنشـاط والأمل الباسـم والثمرة اليانعة الحافلة بأنواع المتع والملذات والسعادة والسرور [61] .

وبينما الإنسان في غمرةٍ لاهية من هذا أو ذاك إذ يصحو من غفوته الوادعة وينطلق نحو واقع مرير وربما كانت صـــحوته هذه بعد فوات الأوان حين يشـــعر بإدبار الشـــباب وانصرامه وبشيب يعلو رأسه ، وضعف يدب في جسمه وإلى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى في قوله : **((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَـعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَـعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَـعْفًا وَشَـيْبَةً))** [62] . وقد نادى زكريا (عليه السلام) ربه حين قال : **((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا))** [63] .

وإزاء تلك الحقيقة فإن مشـاعر الحزن والألم والمرارة هيمنت على مشـاعر الإنسـان بصورة عامة ، والشعراء بصورة خاصة ، إذ جعلتهم يشعرون بالانتهاء والانطفاء فهم سلوا البداية وأصبحوا على مشارف النهاية ، ولكنهم في ذواتهم أخذوا يتذكرون الشباب بقلبٍ حزين [64] ؛ وأخذوا يبحثون عن وجوديتهم [65] من خلال الذكريات ، فالشـــيب والانتهاء يولدان

---

(58) لسان العرب ، مادة : (شيب) .
(59) مختار الصحاح ، مادة : (شيب) .
(60) لسان العرب ، مادة : (شب) .
(61) ينظر قضية الزمن في الشعر العربي (الشباب والشيب) : 27.
(62) سورة الروم ، الآية : 54.
(63) سورة مريم ، الآية : 4.
(64) ينظر بنائية المعنى في الشعر : 6.
(65) ينظر الشيب والهرم في الشعر العربي قبل الإسلام : 6.

الذكرى المنطفئة والإحســـاس بالحب هو النور الذي يشـــعل الماضـــي ولياليه، لذا أخذوا يستجدون ويستعطفون ذكرياتهم وذلك ما لا يطالونه دائماً .

وعلى الرغم من ذلك فقد اخذ بعضـهم يبحث جاهداً نفسـه للوصـول إلى علاج يخفف من آثار الشـيخوخة [66] ، ولكن لا فائدة فلا شـيء أمامه سوى الحلم وأما استعادة ذلك الألق السـاحر فليس بمقدوره ، فلا أحد يسـتطيع أن يعيد مسـيرة الطبيعة إلى الوراء ، فالشـيخوخة مرحلة الإنسـان النهائية . ((كما كان نصـول الشـباب إلى الشـيب ، وكما كان الفناء عاقبة الشيب كان الشيب عاقبة الشباب وغايته)) [67] .

وقد أكثر الشـعراء المخضـرمون من ذكر الشـيب والشـباب وأطنبوا في خطابه وتفننوا في وصـفه ، وأبانوا عن هواجس النفس اتجاههُ ، فقد كانت رزية فقد الشـباب شـديدة الوقع على النفس فهي واحدة من فواجع الدهر التي حولت حياة الشـعراء من عزٍ إلى ذل وانكسـار ، ومن قوة إلى ضعف وإنهيار .

فأخذوا يبكون شـبابهم الذي ذهب مع ذهاب أيامهم ويشـكون ضـعف قوتهم والمشـيب الذي أشعل رؤوسهم ، ويذكرون محاسن الشيب والشباب ومساوئهما مبينين من خلال ذلك ما له وما عليه سواء أكان في الجاهلية أم في الإسلام [68] .

فها هو الشـاعر المخضـرم المزرد بن ضـرار في جاهليته يُظهر غضـبه وسـخطه من نزول الشـيب ؛ إذ يرى فيه ضـيفاً بغيضـاً لا يُسـر بقدومه ، وقد جرى العرف عند العربي أن الضـــيف يَسِـــرُ مُضـــيفه وينال منه كل ترحيب . أما إذا لم ينل منه ذلك فهو متناقض مع شـخصـية الضـيف فمن عادة الضـيف أن يكون محتشـماً لا يسـيطر على مضـيفه ويفرض وجوده وتسلطه إلى درجة أنه يدخل بلا استئذان وذلك ما أشار إليه الشاعر بقوله :

---

(66) ينظر ملحمة كلكامش : 42.

(67) الشهاب في الشيب والشباب : 155.

(68) ينظر على ســبيل المثال : ديوان المزرد بن ضــرار : 33، ديوان عمرو بن أحمر الباهلي: 92، ديوان كعب بن مالك : 211، ديوان حميد بن ثور : 7–8 ، 61 ، ديوان عمرو بن معد يكرب: 61، ديوان الشماخ بن ضرار : 129، ديوان ابن مقبل : 48، 50، 73، 74، 75، 104، 171، 216، 217، 367، ديوان ابن محجن : 40، ديوان سحيم : 16، 45، شرح ديوان كعب بن زهير : 40–41، 240، 249، شعراء إسلاميون ، شعر خفاف بن ندبة : 455، شعر ربيعة بن مقروم: 247، 273.

فلا مرحباً بالشـــيبِ مِن وفدِ زائر

متى يأتِ لا تحجبْ عليه المداخلُ

وســـقياً لريعان الشـــبابِ فإنهُ

أخو ثقةٍ في الدهرِ إذ أنا جاهلُ[69]

المتأمل للنص جيداً يجد فيه التناقض الذي أشـــرنا إليه قد ترشـــح عن ثنائية ضدية((الشيب ضد الشباب)) ؛ لأن شعور الشاعر وهو يصور قدوم الشيب من خلال شخصيته ، فهو يفد بلا موعد مسبق وهو لا يتوانى عن دخول أي مدخل أو إتجاه أو أي ركن من أركان حياة الشاعر ، ولا يمكن لشيء أن يقف ضده ولا أن يمنعهُ ويحيد منه، فهو متجهم ، لا يستأذن أحداً ولا يتروى في أحكامه ، والشاعر ينتقل إلى مفردة الضدية الثانية الشباب فيظهر صورتها المرسومة ذات الأبعاد الجمالية والقيمية والاعتبارية فهو أخو ثقة لا يخون صاحبه وينصحه وإن كان صاحبه جاهلاً .

والشاعر من خلال تقنية الثنائية الضدية (الشيب ضد الشباب) استطاع أن يُفَعّل بؤرة التشكيل الصوري التي عنها ينبجس الكيان العام للمعنى الشعري الذي أريد تقريره؛ لأن التضاد إذا ورد في أي نص يمنح النص إمكانية كبيرة في توضيح الصورة وتقريب المعنى [70] ، ثم أن افتتاح الضدية الأولى (الشيب بالدعاء عليها بلا مرحباً) إنما يدل على وجل الشاعر وتأزمه الذي وصل إلى حد القلق المزمن الذي رافقه كظله ، وجاء افتتاح الضدية الثانية (الشباب بأسلوب الأمر المصدر الذي خرج عبر المجاز إلى الدعاء له) وهذه من جهة أُخرى ثنائية ضدية (الدعاء له ضد الدعاء عليه) غير أنها قابعة خلف كواليس الثنائية الضدية الأصل (الشيب ضد الشباب) الأكثر وضوحاً وجرأة في الكينونة الشعرية ؛ ولعل هذا النمط من الثنائيات المتضادة يشيع كثيراً في المتن الشعري المخضرم، لأنه زمن إنقلاب وإصطراع بين بيئات وأفكار وهواجس عديدة منها ما تقدم ذكره، ومنها ما ظل يقف عند تخوم الانقياد والتسليم من دون النظر إلى ما تؤول إليه عاقبة الحال سلباً أو إيجاباً .

---

(69) ديوانه : 33، ريعان الشباب أَوَله وريعان كل شيء أوله .

(70) ينظر الأسلوب : 188.

إن النظر إلى الصحراء على أنها اقليم متحرر من قبضة الزمن [71] لا ينفي إدراك الشاعر المخضرم لجبروت الزمن وسطوته فقد ربط بعضهم بين (الشيب والشباب والزمن) ، فما التأسف على الشباب وعلى ذهابه إلاّ لما كان في أيامه المنقضية ولياليه الفائِتة ، وفي الشعر الجاهلي للشاعر المخضرم المخبل السعدي تبرز ثنائية (الشيب ضد الشباب) مجسدة التضاد الزماني (الليل ضد النهار) والذي يبدو من استعمال هذه الثنائية التي يبغي من ورائها تجسيد المسافة الزمنية التي وصلت (الشباب بالشيب) ، مما ينمُّ على تحسرهِ للأقتراب والتآلف فضلاً عن وصفه الحالة النفسية السيئة التي ضاق ذرعاً بتباريحها ، لأنها السبب في ظهور الشيب في رأسه ، إذ قال :

فلئن رأيتَ الشيبَ خوص لمتي

من طولِ ليلٍ كائب ونهارِ [72]

ومن خلال تأمل النص نجد أن ثنائية (الليل ضد النهار) استطاعت أن تجسد عمق المعاناة التي يحياها الشاعر لأنه جعلها سبباً لظهور الشيب بما تحمله من المصائب والهموم .

والأغلب العجلي من الرجاز المخضرمين الذين عمّروا طويلاً وأحسوا بتأثير الزمن على أجسادهم ، فتحدثوا عن آثار الكبر الظاهرة للعيان ، كضعف الجسم وانحناء الظهر وارتعاش الأطراف ، إذ قال :

أَصْبَحْتُ لا يَحْمِلُ بَعْضي بَعْضي

منفهًّا أروحُ مثلِ النَّقْضِ

طول الليالي أسرعَنْ في نَقْضي

حَنَيْنَ طولي وطوينَ عَرْضِي

ثُمَ انتحين من عظامي مَخْضي

أقعدْنني من بعدِ طولِ نَهْضِي [73]

---

(71) أطلق المستشرقون هذه التسمية على الصحراء العربية لسيطرة طابع الهدوء عليها ينظر المتغير الغربي : 113و 124.

(72) عشرة شعراء مقلون ، شعره : 63، وينظر مثل ذلك شرح ديوان كعب بن زهير : 190.

(73) الأغلب العجلي حياته وشعره :122، وينظر مثل ذلك عشرة شعراء مقلون ، شعر المخبل السعدي: 57، وشعراء إسلاميون ، شعر ربيعة بن مقروم : 256 ، وشعر النمر بن تولب : 356، 375، وشعر النابغة الجعدي : 239.

لقد أطّر الشاعر هذه المقطوعة الشعرية بثنائيات متضادة مثل (طولي ضد عرضي) و (أقعدنني ضد نهضي) وهاتان الثنائيتان إحالية إذ إنهما تحيلاننا على ثنائيات أُخرى أكثر وضوحاً وهيمنة على المجرى الموضوعي للنص وهما (الشباب ضد الشيب) و(الحركة ضد السكون) وبهذين الثنائيتين استطاع الشاعر أن يُعبّر وبعمق عن تجربته الشخصية المُرة شاكياً ألمهُ وأساهُ لفقد الشباب ، وقد أسعفته هذه الثنائيات المتضادة في حمل معاناته إذ أنه حَمَّلَ الليالي ظلاماً نفسياً قاهراً بعد أن كانت له الراحة والحركة والنشاط .

إنَّ فقدان الشباب دفع بعض الشعراء المخضرمين في الجاهلية إلى إطلاق الحسرات الملتهبة والندم على ما فات منهم ، فهو مصيبة ما بعدها مصيبة تستحق أن تسكب عليها العبرات والآهات الحارة ويتمثل ذلك في قول عمرو بن شأس :

فوا نـدمي على الشـبـابِ ووانـدم

نَـدِمْـتُ وبـانَ اليومَ مِني بغيرَ ذَمْ

وإذ إخوتي حولي وإذ أنـا شـائِخُ

وإذ لا أُجيبُ العاذِلاتِ مِنَ الصَّـمَمْ[74]

لهذا السبب ولأسباب أُخرى كَثُرَ البكاء على الشباب والتأسف عليه حتى قال أبو عمرو بن العلاء ((ما بكت العرب شيئاً ما بكت الشباب وما بلغت به ما يستحقهُ)) [75] .

لقد كره الشعراء المخضرمون في جاهليتهم الشيب أكثر من كرههم للحرب لأنهم يستطيعون تحمل وقع الحرب ولا يتحملون الشيب ، لهذا شبهوهها ووصفوها بأقبح الأوصاف واستلهموا أكثر هذه الصور من المحسوسات التي كانت في بيئاتهم بما يساعدهم على إبراز عظم وقعها عليهم وعمق أثرها فيهم [76] ، وعند الموازنة بين الحقيقة والصور المشبهة تتضح قدراتهم الإبداعية في توظيف الأساليب البيانية والبديعية لتقريب الفكرة الرئيسة على تنفير الناس من الحرب كما ينفرون من العجوز الشمطاء غير ذات الحليل، والشاعر يصل بهذه

---

(74) شعره : 80.

(75) العقد الفريد : 46/3 وينسب القول في، في ذكر بكاء الناس على الشباب وجزعهم من الشيب :93 إلى يونس النحوي (84- 182هـ) شيخ نحاة البصرة .

(76) ينظر أمثلة هذه الأوصاف في شعر الحرب في العصر الجاهلي: 413/1، 422/1.

ليبين شـدتها وضـراوتها ومن ثمَّ كره الناس لها وفي ذلك قال الشـاعر الفارس عمرو بن معد يكرب :

الـحـربُ أولُ مـا تـكـونُ فـتـيـةٍ

تســـــعى بـبـزتـهـا لـكـلِ جـهـولِ

حتى إذا حميتْ وَشـــب ضـــرامُها

عـادت عـجـوزاً غـيـر ذاتَ حـلـيـلِ

شـــمطـاء جَزتْ شـــعرهـا وتنكرتْ

مـكـروهـةٍ لـلشـــمِ والـتـقـبـيـلِ[77]

فصـورة الحرب أخذت إتجاهين أحدهما يتمثل في البداية التي تمثل القوة والقدرة على الاجتياح واكتسـاب الغنائم التي تمثل الملذات ولا أجده يعني غير الشـباب الذي ذكر واحدة من قرائنه (فتية) .

والإتجاه الآخر يكمن في الضـعف والخور والعجز الذي يتمثله (الشـيب) الذي ذكر قرينة من قرائنه (عجوز). ولهذا جاء المدى الزمني الممتد من الشباب إلى الشيب يظهر ما تؤول إليه حال الحرب إذا طالت مدتها . فقد توسـل الشـاعر بتقنية التشـبيه لإبراز صـورة الحرب من خلال توالد الأضـداد التي رأيناها في النص ، فالحرب أول ما تكون فتية في أوج شدتها وضراوتها ثم لا تلبث أن تتحول وبإمتداد الزمن إلى عجوز شمطاء مكروهة.

إن علاقة التضـاد المتفجرة على حواشـي المقطوعة الشـعرية كأنها دائرة تبدأ بالحرب وتنتهي بها ((تدفعهم إلى المجازفة للكشف عن ذواتهم وخصـوصـيتهم بشكل أو بآخر لأنها تمثل بالوقت نفســه نمطاً من الإدراك يقوم على المشــابهة)) [78] . لذلك أدى التشــخيص بالثنائيات المتضـادة الإحالية (فتية ضـد عجوز) و(الشـباب ضـد الشـيب) و(البداية ضـد النهاية) و(القوة ضد الضعف) دوراً ساعد على تضخيم الصورة والصوت في مشهد التضاد الكلي يتناغم مع الحالة التي يمر بها الشــاعر الفارس المخضــرم عمرو بن معد يكرب من الشباب والشيب على نحوٍ يزيد من مساحة المقارنة ما بين الحرب والثنائية الضدية (الشباب

---

(77) ديوانه : 156 ، وينظر 141 حيث اسـتخدم الشـاعر الصـلع بديلاً عن الشـيب أو المصـاحب له استخداماً بيانياً .

(78) البناء الفني لشعر الفرسان والأجواد : 126 وينظر المجاز الذهني : 77 .

ضد الشيب) لكي تزداد بُنية وضوح المعنى المقصود ، وتتجسد أبعاده المنظورة وغيـــر المنظورة عبر مزية جعل الأضداد على شكل حلقة تبدأ بالحرب وتنتهي بها .

وكأنما أراد الشـــاعر اختصـــار جملة من المفاهيم التي تتعلق بالحرب وأراد أن يقرر جملة من الحقائق التي يصدق الوصف عليها إلى حد ما بأنها عسكرية ، ويكشف النص عن سأم الشاعر وضجره من كثرة الحروب والنزاعات التي فرضت عليه على نحوٍ هو راغب عنه ، وهذا السأم والضجر هو الشعور ذاته حيال الشيب ، إذا لم يكن أكثر منه فهما إذن شرٌّ لا بد من ركوب موجه .

وإن ثقة الفارس بنفســه وتفاخره بأفعاله خلق تياراً مضــاداً يظهر جلياً عند عمرو بن معد يكرب حيث استطاع أن ينقض به كل تصورات العاذلة الخاطئة ، ويبعث القناعة التامة بفضــائل الشـيب ، ولعل الشــاعر أحس أنَّ هذا التعالي قد يجدي ويعزي أمام حقائق أزلية ، وإذا كان الزمن يقوم بدوره المؤثر ، فإن الشـاعر يحس بتداعي قدرته أمام مجالدة الأيام ، ولم يجد بُداً من المقاومة ، فإن الاســتجابة تصــبح التعالي ، إذ يمتزج فيها الوعي باللاوعي ، والواقع بالتوهم ، إذ قال :

أعــاذلُ إنــمــا أفْـنَــىَ شَـــــبــابــي

ركوبي في الصـــريخِ إلى المنــادي

مع الفتيــانِ حَتى سَـــــلَّ جسْـــمِي

وأقـرحَ عــاتــقــي حــمــلُ الــنــجــادِ[79]

ويقف الشـعراء المخضـرمون في جاهليتهم أمام بؤرة المعاناة في مأسـاة فقد الشـباب، ألا وهي إعراض الحبيبة عن الشـــاعر بمجرد حلول الشـــيب ، وهذه الحقيقة جعلت بعض الشعراء أقرب إلى الاستسلام واليأس ، فقد غدوا غير قادرين على المواصلة والإستمرار فقد قال خفاف بن ندبة :

---

(79) ديوانه : 61 ، الصريخ : المغيث .

فـأمَّـا تَرَيْني أقصـــرَ اليومَ بـاطِلي

ولاحَ بيـاضُ الشـــيـبِ في كـلِ مَفْرَقِ

وزَايلـني ريقُ الشـــبـابِ وظِـلُّ هُ

وبُـدِّلـتُ منـهُ سَـــحْقَ آخرَ مُخْلقِ[80]

جاء التضـاد الزماني (الشـيب ضـد الشـباب) تعبيراً عن حسـرة الشـاعر على أيام الشباب وخذلانه وحب الجميلات الذي ذهب عنه بلا رجعة .

وفي عدة أبيات لخفاف بن ندبة من قصـــيدة طويلة أنكر فيها الشـــاعر التحول والتناقض الذي طرأ على أفعاله وبدنه وسرعة تغيير عاطفة زوجه حين قال :

لَعَمْري لقـد أَنْكَرْتُ نَفْســـي ورَابَنِي

مع الشَّـــيْـب أبـدالي التـي أتَبـدّلُ

فَضُـــولٌ أراهـا في أديميَ بعـدَمـا

يكون كِفـاف اللحم أو هو أفضـــلُ

00000000

وضـــلعي ولم أكســـر وأنَّ ضـــعينتي

تـلـف بـنـيـهـا فـي الـبـجـاد وأُعزلُ

00000

وكنتُ صـــفي النفس لا شـــيء دونهُ فقد صَـــرتُ من أقصـــى حُبَيبى أذهلُ

00000000

تـدارَكَ مـا بعـدَ الشـــبـابِ وقبلَـهُ

حـــوادثَ أيـــامٍ تـــمـــرُّ وأغـــفـــلُ

00000

يَودُّ الفتى طولَ الســـلامـةِ والغنى فكيفَ ترى طولَ الســـلامـةِ يفعلُ[81]

---

(80) شعراء إسلاميون ، شعره : 455، أقصر : كف ، المفرق : وسط الرأس حيث يفرق الشعر، ريق الشباب أفضله وأوله السحق ، الثوب البالي وأراد به الشيب .

(81) شعراء إسلاميون ، شعره : 366– 369.

يجري التضـــــاد هنا على إدراك المعنى إدراكاً يقوم على المغايرة والتنافر ، أو على المفاضـلة ، فالأبيات بما تحمله من صـور متقابلة وهي في الأغلب صـور سـمعية بصـرية مفصـلة جاءت تعبيراً صـادقاً وصـريحاً عن خوالج النفس وآلامها لرحيل الشـباب وما تميز به من صـفات تكون على النقيض مما جاء به الشـيب من ضـعف عام للجسـد وللنفس ((وفيها نقع مباشـرة على الدلالة الشـعورية التي تحملها ، بلا تكلف التأويل والتفسـير، ذلك أنها تعتمد في تكوينها على عناصـر يكون الإيحاء فيها مباشـراً وبمجرد أن يكتمل تكوين الصـورة يكون الشعور الذي تنقله قد مثل لمداركنا في طواعية)) [82] .

ومثلما وقف الشـاعر المخضـرم في جاهليته بإزاء مأسـاة إعراض الحبيبة أو الزوجة بمجرد حلول الشـيب في رأسـه يقف الشـاعر المخضـرم النابغة الجعدي بعد إسـلامه يتذكر صـدود حبيبته عنه حينما رأت المشـيب لاحَ في رأسـه . فإنَّ أشـد ما يفعله الشـيب في نفس الشاعر هو عزوف النساء وصدودهن بعد إقبالها ، إذ نراه يقول :

تـذكرتُ ذكرى من أُميمـة بعـدمـا لقيـتُ عنـاداً من أُميمـة عـانيـا

فلا هي ترضـــى دونَ أَمْرد ناشـــيء ولا اســـتطيعُ أن أرد شـــبـابيـا

وقد طـالَ عهدي بـالشـــبـابِ وأهلـهِ ولاقيـتُ روعـات يشـــبنَ النواصـــيـا

بـدت فعـل ذي ودٍ فلمـا تبعتهـا تولـتْ وأبقـتْ حَـاجَتي في فؤاديـا

وحلـت ســـواد القلـبِ لا أنـا بـاغيـا ســـواهـا ولا عن حبهـا متراخيـا

ولو دامَ منهـا وصـــلهـا مـا قليتهـا ولكن كفى بـالهجرِ للحـبِ شـــافيـا

ومـا رابهـا من ريبـةٍ غير أنهـا رأت لمتي شـــابت وشـــابت لداتيا[83]

---

(82) التفسير النفسي للأدب : 92.

(83) شعره: 77، الروعات : جمع روعة وهي المرة الواحدة من الروع الفزع .

مرَّ الشاعر بتجربة قاسية كشفت عن صراع مزمن دهم كيانه بعد أن قارنت حبيبته (أُميمة) بين ضـــعفه وبداية الشـــيب الذي رأته (لمتي شـــابت) وهذا في أوله فكيف بها بعد إكتماله عنده ـ ذلك هو الموت الذي يموته الإنسان قبل الموت ـ فما كان من الشاعر إلاّ أن جسد ذلك الصراع في شخص (أُميمة) وقد استهلها بفعل يدل على استرجاع شيء ماضٍ . فبعد أن ضاقت سبل الحياة بالشاعر وعجز عن حل التناقض في عالمه حاول أن يجعل من لغة العالم الذي يوفر له البديل عن ضـــيق العالم الخارجي ، فراحَ يوســـع حدودها ويجعلها ميداناً فسيحاً للتقابل والتناظر والإنسجام وتصادم المعاني محققاً من خلال ذلك كله في نفسه الاتساق والنظام والتوازن ، فقد حفل النص بجملة من المتضادات وهي (أَمْرد ناشيء ضد شيخ) وقد تمت هذه في أولها بمفردة واحدة .

وفي الضدية الثانية بجملة كاملة وهي (لا استطيع رد شبابيا) وتكاد مهيمنة الشباب والشيب تكون المهيمنة الرئيسة على هذا النص ، إذ نلحظ في البيت الثالث أن الشباب قد طالَ عهد الشاعر به ، ثم يبدو الشيب بصيغة الفعل جراء (الروعات) التي لاقاها الشاعر، فقد جاءت بصيغة الإسناد الفعلي (روعات يشبنَّ) إذ ورد الشيب وصفاً للروعات .

ويمكن ملاحظة المتضـــادة الأولى مفردة كما تقدم والثانية مركبة بطريقة الإســـناد الفعلي وهذا التركيب للنمط الأضـدادي إنما هو خصـيصـة تميز بها هذا النص . فقد تبناه الشـــاعر من أجل تحريك كل بؤر التفعيل والتشـــكيل الصـــوري التي كادت تغفو إلى جانب صـراخ اللحظات وهي تأكل كيان الشـاعر بمرورها مسـرعة بلا هوادة ، فقد قلل الشـاعر من اسـتعمال الجمل الإسـمية لأنها تشـعر بأنَّ الأمر قد ثبت واسـتقر وهذا ما يرغب أن يتخلص منه الشـــاعر ، لأن الانتكاســـات العميقة التي تخلفها مشـــاعر الكبر تحتم على الشـــاعر أن يشارك في الحل الإنساني لمشكلة الشيخوخة [84] .

وللثنائيات المتضـادة أو ما يعرف بالطباق أهمية كبيرة فقد ((يعول الشـعراء عليه في تقوية الجرس وإيجاد انسجام بين اللفظ والمعنى)) [85] ، لأن عدد كبير من الشعراء يتخذونه منطلقاً للتعبير عن الحالة النفســـية فعندما تنكرت محبوبة ابن مقبل ما هو عليه من كبر وشيب قال لها :

---

(84) ينظر الشيب والهرم في الشعر العربي قبل الإسلام : 135.

(85) المرشد : 248/2.

وَتـنـكَّـرتْ شَـــيْـبـي فَـقُـلْـتُ لَـهَـا لـيسَ الـمَشِـــيـبُ بنَـاقِصٍ عُـمْـرِي

سِـــيَّـانِ شَـــيْبي والشـــبـابُ إذا مَـا كُـنـتُ مِـنْ أجَـلِـي عَـلـى قَـدْرِ

مـا شِـــبْـتُ مِنْ كِبَرٍ ولكني امرُؤٌ قَـارَعـتُ حَـدَّ نـواجـذِ الـدَّهْـرِ

فَـرَأيـتُـهَـا عُصـــــلاً مَـوَقَّـحَـةً عَزَّت فـمـا تُسْـــطَـاعُ بـالْـكَسْـــرِ

فَلِـذاك صِـــرْتُ مَعَ الشَّـــبيبَـةِ نـازلاً فـي غَـيْـرِ مَـنْـزلَـتِـي مِـنَ الـعُـمْـرِ[86]

اســـتطاع الشـــاعر أن يعمق حالته ومعاناته مع محبوبته ويبرزها من خلال الثنائية المتضـــادة (الشـــيب ضـــد الشـــباب) الباعثتين على تأمل عمق الهاوية بين موقفه وموقف محبوبته وما خلفه ذلك في نفســه من قهر وحالة اضــطراب وتناقض ، فعمد إلى تكرار لفظة الشيب أكثر من مرة لإظهار مرارة وقع صداها في نفسه .

ولعل من أهم الأسـباب التي دعت بعض الشـعراء المخضـرمين في عصـر صـدر الإسلام إلى مدح الشيب وذم الشباب هو الوازع الديني وأثره فيهم ، فقد روي عن النبي محمد ρ أنه قال : ((مَنْ شابَ شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة)) [87] وهو الوقار قال عليه الصلاة والسلام ((إن أول مَنْ رأى الشيب إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : هو الوقار فقال رب زدني وقاراً)) [88] .

وقد وجد الشـاعر المخضـرم سـحيم عبد بني الحسـحاس في الشـيب الأثر الإيجابي الذي صرفه عن اللهو والتصابي ودفعه إلى الإعراض عن الماضي والتوجه إلى الحاضر إذ قال :

---

(86) ديوانه : 367–368، النواجذ : الأضراس ، العصل : المعوجُ الشديد ، الموَّقحة : الصلبة ، عزت : صعبت .

(87 + 3) لم أجد الحديثين في الصحيحين ولا في المساند ولا في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ρ . لذا خرجتهما من نهاية الأرب :21/2 ، وثمار القلوب : 556 حيث وردا .

فـإمَّـا تَـريـنـي عَـلاَنـي الـمشـــيـ

بُ وانصـــرفَ اللهوُ عني إنصـــرافـا

وبـــانَ الشَـــــبـــابُ لِـطـيـــاتِـــهِ

وقـدْ كنـتُ رُديـتُ منـهُ عِطَـافَـا[89]

((وعندما يدلف الفرد إلى الشـيخوخة ويحس بالضـعف يشـيع في جنبات نفسـه ، وأرجاء حياته ، ولا يجد ملجأً من القلق والعجز إلاّ في دينه ، يتخذ إيمانه وسـيلة لتحقيق الهدوء النفسـي الذي يسـعى إليه ، وذريعة إلى تقبل التغيرات التي بدأت تعصف بدينه ونفسه ، وتباعد بينه وبين ما حوله ومن حوله)) [90] . فالشـيب ذو تأثير إيجابي كما يراه عيدة بن الطبيب أيضاً فهو ينصح بترك التصابي بعد حلول المشيب في رأس المرء، لأن الصبابة بعد حلول المشـيب تضـليل فيجدر بالإنسـان في هذه المرحلة أن يهجر وصـل المرأة ويبتعد عن اللهو لأنهما غير لائقين بمن شـاب شـعر رأسـه ، ويجدر به أيضـاً أن لا يجعلها تشـغله عن القيام بالأعمال التي تقربه من الله سبحانه وتعالى ، إذ قال :

هَلْ حَبْلُ خولـة بعد الهجرِ موصـــولُ

أم أنـت عنهـا بَعيـدُ الـدارِ مشـــغولُ

00000000

فَعـد عنهـا ولا تشـــغلـك عن عمـلٍ

إنَّ الصـــبابةَ بَعْدَ الشـــيبِ تضـــليلُ [91]

يكشف النص عن مدى الصراع النفسي الذي يحكم العلاقة بين ذات الشاعر وعلاقته بمحيطه الخارجي ، فقد اسـتطاع التضـاد الحاصـل بين الثنائية المتضـادة (الهجر ضـد موصـول) أن يظهر لنا صـحوة الشـاعر بعد غفلته فهو يدعو إلى الهجر بعد الوصـال، لأنه يرى في شيبه خير وازع وزاجر له وهو في رأيه الصحوة بعد الغفلة والهداية بعد الضلال .

---

(89) ديوانه : 45.

(90) الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة : 433.

(91) شعره: 57 و 59، الحبل هنا حبل المودة يقال وصلت أي مدته ، الصبابة رقة الجزع ورقة الشوق وما يصيبه منه .

وقد أدرك الشاعر المخضرم حسان بن ثابت أهمية المرحلة التي يمرُّ بها بعد إسلامه ، فهو لا يجد مسوغاً يعطيه العذر للاستمرار في رحلته التي كانت متواصلة في زمن الشباب الذي قضـــاه في الجاهلية في طلب المتع والملذات والانغماس في الذنوب على حد اعترافه بهذه الحقيقة [92] ولكن رحلته الطويلة في زمن الصـــبابة واللهو لا بد من أن تنتهي وتتوقف عند محطة الشـيب ؛ لأنه أدرك أن لكل مرحلة من المراحل التي مرَّ بها لها خصـائصـها المتميزة عن غيرها، فإذا كان شـبابه الذي قضـاه في الجاهلية مقروناً باللهو والمتع والملذات فإن الشيب بعد إسلامه مقروناً بالتوبة من الذنوب ، إذ قال :

وكيفَ ولا ينســـى التَّصـــابي بَعْدَ ما

تَـجـاوزَ رأسَ الأربـعـيـنَ وَجَـرَّبـا

وقد بَانَ ما يأتي من الأمرِ واكْتَسَـــتْ

مفـارقـهُ لوْنـاً مِنَ الشَّـــيـبِ مُغْرَبـا[93]

وشكا بعض الشعراء المخضرمين المعمّرين الهرم وطول العمر وما يقاسونه منه، فقد تقدمت بهم السنون وحلَّ الضعف محل القوة والشباب واليأس محل التفاؤل ، وأصبح المسن يندب حظه ويشكو ما ألم به ، فالشاعر شريح بن هاني الحارثي عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام ثم أدرك عصر الخلفاء الراشدين ، وأدرك أيام الإسلام كيوم مهران وتستر، وصفين ، والنهروان وغير ذلك من الأحداث والمعارك التي أرّخ لها الشاعر المعمر ، إذ قال :

أصـــبحـتُ ذا بـثٍّ أُقـاســـي الكبرا

قد عشـــتُ بينَ المشـــركين أعْصَـــرا

ثُـمـتَ أدركـتُ الـنـبـي الـمُـنـذرا

وبـعـدهُ صـــــديـقـهُ وعُـمَـرا

ويـوم مـهـران ويـوم شُـــــتـرا

والـجـمـعُ فـي صـــفـيـنـهـم والـنُّـهـرا

ويـا جُـمـيـرات مـع الـمشـــقـرا

---

[92] ينظر شرح ديوانه : 367.

[93] شرح ديوانه : 76، وينظر مثل ذلك ديوان كعب بن مالك : 211.

هيهاتَ ما أطولَ هذا عُمُرا[94]

ويقابل المخبل السعدي بين صورتين متضادتين ، الصورة الأولى صورته التي تتمثل بالجفاف والخور والفناء وهي ترمز إلى الشيب وقد مثلها بقوله (غصني أصبح ذاوياً) والصورة الثانية التي رسمها لأبنه شيبان وهي صورة للشباب الغض بكل ما فيه من طراوة ونداوة ومائية [95] ، ويتضح ذلك في قوله (غصنك من ماء الشباب رطيب) وهذه الصورة الضدية رسمها لينفي بها الجفاف الذي حلَّ بساحتهِ فالشيخوخة تُعدُّ ((جرحاً داخلياً في نفس الشاعر الجاهلي)) [96] جعلته يشعر بالحزن الشديد واليأس من العودة إلى ما كان عليه من القوة والحيوية والنشاط فهي ((المعادل الحقيقي لليأس ، فإذا كان الموت يستهدف الروح ، فأن البلى يستهدف الجسد)) [97] وهذا الإحساس جعل الشاعر ذا نفسين حائرتين ، نفس قتلها اليأس ونفس متطلعة إلى الآخر المتمثل بالأبن (شيبان) الذي يمثل الأمل ولكن اليأس استطاع أن يصل بالشاعر إلى الاستسلام لقدره المحتوم ، إذ قال:

فإن يكُ غصني اصبحَ اليومَ ذاويا وغصنك من ماء الشبابِ رطيبُ

فإني حنت ظهري خطوب تتابعت فمشيي ضعيفٌ في الرجالِ دبيبُ

وما للعظامِ الراجفاتُ من البلى دواءٌ وَمَا لِلركبتين طبيبُ[98]

وللتخلص من آثار الشيخوخة لجأ بعض الشعراء المخضرمين إلى خضاب شعورهم ، لأجل الاحتفاظ بالشباب الذي هو أبهى وأجمل ما في العمر ، يتمناه الشيخ لأنه عرف فضله حينما مرَّ به ، وحين جرّب ذلك ثبت له خطأ اعتقاده ، فلم يشعر أبو الأسود الدؤلي بجدوى

---

(94) المعمّرون والوصايا : 49، ذا بث: صاحب حال شديدة الحزن ، الجمع : الجيوش المتحاربة ، مهران : موضع في بلاد السند وقع فيه يوم من أيام الفتوح الإسلامية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب τ ، ينظر معجم البلدان : 269/5، تشتر : مدينة بخورستان وقد فتحها أبو موسى الأشعري والمشقرا : حصن بين نجران والبحرين .

(95) ينظر الرؤى المقنعة : 298 .

(96) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام : 158.

(97) المصدر نفسه : 173.

(98) عشرة شعراء مقلون ، شعره : 57.

خضـاب لحيته حين أراد أن يظهر بمظهر جميل ينمُّ على الشـباب ونظارته، لأنه حين دخل على معاوية بن أبي سـفيان ، قال له معاوية أصـبحت جميلاً يا أبا الأسـود فلو علقت تميمة تقي عنك . أجابه أبو الأسود بهذين البيتين :

أفنى الشَّـــبابَ الذي فارقت جِدته

كـر الـجَـديـديـن مـن آتٍ ومـنـطـلـقِ

لم يَتْرُكـا لـي في طُولِ اخْتِلافِـهَـِما

شـــيئاً تَخافُ عليـهِ لـذعـة الحَدَقِ[99]

إن مسـحة التشـاؤم والحزن بادية على مُحيا أبي الأسـود وهو لا يسـتطيع أن يسـترها، فقد كان إحساسه بالزمن قهري ومتسلط ففي تعاقب الليل والنهار شبابه الراحل وشيبه الآتي ، وقد جسد ذلك الإحساس من خلال استعماله للثنائيتين الضديتين (كر الجديدين) ويريد بها تعاقب الليل والنهار والثنائية الأخرى (آتٍ ضد منطلق) .

وغالباً ما نجد الشعراء المخضرمين يحاولون إيجاد أسباب لمشيبهم المبكر ،فهو ليس شـرطاً لتطاول العمر ومر السـنين ، بل هو نتيجة لمصـائب الدهر ، إذا اعتورت على المرء تشـيب قلبه وتقضـي على نشـاطه وشـبابه قبل أوان الشـيب حتى لو كان في ريعان الشـباب [100].

وكثرة تردد الفارس على سـاحات القتال وميادين النزال ، قد تكون سـبباً من أسـباب التعب الجسدي والفكري الذي يظهر لونه بياضاً ناصعاً على الشعر وهذه الفكرة ، استخلصها لنا الشـاعر المخضـرم عاصـم بن عمرو التميمي ، فقد كانت السـبب في بياض المفارق والأعراض ، إذ قال :

شـــابَ المفارق والأعراض فالتمعت

من وقعـة بقـديس حرّهـا العَجَمُ [101]

---

(99) ديوانه : 222 ، لذعة الحدق : يريد الإصابة بالعين .

(100) ينظر على سـبيل المثال ديوان ابن مقبل :266 ، شـرح ديوان لبيد بن ربيعة :62، شـرح ديوان حسان بن ثابت : 478 ، ومعجم ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام : ديوان صفية بنت عبد المطلب : 102 .

(101) شعراء إسلاميون ، شعره : 68.

وكعب بن زهير من الشعراء الذين قرنوا الشيب بالموت وأدركوا أهمية الشيب والموت معاً فهما تكيف طبيعي ، لأنه يحدث بلا إرادة منا ، وهو مستقل عن سعينا وأدراكنا له . وهذا ما كان يعلمه كعب بن زهير حين رأى الشيب يخط في رأسه أدرك أنه رسول الموت وليس شيئاً سواه لأن الشيب أمر حتمي لا منجى منه ولا مهرب وأن الشيب حتمية المشيب ، واستحالة عودة الشباب ، إذ قال :

إنْ يُدرِكَ موتُ أو مشيبُ فقبلكَ ماتَ أقوامٌ وشابوا

تَلَبثَّنا وفرَّطنا رجالاً دُعُوا وإذا الأنام دُعُوا أجابوا

وإنَّ سبيلنا لسبيلُ قومٍ شَهِدنا الأمر بعدهُمُ وغَابوا [102]

ويبدو أنَّ الهاجس الأكثر إلحاحاً على وجدان الشعراء المخضرمين ولاسيما أولئك الذين تحنفوا وعرفوا أشياء عن البعث والنشور والقضاء والقدر ، وصارت أنفسهم مُشربة ببعض الأنفاس الروحية ومطعمة بالمشاهد الغيبية ولاسيما بعدما أطل الإسلام بنوره على الملأ إذ ترسخت الكثير من الحقائق التي كان ينتاب المرء إزاءها الريب والشك ويعتريه عدم التسليم والرضا بها .

((فقد اقترنت الشكوى من الدهر في شعرهم بالإيمان بالبعث وقرنوا الموت بالهرم)) [103] من ذلك ما قاله أُمية بن أبي الصلت :

باتت همومي تسري طوارقهُا أكفُّ عيني والدمعُ سابِقُها

اقتربَ الوعدُ والقلوبُ إلى اللـ ـه وحبِّ الحياة سائِقُها

ما رغبة النفس في الحياةِ وإن عاشت طويلاً فالموت لاحقها

000

---

(102) شرح ديوانه : 249–250،وينظر مثل ذلك عشرة شعراء مقلون،شعر نهشل بن حري : 124.

(103) الصبر والجزع بين المثير والاستجابة : 90.

مَنْ لَمْ يَمُـت عبطـةً يمـتْ هرمـاً

للموتِ كـأسٌ والمرءُ ذائقهـا[104]

عمد الشـاعر إلى تقرير حالة شـكلت هواجس وإحسـاسـات تتفاقم في تأزمها حداً تتلاشـى عنده كل الحدود ، فيغدو المرء مثقلاً بتحمل أعباء الانصـياع لها ، لذلك ترشـح عن النص ثنائية ضـدية (الشـباب ضـد الشـيب) وهي ثنائية إحالية أي أن الشـباب يحيل على البداية ، أي الطموح والعنفوان والقوة ، في حين أنَّ الشـيب يحيل على النهاية واليأس والخور والضـعف . إذن يمكن القول أن هذه الضـدية هي من جملة الأضـداد التي هيمنت على المتن الشـعري المخضـرم فضـلاً عن ضـدية (الموت ضـد الحياة) وتبنى هذا النوع من الثنائيات المتضـادة إنما يدل على وقوف الشـاعر موقفاً يتسـم بالحكمة والخلوص إلى إيجاز تجربة طويلة نسـجتها أيدي الأقدار وألبستها نفس الشـاعر وهو يرنو إلى الدخول إلى عوالم الهاجس الشعري لإثبات تلك الخلاصة الحياتية .

وهكذا رأينا أن مواقف الشـعراء في العصـر الجاهلي من الشـيب والشـباب تتماثل على الرغم من تغير التجارب التي مرَّ الشـعراءُ بها وذلك لأن الإنسـان هو الإنسـان بما يحمل من مشاعر وأحاسيس وآمال وطموح ، وخوف ودهشة مع وجود بعض التباين الذي أشرنا إليه .

أما بعد ظهور الإسـلام فقد تغير موقف بعض الشـعراء المسلمين من الشيب والشباب ولكن بشكل محدود وذلك لتغير الموقف من الحياة والمصير .

---

(104) أُمية بن أبي الصلت حياته وشعره : 237–238 ، اعتبط الشاب : إذا مات شاباً .

المبحث الثالث
الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه)

الحلم هو الطمأنينة عند سورة الغضب . وقيل هو تأخير مكافأة الظالم [105] ، والحلم يعني ((ضبط النفس عن هيجان الغضب)) [106] وبما أنَّه لا يضبط النفس وسورتها إلاّ العقل ، وكان الحلم من أسماء العقل فكانت لفظة الحلم إسماً لذلك الخُلق الراقي .

والحلم من صفات الله سبحانه وتعالى ((**إنَّه كان حليماً غفورا**)) [107] كما وصف الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم (عليه السلام) بالحليم ، إذ قال عنه ((**إنَّ إبراهيمَ لحليم أواه منيب**)) [108] وقد مدح الرسول محمد ρ الحلم بقوله: ((خصلتان يحبهما الله الحلم والأناة)) [109] وإذا ذكر الشعراء الحلم قرنوه بضده ليتبين فضله ، فالمرء الرزين خلاف السفيه الذي يشينه جهله فالسفه إذن هي الصفة المناقضة لفضيلة الحلم ، وقد جعل السفيه التَسَرُع الصفة الملازمة لسلوكه وأفعاله لتدل على جهله وطيشه فالتسرع في إطلاق الأحكام والآراء حالة مناقضة للتعقل والإتزان .

والحلم سمة رائعة في الخلق العربي وأن رآها الدكتور الحوفي مخالفة للسائد من هذه الأخلاق [110] ، فقد كان الغضب وسرعة الانفعال في بعض الأحيان من الأسباب التي أدت إلى اندلاع الحروب بين القبائل بسبب المشادات والمنافرات التي تتملكها العصبية القبلية والطيش والأهواء . لذا ((كان الحلم لازماً وذا قيمة جليلة في مجتمع تتحكم به القوة والثأر)) [111] .

---

(105) ينظر التعريفات : 55؛ ومعجم متن اللغة : 154/2 مادة (حَلُمَ) .

(106) المفردات : 129.

(107) سورة فاطر ، الآية : 41.

(108) سورة هود ، الآية : 75.

(109) صحيح مسلم : 36/1.

(110) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : 257.

(111) الحلم في الشعر الجاهلي : 3.

والشعراء المخضرمون تناولوا ثنائية الحلم ضد السفه في شعرهم فبينوا فضيلة الحلم وذكروا السفه والطيش وصوروا مغباته من خلال استحسانهم للحلم واستقباحهم للسفه ؛ لأن البناء الاجتماعي للمجتمع الجاهلي يستند إلى شبكة قيمية واسعة الأطياف والتنوعات ، وقد عززت تلك البنية بحث المجتمع والفرد المتواصل على حدٍ سواء لأنهما على نحوٍ أو آخر يجدان أن تلك البُنية تنهار ما لم تتمسك النفوس بتلك القيم لأنها ـ أي القيم ـ هي الوجود وهي مثار الاهتمام ، وهنا نلفي الشاعر المخضرم كعب ابن سعد الغنوي يظهر تلك القيمة الجليلة في رثائه لأخيه الذي قتل في معركة ذي قار حين قال :

أخي ما أَخي لا فاحشٌ عند بيتهِ
ولا ورعٌ عند اللقاء هَيُوبُ
هو العَسلُ الماذيُّ حلماً ونائلاً
وليثٌ إذا يَلْقى العدوَّ غضوبُ
لقد كانَ ، أماً حِلمهُ فمُروَّحٌ
علينا ، وأما جهلهُ فَعَزيبُ
حليمٌ إذا ما سَوْرَةُ الجهلِ أطلقَتْ
حُبى الشَّيبِ للنفسِ اللَّجُوجِ غلوبُ (112)

يكشف النص عن وجود علاقة تربط بين الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه) فالحلم يستوجب نقيضاً له وهو السفه ، ومن خلال تحليل الألفاظ الداخلة في علاقة التضاد يمكننا أن نلحظ العلاقة الجوهرية التي تضمنتها المقابلة بين (أما حلمه فمروحٌ ، وأما جهله فعزيب)) فقد مثّل أحد الطرفين الفكرة المهيمنة التي تشير إلى أهمية الصفة مع ثبوتها واستقرارها لدى الشخص المرثي وهو بذلك يتحول إلى لفظ محوري ، والشاعر في صراع مع هذين الطرفين يريد إثبات ما لديه من خلال إشاعة الصفة المناقضة التي تدل على سفاهة الرأي وسرعة الانفعال والغضب وهذا يؤدي إلى الطيش والسفه وهذه من الصفات التي استهجنتها العرب ونبذتها .

---

(112) الأصمعيات : 95، الورع : الجبال ، الماذي : العسل الأبيض ، مروح: من الرواح ، عزيب: بعيد، سورة الجهل : حدته حبى : هو الثوب الذي يجتبى به ، اللجوج: المتمادية .

وقد أدرك الشعراء المخضرمون في الجاهلية أن الحلم يجب أن يُحمى بالسيف وإلاّ فأنه ينقلب ضعفاً وشتان بين الضعف والحلم ، والجهل في قبيلة ما ، يصبح نقمة كبيرة إذا لم يكن في تلك القبيلة رجل حليم يردع الجُهال عن جهلهم ، وقد عبّرت عن هذه الفكرة الخنساء بنت عَمْروُ في أثناء تأبينها لأخيها صخر فقالت :

ظَفِرٌ بالأمورِ جلدٌ نجيبُ

وإذا ما سما لحربٍ أباحا

وَبِحلْمٍ إذا الجَهُولُ إعتراهُ

يَرْدعُ الجَهْلَ بعدَمَا قَدْ أَشَاحا (113)

إن مَنْ يستقري النص جيداً يلفي حضور الثنائية المتضادة (الحلم ضد الجهل) شاخصة في وصف كيان إنساني مادي قد زال وانتهى غير أن حضورهُ كان شاخصاً بما تحلى به من قيم جليلة تحملهُ دائماً على اتخاذ المواقف الإيجابية ، فوصف صخراً بعد أنْ قضى نحبه هو تأبين يُظهر أوضح سماته بما عُرف به وهو أساس ما كان موجوداً له وأساس ما قضي من أجله ، وقد جعلت الشاعرة من الحلم أداةً واجه بها المؤبن جهل الجهول وردعه بعدما بدا وظهر على نحوٍ يستدعي أن يحلم الشاعر ويترفع ليطلق عنان صوته مُذكراً من بعدما كان عاملاً بتلك القيم ثم إن ما وصف به المؤبن هو وصف (بالمصدر) وما وصف به الآخر هو صيغة المبالغة (جهول) وهذا البناء ذو ملمح أسلوبي إذ أن وصف المؤبن بالمصدر أكثر ترسيخاً لتلك الصفة في الموصوف وأكثر إظهاراً لها، ولكن وصف الموصوف الآخر بصيغة المبالغة يصَّعِد مشهد التحدي بين مَنْ يتصف بالحلم ومَنْ يتصف بالجهل على الرغم من أن المشهد هو مشهد استدعائي عبر استعمال تقنية استحضار المنظومة القيمية وروحها بشكل حي متدفق شاخص .

ولعل ارتباط الشعراء المخضرمين ببيئة صحراوية قاسية تقلُ فيها أسباب الحياة المستقرة ، جعلتهم يدركون ما للمال من قيمة كبيرة في حياتهم ، فقد ((شكل المال بعداً يجمع معاني مختلفة في تأمل شعراء ما قبل الإسلام ، وكل حسب تجربته الخاصة ، وطبيعة نظرته إلى الواقع الاجتماعي الذي يعيش تفاصيله ومفرداته اليومية)) (114). لذلك نرى عَمْرو

---

(113) شرح الديوان : 135.

(114) الحلم في الشعر الجاهلي : 11.

بن معد يكرب يعتمد المتضـــادات المحســـوســـة ويؤكدها لإثبات وجود الحلم وتأكيد دلالته المعنوية فقال :

أعـاذلُ أَنَّـمـا أفـنـى شـــبـابـي ... ركوبي في الصـــريخِ إلى المنـادي

مع الفتيـانِ حَتى سَـــلَّ جسـمي ... وأقـرحَ عـاتـقـي حَـمـلُ الـنـجـادِ

أعـــاذلُ إنـــه مـــالٌ طـــريـــفٌ ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن مـــالٍ تـــلادِ

ويبقى بعـد حلـمِ القومِ حلـمي ... ويـفـنـى قـبـلَ زادِ الـقـومِ زادِي (115)

يترشح عن النص الثنائيات الضدية الآتية (مال طريف ضد مال تلاد) و(يبقى ضد يفنى) و(بعد ضـــد قبل) وفي الثنائية الأولى يفاضـــل الشـــاعر بين الضـــدين عبر أفعل التفضـيل (أحب) ؛ ولعل حدوث التضـاد إنما قصـد إليه الشـاعر قصـداً ذلك لأن المال في المجتمع بمثابة صـــمام الأمان للفرد والمجتمع وهو عصـــب الحياة ؛ لأن امتلاكه كان يزيّن الرجال وفقده يشـــينهم ، على الرغم من التأكيد الذي نجده في أكثر من نص حينما تتضـــح أبعاد المعادلة في الضـدية الثانية (يبقى ضـد يفنى) فلو سـألنا السـؤال الآتي : ما الذي يبقى وما الذي يفنى ؟ لواجهنا الجواب بصـــراحة جريئة الذي يبقى (الحلم) والذي يفنى الزاد ، فكأنما في الحلم دلالة معنوية ينثال على حواشـيها الموقف الذي قرر الشـاعر وصـمم على اختياره وكأنما (للزاد) دلالة حســية مادية جهر الشـــاعر على نحوٍ لا يقبل اللبس برفضـــها ونبذها ، ولو رصـدنا ضـلال الأضـداد لوجدنا إن المال الطريف يبقى بقاء الحلم والمال التليد يفنى فناء الزاد ، وهذه العلائقية تشـكل متكأ الصـورة الشـعرية المتخفية في متن النص بشـكل أساسي ، لكي يكون تشظيها وإشعاعها على نحوٍ أُفقي وعامودي في آن واحد معاً ، مما يوّلد حراكاً تصـاعدياً في تأطير الصـورة ، والإفصـاح عن المعنى وتجسـيد ضـلال المعاني المتوارية خلف تلك الأضداد (116).

---

(115) ديوانه : 61-62.

(116) ينظر : جدلية الخفاء والتجلي : 29.

وقد يكون حسان بن ثابت من أكثر الشعراء تطرفاً في القسوة على الحلم وإتهاماً له وذلك حين جعل إضاعته مقرونة بالفقر ، في حين أن الغنى يغطي على الجهل ويخفيه . ولا نلوم حسان على هذه الحكمة التي استخلصها من الحياة التي يعيشها والظروف التي تحيط به، فهو قد تحسس العلاقات والمصالح التي تربط بين الناس في الجاهلية فصوّرها بصدقٍ وأمانة من خلال تصارع الأضداد حين قال :

رُبَّ حِلمٍ أَضاعهُ عدمُ المـا

لِ وجهلٍ غطَّى عليهِ النعيمُ [117]

لا شك في أنَّ مثل هذا الشعر يُعدُّ وثيقة تكشف تأثير المال في نفوس بعض الجاهليين وما يرونه من تناقض طبقي ، قد أثر في إيجاد بعض الانحرافات الفكرية التي كشفتها الثنائيات المتضادة بقصد من الشعراء أو بلا قصد .

ويرى المخبل السعدي تناقضاً عند بعض الناس في التمييز بين العقل والجسم ، فهما قد يتفقان في الجمال وقد يفترقان حين قال :

وَقَدْ تَزْدَرِي العَينُ الفتى وَهْوَ عاقِلُ

ويجملُ بعضِ القومِ وَهْوَ جهولُ[118]

لا بد من الإشارة إلى وجود العلاقة السببية بين المتضادات لأن العاقل هنا ليس الحليم ، بل هو سببٌ للحلم ، وتزدري ليست ضد يجمل ، لأن الجمال ضده الدمامة ، فالمفردة إذن تدخل في التضاد على سبيل إثارة ضدها في الذهن لـ ((أن كلام العرب يصحَّحُ بعضهُ بعضاً ويرتبط أوله بآخره .. فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر)) [119] . وقد سخر الشاعر هاتين المتضادتين (الحليم ضد الجهول) و(الجمال ضد الدمامة) للتعبير عن فقدان قدرة بعض الناس عن التمييز الصحيح بين العقل والجسم ، فجمال العقل ويراد به (الحلم) في رجاحة وإصابة رأيه وقوة بيانه ومحامد أخلاقه ، أما دمامته فيراد بها (الجهل) متمثلاً بالتسرع والخفة وقلة العقل وسوء الأخلاق ، والعين ترى ما لا يراه العقل فهي ترى المظهر الخارجي

---

(117) شرح ديوانه : 434.

(118) عشرة شعراء مقلون ، شعره : 66.

(119) الأضداد : 2.

الذي يتمثل بجمال الجسم واتساقه من حيث طوله وإشراق قامته وسلامته من الدمامة والتنافر ، لذا تهفو إليه على الرغم من قُبح دواخله . لذلك عمد الشاعر إلى أن يأتي كل من عنصري الثنائية المتضادة في شطر من البيت [120] بحيث يكون الصدر مطابقاً للعجز ، لأنها تحقق للبيت الشعري ما يسعى إليه من توازن وتعادل بين شطريه .

ويبدو أن الشاعر المخضرم في العصر العربي قبل الإسلام كان حليماً من خلال رؤيته الخاصة ، ولكنها رؤية لا تنفصل عن واقعها القبلي المعروف فقد أدى هذا الاندماج الكامل لشخص الشاعر في قبيلته إلى اختلال في الفكر مما جعل الشاعر العاقل الحليم النابه يتبع جاهل القوم تحت ضغط الأعراف والتقاليد ولاسيما أنه يملك رأياً قد ينقذ أفراد قبيلته من الضياع لو استطاع أن يحملها عليه ، لكنه ظل سائراً في خطى قبيلته منقاداً لها حيث الرشد والغي مرتبطان بها فقد قال دريد بن الصمة :

أمرتهم أمْري بمنعرجِ اللوى

فلمْ يَسْتبينوا الرشدَ إلاضُحى الغَدِ

فَلَمّا عَصوني كُنْتُ مِنْهمْ وَقَد أرى

غوايتهم وأنني غيرُ مهتدِ

وَمَا أنا إلاّ مِنْ غَزيّةَ إن غَوتْ

غَويتَ وإن تُرشَد غَزية أرشدِ [121]

وهكذا رأينا كيف أظهرت الثنائية المتضادة (الحلم ضد السفه) بعض الانحرافات الفكرية في المجتمع الجاهلي ؛ لأن الاندماج الكامل لشخص الشاعر أو الفرد في القبيلة وتقاليدها يؤدي إلى اختلال في الفكر إذ جعل العاقل منهم يتبع الجاهل السفيه تحت ضغط العصبية القبلية .

وحين أطل الإسلام ديناً وفكراً جديدين في شبه الجزيرة العربية ظهرت ثنائية (الحلم ضد السفه) بوصفها مضموناً فكرياً تظهر مدى ارتباطها الديني والعرفي والفكري، وبدأت تظهر في الامتداد الزمني حضارياً وزمنياً بتطور الفكر الأدبي عند العرب ، وهو ينتقل من عصر إلى آخر .

---

(120) ينظر خصائص الأسلوب في الشوقيات : 107.

(121) ديوانه : 47.

فالحلم صفة تميز الرجال الذين تصغر في عيونهم الحوادث مهما جَلَّ شأنها وعظم خطرها وهو دليل على بلوغ الحلم في مدارج الإنسانية مرتبة عالية ، لأنَّ الغضب وشدة الانفعال والتسرع وحدة الطبع التي لا يسبرها العقل ولا يضبطها التفكير تنزل بالإنسان إلى مرتبة السفه وهي المرتبة التي تسيطر عليها الغرائز ، أما تحكم الإنسان في عاطفته وترويض نفسه وقهرها فهو يتطلب إرادة صارمة وعزيمة قوية صلبة ، ولذلك كان الحلم من أهم شروط السيادة ، فقد كان الرسول محمد ρ قائداً حكيماً ، صلباً حليماً ذا علم وحكمة ، وقد أشادوا بحلمه وحكمته الفذة وتضحياته في سبيل العقيدة والمبادىء فقال كعب ابن مالك :

رئيسُهُم النبيُّ وَكانَ صُلباً

نقي القلب مصطبراً عَزوفاً

رشيد الأمرِ ذو حكم وعلم

وحلم لم يكن نَزقاً خفيفاً (122)

يجري التضاد هنا على إدراك المعنى إدراكاً يقوم على المغايرة والتنافر ، إذ أنَّ الشاعر كان واعياً فنه في هذا المستند من الحدود المتغايرة ، إذ كان يجدها في الواقع حين يصف النبي محمداً ρ ، فهو يذكر في مديحه له الصفات الإيجابية ثم ينفي عنه الصفات السلبية ، إذ يذكر نوافر الأضداد لينفيها عنه كقوله (لم يكن نزقاً خفيفاً) ونزق لفظة سياقية ضد الحلم .

إن الاستيعاب الكامل للشخصية التي يصورها الشاعر أياً كان المدى الذي يتحرك فيه فنه لها أثرٌ كبير في تصوير ثقة الجاهل بصوابه ، فقد قال الإمام علي (عليه السلام) بَعْدَ مقتل عَمْرو بن ود العامري في معركة الخندق :

نَصَرَ الحجارةَ مِنْ سفاهَةِ رأيِهِ

وَنَصَرتُ ربُّ محمدٍ بصوابي

فَصَدَدْتُ حِينَ تركتُهُ مُتجدلاً

كالجذعِ بينَ دكاءكٍ وروابي(123)

---

(122) ديوانه : 236 ، النزق : الخفة والطيش ، ينظر اللسان ، مادة (نزق) .

(123) ديوانه : 28.

كشف النص عن طبيعة الشاعر الفلسفية التي جعلته يعقد مقابلات ضدية استطاع من خلالها البوح بفلسفته الفكرية ، فقد كانت مقابلاته سياقية لا تخضع لضغط المعجم المشترك بقدر ما تستجيب لملكة الشاعر الخاصة التي منحت مقابلات النص سِرَ فرادتها فإن في هذا الأسلوب تقاس جهود الشاعر وتكمن تجربته [124] ، فقد كان الطرف الأول من مقابلته خاضعاً لدلالة لغوية في حين كان الطرف الآخر خاضعاً لدلالة سياقية ، ففي قوله:

نَصَرَ الحجارةَ من سفاهة رأيهِ

ونَصَرتُ ربُّ محمدٍ بصوابي

في هذا البيت قابل الشاعر بين السفه والحلم مقابلة سياقية ، فلفظة (صوابي) تضاد سياقي أراد بها صفة العقل ، والعقل أسم للحلم فيكون قد قابل بين سبب ونتيجة فالأولى لغوية معجمية والثانية سياقية ، فعقل الشاعر يكمن في إكرامه لذاته بإعراضه عن السفه ومقاتلته خصومه الكافرين ، إذ عفوية الحلم لا تنفع في موقف كهذا ، فلا بد من فعلٍ إرادي يهيء للحلم ويجمعه .

ويبدو أن التجارب المستخلصة من الحياة ، والنظرة إلى الواقع الديني جعلت تميم ابن أبي بن مقبل بعد إسلامه يصف حالته بعد تجاوز مرحلة الشباب وهي مرحلة الطيش والتسرع والسفه إلى مرحلة هجر العواطف والنضج والاكتمال في قوله :

أَلَمْ تَرَ أنَّ القلبَ ثابَ وأَبصرا

وجَلَّى عَمَايَات الشَّبابِ وأَقْصَرا

وبُدِّلَ حلْماً بَعْدَ جَهْلٍ ، وَمَنْ يَعشْ

يُجَرِّبْ ويُبصِرْ شأْنَهُ إنْ تفكرا [125]

يصدر الشاعر البيت الأول بقوله (أَلم تَرَ) ورأى فعل يفيد الكشف والوضوح والمراد من ذلك زوال صور الغموض التي رافقته في شبابه وكفره والكشف عن صور التشتت فقد تنامى المعنى إلى ظهور ثنائية (الحلم ضد السفه) إذ ارتبطت صورة الجهل بالاختفاء والظلمة والزوال والتشتت الذي رافقه في جاهليته حين كان شاباً ، في حين أن صورة الحلم

---

(124) ينظر خصائص الأسلوب في الشوقيات : 102.

(125) ديوانه : 142، جلى : كشف ، عمايات وهي الغواية واللجاجة في الباطل ، وأقصرا : كف وامتنع.

ارتبطت بالكشف والوضوح والإبانة بعد إسلامه، وهو بذلك يكون قد أشار إلى نهاية الصراع الذي عاشه في ماضيه وثبات حاضره واستقراره .

وجاءت ثنائية (الحلم ضد السفه) مرتبطة بالتجربة والحكمة معاً سواء أكانت مكتسبة أم معاشـــة فهي قد منحت النص البصـــيرة بعد الإقتدار ، إذ أنَّ أَبا محجن الثقفي بعد توبته وانقطاعه عن شرب الخمرة في الإسلام قال :

يقولُ أُنــاسٌ اشـــرب الخَمْرَ إنهــا

إذا القومُ نــالوهــا أصـــــابوا الغنــائمــا

فقلــتُ لَهُمْ جَهْلاً كــذبتم ألم تروا

أخــاهــا ســـــفيهــاً بعدمــا كــان حــالمــا

وأضـــحى وأمســـى مســـتخفاً مهيما

وَحَسْـــبُكَ عاراً أنْ تَرَى المرءَ هائِما[126]

ينبع هذا النص من تجربة محمومة وطويلة مع الآخر الذي هو (الخمرة) التي اعتاد الشـــاعر على الارتباط بها ارتباطاً وجودياً عميقاً لا يكاد يزول عنه ضـــلاله . وهنا هو إزاء تحدٍ صارخ حين أَقدم على الإقلاع عنها بفعل تأثره بمبادىء الإسلام ، فالشاعر في المفهوم الإســـلامي ((ينقلب إلى أخلاقي مؤثر قد يفوق الأخلاقي غير الشـــاعر في أداء الرســـالة وخدمة الدولة وغايتها المثلى)) [127] . لذلك يعمد إلى اســـتحضـــار كل قواه الروحية وثغوره المعنوية والجسدية التي كانت محضة بفعل تعاطي الخمرة ، إذ إن العلاقة بين أنا الشاعر ، والآخر (الخمرة) علاقة انتماء حين يدعو في نص آخر قاله قبل توبته الصـــحيحة هذه إلى أن تدفن عظامه إلى جنب كرمة [128] ، إذن خَلِق الموقف المضاد يتطلب

---

(126) ديوانه : 34-35.

(127) مواقف في الأدب والنقد : 139.

(128) جاهر أبو محجن الثقفي بذنبه وتعاطيه الخمر قائلاً :

إذا متُ فادفني إلى أصل كرمةٍ

تروي عظامـي بعد موتي عروقهـا

ولا تدفنني بالفـلاةِ فإننـــي

أخافُ إذا ما مـتُ إلاّ أذوقهــا

ديوانه : 23.

صـوتاً واضـحاً لا بُحةَ فيه وقد اسـتدعى هذا الموقف صـراعاً داخلياً عنيفاً تمثل بتحول كبير على أصعدة التعايش الإنساني كافة وفي كيان الشاعر . لذلك ترشح عن موقف الصراع ذلك النمط التضـادي العميق ، ذو الأبعاد التي توصـف بالسـعة لتشـمل على مديات غير مرئية عناها الشاعر وإنْ لم يسع الألفاظ التصريح بها ، لذلك احتشدت الأضداد مُشكلة قوة جاذبة نحو الوضـع والموقف الجديدين إذ ورد (السفه ضد الحلم) و (أضـحى ضد أمسـى)، وهذا التضـاد الأخير تضـاد زمني يدل على ماضٍ لا يريد الشـاعر الحنين إليه ، وحاضـر يراوح الشـاعر عند تخومه ، وإن حاول ولوجه أكثر من مرة فقد ثبت لديه عبر اسـتحضـار القوة القابعة في ضفاف المنظومة القيمية التي بضياعها يضيع الكيان الإنساني وبوجودها يكون، ويوجد، وينمو ، ويمتد .

وحسبما هو معروف فإنّ الإسـلام أشـاعَ في نفوس اتباعه تقوية بعض القيم الجاهلية وترسيخها من برٍ ورحمة بالأهل والأقارب وقد كانت خير معين لتقليم أظفار الضـغن ، فمعن بن أوس المزني استطاع بسعة حلمه وقوة صبره تقليم أظفار قريب له أساء إليه إساءة كبيرة وتصرف بطيش وسفه معه فقال :

وَذي رحمٍ قَلَمْـتُ أظفـارَ ضِـــغْنِـهِ بِحلْمـي عنــهُ وهو لَيْسَ لــهُ حِلْمُ

يُحــاولُ رَغْمِـي لا يُحــاولُ غَيْـرَهُ وكــالموتِ عنــدي أنْ يَعُرَّ بــهِ الرَّغْمُ

فـإن أعفُ عَنْــهُ أُغضِ عَيْنـاً على قَذىً وليسَ لــهُ بـالصَّـــفحِ عن ذَنبـهِ عِلْمُ

00000000

صـــبرتُ على مـا كـانَ بيني وبينَـهُ وما يسـتوي حَرْبُ الأقاربِ والسِّـلْمُ (129)

إنَّ هذا الشـعر ينهل من حوار الرسول محمد ρ مع أحد أصـحابه حين خاطبه: ((يا رسول الله أن لي قرابة اصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون

(129) ديوانه : 40–41، يَعُرَّ به : يصيبه.

عليَّ فقال : لئن كنتَ كما قلت ؛ فكأنما تسـفهم المل [130] ، ولا يزال معك من الله ظهيراً عليهم ، ما دمتَ على ذلك)) [131] وقد أنشـد النابغة الجعدي الرسـول محمداً ρ شـعراً فاسـتحسـنه ودعا النبي محمد ρ له فقال ((أَجدتَ لا يفضـض اللهُ فاكَ)) [132] فعاش ما تبقى من عمره ولم يسقط له سن وذلك بعد أن أنشد قوله :

ولا خَيْرَ في حلمٍ إذا لم تكن لـهُ

بـوادِرَ تـحـمـي صـفـوهُ أن يـكـدرا

ولا خَيْرَ في جهـلٍ إذا لم يكن لـهُ

حليم إذا مـا أوردَ الأمر أصـدرا[133]

لا يخلو عصـر من القيم ، والقيم على نمطين ، قيم سـلبية وقيم إيجابية ، وفي كيان الإنسان قوتان تصطرعان فيما بينهما هذه تدعو إلى قيم إيجابية كـ (الحلم) ، وتلك تدعو إلى القيم السـلبية كـ (السـفه) ، ولعل هاتين القيمتين هما عماد كل القيم الاجتماعية والأخلاقية الأُخرى ـ إذ إن الحلم يقود إلى الأناة والصبر والصدق والعدل وسواها ، والسفه أو الجهل يؤدي إلى التعجل والجزع والكذب والجور والفجور وسواها من القيم السلبية المناقضة لمديات الكيان الإنساني السوي ، لذلك يحفل هذا المشـهد بالأضـداد المتجمهرة في خاطرة المعنى المراد إيصـاله إلى مقدمة المشـهد بعدما ركد في قعر الإنزواء طويلاً ، وتعاور الأضداد من مثل (الحلم ضد الجهل) فالجهل لفظة سياقية المراد بها (السفه) و(الصفو ضد الكدر) و(أوردا ضد أصدرا) وكأن تعاور هذه الأضداد المشروطة إن جاز لنا التعبير بتسميتها ــ ذو أبعاد داخلية وخارجية في آنٍ واحد معاً تترشح عن عمق في التجربة ، وهدف في الإحساس ، فقوله (لا خير في حلمٍ) و(لا خير في جهل) يوحي أن الحلم شر ، والجهل الذي هو السـفه خير غير أنَّ سـبك كلام العرب عمد فيه الشـاعر إلى ما يعرف عند أهل الشعر والبلاغة بأسلوب المدح بما يشبه الذم ، فالحلم صفو لكن يشترط فيه لكمال تحققه أن تكون له بوادر تحميه من الكدر ، كذلك الجهل يفضـي إلى اسـتدعاء حالة الحلم ، ولا خير

---

(130) المل : الرماد الحار .

(131) صحيح مسلم : 8/8.

(132) لم أجد الحديث في الصحيحين ولا في المساند . لذا خرّجته من كتاب العمدة حيث ورد:28/1.

(133) شعره : 69.

في ذلك الحلم ولا في صاحبه ما لم يكن قادراً على إيراد الأمور وتصديرها على نحوٍ به يتم له نفي الجهل عن ذاته وموقفه وإثبات الحلم لها ولموقفه عبر الإدراك المتأتي من ولوج عوالم الإنسانية التي تغص بالكوامن والمرئيات المدركة بالإحساس لا بالحس .

ويذكر أنَّ أَبا جهل كان من الذين لم يسقط لهم رأي في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام لم يكن له رأي فهجاه حسان بن ثابت بقوله :

سَـــمَـاهُ مـعشُـــره أبـا حـكـمٍ

واللهُ سَـــــمّـــاهُ أبـــا جَـــهْـــلِ

يـفـمـا يـجـيءُ الـدَّهْرُ مُـعْتـمـراً

إلا ومِـــرْجَـــلُ جَـــهْـــلِـــهِ يَـــغـــلـــي

وكـأنـــهُ مـــمـــا يـــجـــيـــشُ بـــهِ

مُبـدي الفجُورَ وســـورة الجَهْـلِ[134]

استطاع الإسلام بما يحمله من عقيدة راسخة ومبادىء سامية أن يُظهر ما كان يخفيه أبو الحكم كما يسميه معشره ، إذ أن حالته كانت غامضة مبهمة قبل الإسلام فإذا هي واضحة وصريحة في الإسلام قد زال عنها الإبهام والغموض وبانَ ما كان يخفيه من فجور وجهل بفعل المقابلة التي أجراها الشاعر ، وقد جوز الأسلوبيون ما يقتضيه الكلام للمقابلات اللغوية التي لا يتسنى إجراؤها إلاّ بشيءٍ من التجوز في مقابلة الشيء بغير ضده أو مقارب لضده ، فيمنح النص معاني جديدة لم يتوصل إليها الشاعر بمقابلة معجمية أو تسوية بين عنصرين متقابلين ، أو إبراز دلالة أحدهما من خلال الآخر ، أو لضرورة موسيقية [135] . إذ قابل بين لفظة (حكم) وتعني الحكمة وهي من العلم والحكيم العالِم المتقن للأمور ، وبهذا يكون هذا الطرف خاضعاً لدلالة سياقية يراد بها الحلم ، كذلك الطرف الثاني (جهل) خاضع للدلالة نفسها . فالمراد بالجهل السفه الذي هو ضد الحلم .

وقد تعامل الشاعر مع دلالته السياقية تعاملاً فنياً مؤكداً عن طريقها حقيقة فلسفته الفكرية تجاه الحلم والسفه ، إذ أن إيمانه بالرزانة والحلم جعله يقارن بين الحلم بالجهل الذي

---

(134) شرح ديوانه : 400– 401 ، معتمراً من العمرة .

(135) ينظر خصائص الأسلوب في الشوقيات : 102.

هو السـفه الذي يهوي بصـاحبه إلى المصـير المهلك ، ويؤكد حقيقة إيمانه بأنَّ الحلم هو السبيل الأمثل الذي يحمل صاحبه إلى ضفة الأمان والسلام .

نستخلص مما سبق ذكره أن الشاعر المخضرم في العصر الإسلامي عقد مقابلات ضـدية اسـتطاع من خلالها البوح بفلسـفته الفكرية ، إذ أن عقله يكمن في إكرامه لذاته وإعراضـه عن السـفه ومقاتلته خصـومه الكافرين ، وأظهر الشـاعر المخضـرم في الثنائية المتضـادة (الحلم ضـد السـفه) صـراعاً داخلياً عنيفاً تمثل بتحولٍ كبير مع أصـعدة التعايش الإنسـاني كافة، فالشـاعر المخضـرم كان شـديد الارتباط بماضـيه لذلك كانت الأضـداد قوة جاذبة نحو الوضع والموقف الجديدين .

الفصل الثاني
الثنائيات المتضادة في النواحي الاجتماعية

المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض)
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلّة)
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان)

المبحث الأول
الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض)

بُغِضَ الرجلُ بالضم بغاضة أي صار بغيضاً ، وبَغَضَهُ اللهُ إلى الناس تبغيضاً فأبغضوه أي مقتوه [136] .

والحُب هو الوداد والمحبة [137] ، وقيل إنَّ ((البغض نفار النفس من الشيء الذي ترغب عنه وهو ضد الحب فإن الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه))[138]، وبهذا يكون البغض والحب صفتين متناقضتين تعبّران عن فيض المشاعر الإنسانية الصادقة المعبّرة عن كوامن النفوس الشاعرة التي تبث عواطفها للتنفيس عما يخالجها من الأحاسيس .

وفي المناحي الإجتماعية تسفر أمامنا الثنائية المتضادة (البغض ضد الحب) بكل أبعادها وملامحها ولا يمكن أن يكون البغض والحب بمثابة تجاذب وتنافر يخضعان للإنعكاس النفسي فقط ، بل أنَّ الاختيار والحرية يظهران بجلاء في هذه الثنائية ، فقد وُجِدَت في الإنسان صفات سيئة ، وأُخرى حسنة ، وقد أدى بغض العلماء الأجلاء للصفات السيئة إلى إحصائها [139] من أجل تشخيصها ؛ ليسهل علاجها ، وهي كثيرة منها البغض والحسد والحرص والرياء والعجب والغرور ... الخ ، ومن هنا يظهر أنَّ المحرّك لأعمال الناس في حياتهم هو البغض والحب ، وهما سر الائتلاف ، والباعث على الاختلاف .

فالبغض إذن إذا لم يكن بغضاً أو رفضاً للصفات السيئة التي أشرنا إليها ؛ هو رذيلة قد يكون أساسها الهدم والتخريب ،في حين أن الحب فضيلة تدعو في أحيان كثيرة إلى البناء والتعمير ، والحب لفظ عام يتفرع إلى اتجاهات متعددة ولكن العاطفة واحدة باقية على فرادتها ، والحب بوصفه رمزاً قائماً يدعو إلى التخلص من نوازع النفس البشرية السيئة ، والحب كائن في المرأة بوصفها المعشوقة ، والحب كائن في الأشياء المادية الجامدة التي يُضفى عليها ملامح الحياة .

---

(136) ينظر لسان العرب ، مادة : بغض .

(137) المصدر نفسه ، والمادة : حبب .

(138) المفردات : 55 .

(139) منهم الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله على سبيل المثال لا الحصر ، ينظر المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين : 141 وما بعدها .

وقد جاءت الثنائية المتضادة (البغض ضد الحب) في المتن الشعري المخضرم سابقة مميزة جعلت منه بنية تحول من وضع سابق في الجاهلية يتسم بالإنغلاق والجمود بعض الشيء إلى وضع لاحق في الإسلام يمتاز بدفق الحياة .

كانت ثنائية (البغض ضد الحب) في الجاهلية موجهة في معظم الأحيان في محور المرأة ، إذ تغدو هي الوسيلة الأكثر زلفى في التعبير عن المشاعر (البغض ضد الحب) ؛ لارتباطها برموز الخصب والنماء في المعتقدات الدينية القديمة حتى تصل قداستها إلى مستوى التأليه [140] ، وليس من العجيب بعد ذلك أَنْ تنثال مشاعر الحب الدافق لتستوطن جسد المرأة بوصفه مكاناً نفسياً ، لذلك ينطق الشعراء حسب تجاربهم الشعرية ورؤاهم الخاصة في وصف المرأة .

وكان للبغض نصيب وارتباط بما يحمله الشعراء المخضرمون من معتقدات جاهلية مقيتة ، فقد كان بعض الرجال الجاهليين يبغضون البنات ويحبون البنين لدوافع اجتماعية نفسية تتعلق بالبناء الإجتماعي والواقع النفسي المتأزم بفعل الظروف المتناقضة التي تلف الحياة الإجتماعية آنذاك ، وفي ذلك قال الشاعر معن بن أوس المزني :د

رأَيتُ رِجالاً يكرهونَ بناتِهم

وفيهنَّ لا تكذبُ نساءٌ صوالحُ

وفيهِنَّ والأيام تعثرُ بالفتى

عوائدُ لا يَمللنَهُ ونوائِحُ [141]

يبدو نمط الثنائية المتضادة (البغض ضد الحب) التي باح بها النص الشعري المخضرم في الجاهلية تُشكل أكثر من منطلق فكري ونفسي محاولة في إقامة الواقع المثالي المنشود من خلال الاعتراف بهوية المشاعر التي هي في نظر الشاعر غير شرعية ، وإنها تشكل وشائج مَتينة تصل بين مخاض الوجدان الجمعي ومخاض الوجدان الفردي .

تدل رؤية الشاعر لصفة الكره هذه في ظاهرها على الإنكار والاستهجان وفي حقيقتها هي عملية دفاعية أصيلة حيال الواقع ، وهي مفهوم إيجابي يشير إلى عدم الاستسلام لقيم

---

(140) ينظر وأد البنات بين الواقع والحكم المطلق : 362.

(141) ديوانه : 85.

المجتمع السائدة أو لبعضها في الأقل ، ومن ثمَّ فهو يكره أن يتنازل عن ذاته التي تنفر من كره البنات وتنجذب إلى الحب .

الحب خضوع لا شك في ذلك وبعض الناس تأبى عليهم عزّة النفس والأنفة الخضوع ، وفي هذا يخطو النابغة الجعدي خطوة جريئة في تعامله مع المرأة ، لأنه وجد أنَّ التعامل معها بالمثل هو الوسيلة الآنجع في هذا الموقف فقال :

وكانَ الخليل إذا رابني

فعاتبتهُ ثم لم يعتبِ

هواي لهُ وهوى قلبهِ

لسواي وما ذاكَ بالأصوبِ

فإني جريءٌ على هجرهِ

إذا ما القرينةُ لم تُصحبِ (142)

يؤكد الشاعر من خلال استعمال أسلوب التضاد ، فـ (عاتبته ضد لم يعتب) و(هواي له ضد هوى قلبه لسواي) إن الحبيب الذي لم يحفل بعتاب صاحبه ولا يشعر به ولا يعبأ بوده ، بل هو متحول بمشاعره صوب شخص آخر ، فإن الهجر هو الحل الأصوب في معادلة الحب غير المتكافئة التي اختلت موازينها فشكلت مفارقة تكمن في حب الشاعر لأمرأة تحب غيره تلك ((المرأة التي ربما لا تجاوب الرجل حبه لأنه لا يحقق مثلها الأعلى أو لأنها مشغوفة بغيره)) (143) ، وبذلك يكون الشاعر قد وقع في شرك المشاعر المتضادة وغير المتوافقة ، وقد نجح الشاعر في تجسيدها بذكاء وفطنة ظاهرتين تحت وطأة التأزم النفسي الحاد .

ووصف لبيد بن ربيعة تجربته الخاصة التي صورت جوهر العلاقة الإنسانية المضطربة التي تحمل المشاعر المتضادة بين بعض البشر ، على الرغم من خصوصية علاقته إلاّ أنَّ أفكاره في الحب والبغض ومعاناته ، وما أصابه من كبت عاطفي محسوس، تصدق على الإنسان في كل زمان ومكان ، فقد خَبِرَ لبيد الناسَ حوله بين مبغض له ومحب فقال :

---

(142) شعره : 25.

(143) الغزل في الشعر الجاهلي : 361.

وإنـي لأعطـي الـمـالَ مَنْ لا أودهُ

وألـبـس أقـوامـاَ عـلـى الشـــنـانِ

ومســـتـخـبـر عـنـي يـود لـو أنـي

شـــربـتُ ســـمَ ريقتي فقضـــاني

وذي لـطـفٍ لـو كـانَ يـعـلـم أنـهُ

شـــفائي دمٌ من جوفهِ لشـــفاني (144)

تبدو الثنائية المتضادة (البغض ضد الحب) بصورٍ شتى ، وتختلف اقترانات تلك الصور باختلاف الحال والسبب اللذين كانا دافعاً وراء الإفصاح عنهما ، ونص لبيد يترشح عنه تضـــادٌ بين بؤرتين فعليتين هما (لا أود ضـــد يود لو) غير أنَّ اقتران البؤرة الأولى للتضـاد بإعطاء المال ، واقتران البؤرة الثانية بتمني الآخر أنْ يشـرب الشـاعر السـم، جعل التضاد يسير بخط متعرج غير متوازٍ بين ثنائية (الأنا ضد الآخر) ، لأن الشاعر يعطي المال مَنْ لا يوده ، والآخر يود لو يشرب الشاعر السم ، فالحالان كلاهما مما يكره الشاعر أن يكون طرفاً فيهما أو يقترب منهما غير أنَّ الإلحاح الذي يلاقيه من جهة نفســـه أولاً في رفض ما تكره ، وبالمقابل الإلحاح الذي يعتريه من المجتمع في قبول ما يكره ولّد لديه حالة الإفصـــاح على نحو تكون معه المتضـــادات فعّالة في إظهار براعة التخلص من مرارة ذلك الواقع النفسي والإجتماعي الذي يحب الشاعر تغييره ، ويكره الإلتزام به .

والشـاعر المخضـرم قيس بن الخطيم يصـف حيرته ودهشـته من موقف صـاحبه غير المتوازن الذي يداخله في حالة التناقض والإضـطراب فصـاحبه لا يسـتقر على حال ولا يثبت له رأي ، فهو حيناً يصفو له ويوده ويأخذ برأيه ويوافقه ، وحيناً آخر يبغضه ويعرض عنه ولا يأبه به فقال :

يـا عمرو قـد أعجبني من صـــاحبٍ

حـيـنـاً تشَّـــجُ وتـارةً تـأســـونـي

أمـا الفؤاد فنـاصـــحٌ فيمـا بـدا والـقـولُ قـول الأحـمـق الـمـجـنـونِ

---

(144) شرح ديوانه : 327.

وإذا تقوم بخطبةٍ أرضى بها وإذا أقوم بخطبة تخزيني [145]

يبدو التضاد واضحاً في الشطر الثاني من البيت الأول في قول الشاعر (تشج ضد تأسوني) وقد أَحالت الثنائية المتضادة النص إلى دلالات مهمة تجسدت في كون اللين تارة مرغوباً فيه ، والحزم كذلك على نحو يداوي مواطن الخلل التي بدت في توجهات الآخر ومدياته المعلنة وغير المعلنة التي أثارت استغراب الشاعر وعجبه من هذه السلوكيات غير المتوازنة ؛ إذ التضاد ماثل وحاضر على نحو يستثير مكامن النص ، ويوقد في النفس جذوة الأسى والحزن على مستوى ذات الشاعر إذ برزت هالة الأضداد في قوله (أرضى ضد تخزيني) فالمحبوب يبغضه ويحتقره ، لذلك نراه يقلل من شأنه ويظهر ذلك في مفردة (تخزيني) ، وهذا دليل على الميل إلى الإنتقام ، فكثيراً ما يرغب الذي يشعر بالاحتقار والبغض إلى ذلك السلوك . لكن عين الشاعر كادت تغمض أو أراد لها ذلك ، فهو يستجمع أسباب الحب ويحاول اختلاقها في ذات الآخر حاملاً إياها على محمل (عسى) مترجياً ولادتها في تلك الذات في يوم من الأيام .

إنَّ المزايا التي توافرت في شخصية الشاعر المخضرم أُمية بن أَبي الصلت إذ تثقف بثقافة دينية عالية استمدها من قراءته كتب الأديان السماوية ؛ فقد كان يدين بالديانة النصرانية التي سبقت ظهور الإسلام أثرت في بنية النص الموضوعي لشعره ؛ لذلك جاءت الثنائيات المتضادة في شعره على منوال شعر الحكمة ، فقد نبه إلى عدم الإفراط والإغراق في الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض) لعدم ثبوت الموقف فيها فهي متغيرة متقلبة باختلاف الحال والأسباب التي تدعو إلى ثبوتها أو زوالها ، فقد ينقلب المحب عدواً مبغضاً ، وقد يتحول المبغض إلى حبيب صادق ، قال :

أفرطت في الحبِّ حتى عادَ مبغضةً

---

(145) ديوانه : 67 ، تشج : تجرح وتأسوني : تداوني ومنه الآسي بمعنى الطبيب ، وينظر مثل ذلك ديوان عمرو بن معد يكرب : 65 ، وشرح ديوان كعب بن زهير : 315-316.

وربما عادَ حُباً بغضـــك الرَّجلا [146]

يترشح عن البيت الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض) التي أسهمت بمجملها في حبك الصورة الشعرية المتقدة ، فقد أشار إلى خلاصة فكرية هي أنَّ الإفراط في المحبة يؤول في النهاية إلى مبغضة وكره شديدتين ، وقد يكون البغض في نهاية المطاف حُباً ، مما يدل على حكمة الشاعر في النظر إلى أمور الحياة فهو لا يبتُّ بأمر بتاً قاطعاً وإنما يترك الأمور على سجيتها مما يشير إلى أنَّ معادلته الحياتية قد بناها على أُسس صحيحة ويدل على نوع من الاستقرار النفسي والفكري لديه .

والشـــعراء المخضـــرمون في جاهليتهم لا يخرجون عن الأفكار الإنســـانية التي درج عليها الإنســـان ، فهناك الواشـــي الذي يكثر الحســـد واللوم ، ويخترع الأكاذيب ، ويمد يده لإجتثاث الحب والوصـــال ، ويزرع بدلاً منهما البغض والفراق . لذلك نجد عمرو بن معد يكرب يكثر من التحذير منه في قوله :

دارٌ لأســـمـــاء إذ قلبي بهـا كلفُ

وإذ أقـربُ مـنـهـا غـيـر مـقـتـربِ

إنَّ الحبيـبَ الـذي أمســـيـتُ أهجرهُ

مِنْ غيرِ مقليـةٍ مني ولا غضـــــبِ

أصـــــدُ عنـهُ اقترابـا أن ألمَّ بـهِ

ومن يخفْ قالةَ الواشـــينَ يرتقبِ [147]

إنَّ ثنائية (الحب ضـد البغض) التي تنضـح من هذا النص ذات تعلق بالرموز التي كان الشـاعر يتعلق بها ، ويحن إليها وهي (الدار) فهو باسـتعمال التضـاد يؤطر الصـورة الشـعرية بإنعكاس شـفاف جميل يتماوج مع تماوج خلجات نفسـه التي أضـناها الوله والعشـق، وتبدو المتضادة من خلال (أقرب ضد غير مقترب) وأخاله يريد بأقرب القرب الروحي الذي أسسهُ حبه لأسماء ، وغير مقترب يعني به ذلك القرب المادي الذي لا يجد فيه الشاعر تلبيةً لأحاسيسه ومشاعره المتأججة .

---

(146) أُمية بن أبي الصلت حياته وشعره : 248.

(147) ديوانه : 34.

ثم تبرز ثنائية متضادة تحدث نوعاً من المفارقة التي تثير الاهتمام هي قوله (أصد عنه ضد اقترابا) .

إذ كيف يكون البُعد قرباً في الوقت نفسه لو لم يكن ذلك الصد وسيلة يحمي بها الشاعر حبيبه من أذى ذلك المجتمع المنغلق إنغلاقاً لا يتاح معه حتى الإفضاء بحقيقة المشاعر الصادقة النابعة من قلب الفطرة البشرية .

ورث المجتمع الجاهلي أنواعاً من الزواج المقيت المكروه الذي يكره الزوجة على المكوث عند زوجها ، ومنه زواج المقت وزواج الأخيذة [148] , وقد وجدنا من الشعراء المخضرمين مَنْ كان متزوجاً من زوج أبيه وهو مبغض لهذا الفعل منهم عمرو بن معد يكرب [149] ، وتميم بن أبي بن مقبل الذي تحدث في أشعاره عن تعلقه بزوج أبيه الدهماء التي تزوجها بعد وفاته وأحس بالسعادة والحب بقربها .. وبعد مجيء الإسلام فرقت تعاليم الإسلام بينهما لكنه ظل على الدوام يحن إليها ويلهجُ بذكرها [150] .

أما النمر بن تولب فقد تزوج جمرة بنت وهب الأَسدية وهي من الزوجات الأخيذات ، فقد أَسرها أخوه ووهبها له فأمتنعت عنه فحبسها حتى استقرت عنده ، وولدت له أولاداً ، وفي ذات يوم طلبت منه أنْ تزور أهلها فأستزارها لكنها تركته ولم تعد إليه وهي غير كارهة له ؛ والشاعر على الرغم من غضبه الشديد منها إلاّ إنه استطاع أنْ يجسد صدق مشاعره حيال حبها وحيرتها إزاء ما وضعها فيه العرف الإجتماعي القاسي حين قال :

---

(148) زواج المقت يكون بوراثة الأبن الأكبر لزوج أبيه بعد موته فيتخذها زوجاً له ، وقد يحدث أن يرثها أبو الزوج أو أخوه وهو زواج أقره المجتمع الجاهلي إلاّ أنَّه مكروه عندهم ، أما زواج الأخيذة فهي السبية المعروفة النسب التي يتخذها آسرها زوجاً له ، أو يهديها إلى أحد أقاربه . ينظر تاريخ العرب : 5/534-536 ، والانتماء في الشعر الجاهلي : 141.

(149) ديوانه : 173 ، قال في زوج أبيه المتوفى مظهِراً بغضه من زواجه منها :

لقعقعة اللجامِ برأسِ طرفِ

أحبُّ إليَّ مَن أَنْ تنكحيني

0000

فلولا أُخوتي ، وبني منها

ملأت لها بذي شطب يميني

(150) ينظر ديوانه : 40-41، 44 ، 48 ، 266-267 ، 311 ...

جزى الله عنـا جمرة ابنـة نوفـلٍ

جـزاءَ مُـغـلٍّ بـالأمـانـةِ كـاذبِ

لهـانَ عليهـا أمس موقف راكـبٍ

إلى جانـب السـرحاتِ أخيب خائـبِ

000

وصـدت كأنَّ الشـمسَ تحتَ قناعها

بدا حاجب منها وضـنَّت بحاجبِ (151)

تظهر في البيت الثانية المتضـادة (الحب ضـد البغض) التي أشـار إليها الشـاعر عبر استعمال الثنائية المتضـادة للأفعال (بدا ضـد ضـنت) إنها تجمع وتفرق وتوحد ؛ وهنا تتكشـف مسـألة مهمة هي أن بعض المضـامين تحمل في داخلها بنيات متضـادة ، وهذا ما حصـل للزوجة التي تركت زوجها على الرغم من حبها له ، لأن ذات الزوجة هي موضـوع الحب للقبيلة وأبنائها وهي تلح عليها أن تجعل كل مديات تفكيرها ومشـاعرها متوجهة نحو قبيلتها وأسرتها الأولى فكانت القبيلة هي الموضوع الأساسيّ الذي دار في فلكها حب الزوجة فظهر التوحد بين الذات والقبيلة ، فالقيم الإجتماعية التي كانت سـائدة في المجتمع الجاهلي ألقت بظلالها على الأخيذة وجعلتها تشـعر بالذل والعار والمهانة ، مما دعاها إلى الاسـتهانة بالأسرة الجديدة .

والشـاعر المحب في هذا البيت لم يتمكن من أنْ ((يخفي تعلقه بها ، فهي كالشـمس وعودتها إلى أهلها وبعلها الأول لا تنفي ميلها إليه ، فهي تُريه بعض جمالها ، لأنها توده، وتخفي عنه بعض جمالها لأنها أقدمت على مفارقته)) (152) .

يدل هذا العرض المتواضـع للمتضـادة الوجدانية (البغض ضـد الحب) للشـعراء المخضـرمين في الجاهلية على مشـاعر فياضـة وفكر متوقد متفاعل مع الحدث من جهة، وداعم للشعراء من جهة أُخرى ، حمل الشاعر على أن ينسج منها ثنائية جميلة وصادقة تنمُّ على وعي وإدراك وهي مقصـودة ، أوجدتها المعاناة الشـعورية في صـدره وتلقفها فكره تهذيباً وتشـذيباً ليخرجها ألفاظاً منسـوجة بدقة وإتقان مما يسـتميل الفؤاد ويشـد فكر المتلقي، وبعد

---

(151) شعراء إسلاميون ، شعره : 332-333.

(152) الانتماء في الشعر الجاهلي : 143.

مجيء الإسلام رفضت كل الصفات السيئة المخالفة للقيم والمبادىء الإنسانية السامية التي دعا إليها الإســـلام وأقرها ، وعمل على تطهير النفوس من البغض الذي ألقت به أدران الجاهلية ، من خلال إسداء النصح والإرشاد ، فكان الحب هو المقياس لذي تُقاس به إنسانية الشاعر وسمو شعره وخصوبة عاطفته ، وهو فوق كل ذلك مقياس لإلتزامه بالقرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة ، فقد قال الله تعالى : **((والذينَ آمنُوا أَشدُّ حبّاً لله))** [153] . وقوله : **((لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ))** [154] . وعن أنس ابن مالك τ عن النبي محمد ρ قال : **لا يؤمن أَحدكم حتى يحبُّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه))** [155] .

وقد وجدت في شعر المخضرمين الإسلامي ما يدل على حث الشعراء أَبناءهم على الحب ، ووجوب أبعاد كل ما يؤدي إلى البغض من خلال تقديم النصح والإرشاد لهم، فهذا أبو الأسود الدؤلي يقول :

خذي العفوَ مني تستديمي موَدتي

ولا تنطقي في سَورَتي حينَ أغضبُ

فإني وجدتُ الحبَّ في الصدرِ والأذى

إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يَذهبُ [156]

المتضادات ها هنا تترشح من أسلوبية الأمر والنهي وهو تضاد أسلوبي ، إذ يقول الشاعر (خذي ضد لا تنطقي) وبالضرورة فإنَّ القرائن التركيبية أدت دورها على نحو يظهر جمالية التشكيل النفسي للنص ، إذ العفو يؤدي إلى المودة في حين أن النطق في حالة الغضب يؤدي إلى البغض ، و (الحب ضد البغض) لا يجتمعان في ذات واحدة ما لم تتوافر أسبابهما الداعية إليهما ، فسبب دوام الحب عند الشاعر المسلم هو أخذ العفو ، وسبب الكره عنده هو النطق والملاسنة في حالة الغضب ، وتحولت عنده معادلة الحب تحولاً ذا شكل آخر هو أنه لا يجتمع الحب مع الأذى في قلب واحد ، فلا يكون حب معه أذى ، ولا يكون

---

(153) سورة البقرة ، الآية : 165.

(154) سورة الأنفال ، الآية : 63.

(155) صحيح البخاري : 49/1.

(156) ديوانه : 244-245.

أذى من باب الحب ، لأن معادلة الحب الســـامية في هذه الحالة لا تســـتقيم ولا تتوازن بل يعيش الحب في حالة انكفاء وانكســـار وتراجع وما ذلك إلاّ لاختلاف القيم الروحية التي تنتج عن الحالين كليهما وما ذهاب الحب وقهره أمام الأذى إلاّ اعتراف بالنصـــر لا الهزيمة ، لأنه لا يتصـــور أنَّ الحب ينهزم أمام جبروت أعتى القوى إلاّ إذا كان المحبوب مؤذياً لحبيبه بداعٍ واهٍ وحجة كاذبة تحمل أذى المحبوب .

وللتجربة دور في تجميل الحياة الإجتماعية وتقريبها من القناعة والطمأنينة ، فقد نبه الشاعر ذو التجربة المخضرمة النمر بن تولب على عدم الإفراط والإغراق في الحب والبغض لينعم الإنسان بالاستقرار والإتزان ، ولكي لا يسفهه الآخرون ويندم في حال حصول القطيعة بين المحبين لأسباب قد تكون خارجة عن إرادتهم ولا يستطيعون لها دفعاً، مثلما حصل مع زوجه جمرة في الجاهلية فقد تحول الحب بينهما إلى قطيعة وبغض وهذا ما سبقت الإشارة إليه ، ويتواصل الشاعر مع تجربته المريرة بعد إسلامه ليعلن عن الحلول الوسطية في رثائه لزوجه بعد أن سمع بخبر موتها فقال :

وأحـبـب حـبـيـبَـك حُـبّـاً رُويـدا
فـلـيـسَ يَـعـولـك أن تصْـــرِمـا
فـتـظـلـم بـالـودِ مَـنْ وصـــلـهِ
رقـيـق فـتَسْـــفـه أو تـنـدمـا
وأبغض بغيضـــك بُغضـــاً رويـداً
إذا أنـتَ حـاولـت أن تحْكُمـا (157)

يستند الشاعر في صياغته للنص على تجربته الخاصة وحسه الديني الذي أكتسبه بفضل الاستماع إلى قول النبي محمد ρ **((أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما))** (158) .

وعلى شاكلة نص النمر بن تولب المذكور آنفاً يقول الشاعر المخضرم أبو الأسود الدؤلي :

---

(157) شعراء إسلاميون ، شعره : 379-380.

(158) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ρ : 84/5.

أحبــب إذا أَحببــتَ حُبــاً مقــاربــاً

فــإنَّــكَ لا تــدري مــتــى أنــتَ نــازعُ

وأبغضْ إذا أبغضـــــتَ غيرَ مبــاعـدٍ

فــإنَّــكَ لا تــدري مــتــى أَنــتَ راجِـعُ

وكنْ مَعْدِناً للحلمِ وأصـــفحْ عن الخنا

فـإنـكَ راءٍ مـا حييـتَ وســـامعُ (159)

تتجلى الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض) على نحو واضح لا يقبل الشك ، إذ صرّح الشاعر بهذين الضدين حين قال : (أحبب ضد ابغض) غير أن النص وبناه التركيبية أعطت المتضـادة حيزاً فاعلاً في الدلالة والحركة في حواشـي النص ومتونه ، فحب الشـاعر حبٌ مقارب بســـبب أنه لا يدري متى هو نازع ، وفي هذا النوع من الحب دعوة إلى محبة الأقارب من النســاء خاصــة ، لأنهنَّ الأكثر حفظاً وصــوناً للرجال في حضــورهم وغيابهم ؛ وصــرّح الشــاعر بالبغض غير أنه حدد ذلك البغض بأن لا يكون نهائياً، لأنه لا يدري ربما تجعله صروف الدهر راجعاً عن بغضـه ، وهذه الحالة تمثل معادلة الوسطية والإعتدال التي أشـــار إليها النبي محمد ρ في الحديث المذكور آنفاً ، ومما لا ريب فيه أنَّه متأثر بالمفاهيم الإســلامية التي دعت إلى التوســط في الأمور من خلال نصــوص التنزيل والحديث النبوي الشريف ، لأنها دائماً تقود إلى الحلول الناجعة لكل المشاكل التي يواجهها الإنسان في حياته الخاصـــة والعامة ، غير إننا لا نعدم التأثيرات الأُخرى في هذا الموقف كأن تكون إجتماعية أو فكرية ، أو نفسية تبعت الأجواء العامة التي كانت سائدة .

لم تغب ذات الشــاعر الإســلامي في كل ما طرزه من بديع القول إذ تجاوبت نفســه وجدانياً مع ظروف معيشته ، فتركت آثارها في نسيجه الشعري ، فالشـــاعر المخضرم زيد الخيل بعد إعلان إسلامه أمام رسول الله محمد ρ وعودته ثم وصوله إلى القفيل وهي موضع في ديار طي أحسَّ بإضمار العداوة والبغضاء من أهل هذا الحي فقال ((أنا أُعطي الله عهداً إلاّ أقاتل مســلماً أبداً فتنكبوا عن أرضــهم ، وأخذوا به على ناحية من أرض طي حتى انتهوا

---

(159) ديوانه : 138–139 ، وردت الأبيات في شــعر هدبة بن الخشــرم مع وجود بعض الاختلاف في الألفاظ .

إلى فردة وحبسه)) [160] فأطاله المرض وأحس بشيء من الغربة والحنين إلى الأهل والأحباب ، فراح يرسم نفسه بآمالها وأمنياتها ، وحبها وكرهها حين قال :

هنـالـكَ لو أني مرضـــتُ لعـادني

عوائـدُ من لم يشـــفَ منهنَّ مجهـدِ

فليـتَ اللواتي عُـدْنني لم يعـدْنَني

وليـتَ اللواتي غِبْنَ عني عُوّدي [161]

استطاع الشاعر المخضرم في الإسلام أنْ يوسع دائرة (الحب ضد البغض) بفضل حظوته وقدرته على التجريد ، فهو يتمتع بقدرة كبيرة على الاشتراط ، وهي ((حصول شيء مصاحب لشيء آخر له رد فعل معين على نفس رد الفعل بحيث يحصل ذلك الشيء المصاحب على قوة إثارة لا تقل عن قوة المثير الأصلي)) [162] . وقد استطاع الشاعر أن يحصل على ذلك بفضل استعماله أسلوب التضاد الذي يشكل ظاهرة مميزة في الشعر المخضرم بحكم عوامل عدة منها التباين الفكري والنفسي الذي أحدثه الإسلام في العقول والقلوب ، ولعل حضور الأضداد في نص الشاعر هذا دليل على ذلك ، فهو يشي بثنائيتين تهيمنان على فكرته الأساسية ، وتحيلان مجراه الى تحولات صورية جميلة فاعلة في بنائه الفني والفكري ، ومن هاتين الثنائيتين ثنائية (عدنني ضد لم يعدنني) فالشاعر في حالة تأزم جسدي ونفسي أثر حبسه ومرضه الذي عادته فيه العُوَّد ، وتمنى لو لم تعده تلك العُوَّد ، لأنه لم يكن يرى ما كان يصبو إلى رؤيته وهو حبيبه الغائب الذي لم يَعدْهُ وقد تطلع إليه في وجوه العُوَّد التي رآها وأظهر احتقاره لها وكرهها ؛ لأنهم في الأرجح القوم الذين أوقعوا به فحبسوه .

والثنائية المتضادة الثانية التي ترشحت عن النص هي ثنائية (الحضور ضد الغياب) متمثلة بـــ (غِبنَ ضد عودي) ولعل هذه الضدية هي الضدية التي أثقلت نفس الشاعر ، وأدمت فؤاده ، وجعلت مرضه عقدة لم يتخلص منها إلاّ بما مكان يفترضه من تمنٍ أشاع في النص نفساً إنسانياً جميلاً وشكل مسحة أمل يَطل من خلالها الشاعر ليرى في لا وعيه

---

(160) شعراء إسلاميون ، شعره : 169.

(161) البداية والنهاية : 63/5، القفيل : اسم موضع في ديار طي ، فردة : ماء من مياه جرم.

(162) الحب والكراهية : 6-7 .

عوالمه المفقودة التي جسدّها في شخص حبيبه الذي لم يلح عليه شعوره ووجدانه في طلبه إلاّ في تلك اللحظات التي تأجج في داخله الصراع على نحو لا خلاص منه ولا منجى .

وقد كان تَشرُبُ تعاليم الإسلام في نفوس الشعراء المخضرمين الإسلاميين عاملاً مؤثراً في أخلاقهم ، فهو الحدث الخطير الذي وقع للمجتمع الجاهلي ، وعَمِلَ على إحداث صدمة في مجريات أمورهم عملت على زعزعة بعض القيم والسلوكيات التي دأبوا على التمسك بها ، وقد استبدلت بقيم وسلوكٍ جديدين .

فهذا فضالة بن عمير الليثي [163] يحكي قصته مع مَنْ يحب ، عندما كان في جاهليته مغرماً بأمرأة ، فلما أسلم ورأته في فتح مكة دعته للحديث معها ، فأبى عليه إيمانه الصادق وعقيدته الراسخة ذلك فقال :

قالت : هَلُمَ إلى الحديثِ فقلتُ : لا
يأَبى عليَّ اللهُ والإسلامُ
لو ما رأيتِ مُحمّداً وقبيلهُ
بالفتحِ يومَ تُكَسَّرُ الأصنامُ
لرأيتِ دينَ اللهِ أَصبحَ بيننا
والشركَ يَغشى وجههُ الإظلامُ [164]

لأنَّ أول مظاهر الحب هي المحادثة ، فهي وسيلة مبادلة العاطفة ، ولما كان الحب المشوب بشائبة لا تليق بمحب قد وسع قلبه للإسلام وتعاليمه ، رفضها وأبغضها ؛ وهذا الفعل من سمات القلوب التي لا تزال صغيرة ، أما الحب في وجدان الشاعر المخضرم المسلم فليس مجرد عاطفة مبتذلة يمكن المتاجرة بها بل هو بوح وعبادة وبفعله هذا يكون قد امتثل لقول النبي محمد ρ **((أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله))** [165]. ومن هنا يتضح تأثير القيم والمبادىء الإسلامية في تقويم سلوك الشاعر بحيث تبصره بما يجب التمسك به وما يجب الاغضاء عنه وتركه .

---

(163) هو فضالة بن عمير الليثي ، صحابي أسلم يوم الفتح (8هـ) وكان قد أتى ليفتك بالنبي ρ فهداه الله للإسلام وآمن . الإصابة : 207/3.

(164) البداية والنهاية : 306/4 ، والإصابة : 207/3.

(165) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ρ : 78/5.

أما الشاعر عبد الله بن رواحة فقد أظهرت الثنائية المتضادة (الحب ضد البغض) تأثره بالمفاهيم الإسلامية الروحية بصورة واضحة وقد تغلغلت في نفسه على نحو أظهرهُ الشاعر من خلال نصه الذي قال فيه :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّهْ
لتنـزلنَّ أو لتكرهِنّـهْ
إن أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرّنِهْ
ما لي أراكِ تكرهيـنَ الجنّه
قد طالما قد كنتِ مطمئنّهْ (166)

إنَّ الثنائية المتضادة (الموت ضد الحياة) أو بعبارة أُخرى ضدية (حب الموت ضد حب الحياة) جاءت بفعل تأثير المعطيات الروحية التي أَشاعها الإسلام في النفوس، ويظهر ذلك من خلال قوله (لتنزلنه ضد لتكرهنه) فقد استوى عنده حب الموت وهو يعلمه أنه آتٍ إليه وحب الحياة وهو يعلم أنه مفارق إياها ، وهو في حالة عتاب داخلي وحوار بين أنا الشاعر ونفسه على نحو تتجسد فيه كل ما كان كامناً في مديات النفس البشرية التي رباها الإسلام ووصفها الذكر الحكيم بأنها مطمئنة قال تعالى : **((الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ))** (167) .

ويترشح عن النص ضدية أظهر أحد طرفيها وهو الطرف الإيجابي وأخفى الطرف الآخر على نحو مقصود وهي ضدية (الخوف ضد الاطمئنان) إنَّ الخوف هو ذلك الطرف الذي حاول الشاعر التخلص منه والابتعاد عن كل مسبباته بما كان يملك من إرادة وقوة روحية كامنة ، وهذا النمط الضدي أظهره على شكل حواري مع نفسه في المنلوج ؛ ليجسد الشاعر فيه ذاتين متضادتين في آن واحد معاً تمثلان صراعاً بين مجموعتين من القيم التي لكل واحدة منهما تأثيرها في البقاء والتحدي .

---

(166) ديوانه : 108.

(167) سورة الرعد ، الآية : 28 .

المبحث الثاني
الثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلة)

العزّة في الأصـــل اللغوي ((القوة والشـــدة ، والرفعة والامتناع)) [168] . والمعز من صـفات الله سـبحانه وتعالى وأسـمائه الحسـنى فهو الممتنع الذي لا يغلبه شـيء ، وقيل هو القوي الغالب كلَّ شيء ، وهو الذي يهب العز لمن يشاء من عباده . قال تعالى : **((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))** [169] .

والعز خلاف الذُّل ، والذُلُ هو الانكسـار والضـعف [170] ، والذِّل بالكسـر هو اللين ضد الصعوبة ، والذِّل والذُّل ضد الصعوبة ، ويكون في الإنسان والدابة [171] . قال تعالى : **((وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ))** [172] . والذل هنا الرفق والرحمة ، والمُذل من أسـمـاء الله سبحانه وتعالى الحسنى وصفاته ، وهو أسم فاعل للفعل ذل ((والذال واللام في التضعيف والمطابقة أصل واحد يدل على الخضوع والإستكانة واللين ، فالذل ضد العز ، وهذه مقابلة في التضاد صحيحة)) [173] .

وقد حمل شعر المخضرمين لنا دلالات مهمة عن الثنائية المتضادة (العزة ضد الذلة) إذ لم يكن مهتماً في نوع من العزة أو الذلة بل حدد هذا الجانب الدلالة السـياقية للثنائية المتضـادة ، فقد واكب شـعر المخضـرمين في الجاهلية والإسـلام حياة العرب فكانت حلقة تواصل فكري وعقلي بين الأجيال تحمل مشاعر الأجداد إلى الأبناء ، وتوحد إحساسهم ضد أعدائهم فتقوي علاقاتهم الإجتماعية بما أكتسـبوه من مآثر وقيم كانت مرتبطة بالقبيلة وكيانها الإجتماعي ، وأول تلك المآثر الإشـادة بالأنسـاب ، فقد كانت القبائل تحافظ على أصـولها

---

(168) لسان العرب ، مادة : عزز .

(169) سورة آل عمران ، الآية : 26.

(170) ينظر لسان العرب ، مادة : ذلل .

(171) ينظر المصدر نفسه ، والمادة نفسها .

(172) سورة الإسراء ، من الآية : 24.

(173) معجم مقاييس اللغة : 345/2.

وأنسابها ؛ وتحرص على مكارم أخلاقها لكونها مآثر تدل على حسن أُصولها وكرامة أبنائها ؛لأن القبيلة الضعيفة غير قادرة على حماية أبنائها وصون كرامتهم؛ فيذلوا ولا يُعز جانبهم ولا يهابهم الأعداء ، وهذا ما دعا الشاعر المخضرم في جاهليته إلى التغني والاعتزاز بمفاخر قبيلتهِ ، فهذا الحصين بن الحمام المري قال :

أقيمي إليكِ عبد شمس وشايعي

على كل ماءٍ وسطَ ذبيانَ خُيَّما

وعوذي بأفناء العشيرةِ إنما

يعوذُ الذليلُ بالعزيز لِيعْصَما[174]

تكاد الثنائية المتضادة (العزة ضد الذلة) تكون بؤرة التضاد القابع في عموم هذا النص ؛ إذ هي لازمة من لوازم الديمومة والبقاء ، وهي مدار الكيان الإجتماعي والتربوي الذي يلف إنسان ذلك الزمن ويشكل بيئته ، وحواضنه ، والثنائية المتضادة التي يفصح عنها النص تجسد العلاقة والنتيجة بين الضدين وهما (الذليل ضد العزيز) الذليل الذي يلجأ إلى العزيز ليعصم نفسه من الذل ، والذل في الحقيقة قيمة إجتماعية سلبية تتمظهر بمظاهر جمّة حسب طبيعة الإنسان ومحيطه ، ففي النص إشارة واضحة إلى ضرورة التمسك بالقبيلة وبقيمها المعنوية ؛ لكونها الكيان والمكان النفسي والمعنوي الأكثر حماية لأفراده من المخاطر التي تحيق بهم على شتى الأَصعدة والمستويات ، إذ هي مصدر عزة ومنعة لمن أكد أصل إنتمائه إليها ، وهي مصدر ذلة وغلبة وقهر لمن تمرد عليها وعلى مآثرها التي توارثتها ، وعاشت أحقاباً طوالا تدافع عنها ، إذن فالعزة في نظر الشاعر مرتبطة بالقبيلة .

والشاعرة المخضرمة في العصر الجاهلي ترى في الرجل سواء أكان ابا ام أبنا ام اخا ام زوجا ، عزةً ومنعةً وكبرياءً ، فهي تطمئن لوجوده معها في مجتمع هضم حقها وقد بيّن القرآن الكريم موقف المجتمع من المرأة في الجاهلية ابلغ بيان بقوله تعالى : **((وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ))** [175] ، وإذا ما فقدت المرأة

---

(174) شعره : 114.

(175) سورة النحل ، الآيتان : 58-59.

الرجل فإنها تفقد أحد أسباب عزتها وكرامتها ، بل تفقد أحد أسباب بقائها واستمرارها في الحياة ، ففاطمة بنت الأحجم [176] ترثي زوجها قائلةً :

قَد كُنْتَ لي جبلاً الوذُ بظلهِ

فتركتني أضحى بأجردَ ضاحِ

قد كنتُ ذاتَ حميّةٍ ما عشتَ لي

أمشي البَرازَ وكنتَ أنتَ جناحي

فاليومَ أخضعُ للذليلِ واتقي

منهُ وادفعُ ظالمي بالراحِ [177]

تدفقت أحاسيس الألم والحسرة والحزن سيولاً ؛ لفقدها زوجها وبفقده ضاع شعورها بالعزة والكرامة وأحست بالذل والمهانة والوحدة والضعف والإنكسار .

والشاعر المخضرم أبو الطمحان القيني في جاهليته خرج بحكمةٍ استخلصها من الثنائية المتضادة (العزة ضد الذلة) مفادها الإنقياد للأمر الواقع والخضوع له فقال :

بني إذا ما سامكَ الذلُّ قاهرُ

عزيز فبعض الذُّلُ أبقى وأحرز

ولا تحْمِ من بعضِ الأمور تعززاً

فقد يورث الذل الطويل التعزز [178]

ينفتح النص على قيمة فنية نابعة من تلك القيمة الإجتماعية والتربوية التي جاءت على نحو أشبه بالوصية ، قد أَدتْ المتضادات دورها في تدوير المعنى وإظهار الدلالة على نحو أشبع النص بكل مقوماته الفنية ، فهنا نجد الشاعر يوجه خطاباً صريحاً إلى ابنه في حال إعتراه الذل لأمرٍ ما أو لظرفٍ ما ، ويجده عزيزاً حتى وإنْ بانَ الذل عليه لأنَّ العزّة

---

(176) فاطمة بنت الأحجم شاعرة مخضرمة وصحابية جليلة وقد تمثلت السيدة فاطمة الزهراء سلام الله عليها بشعرها بعد وفاة النبي محمد ρ . ينظر شعر المخضرمات بين الجاهلية والإسلام:27.

(177) شعر المخضرمات بين الجاهلية والإسلام : 27.

(178) أبو الطمحان القيني حياته وما تبقى من شعره : 158 ، وينظر مثل ذلك ديوان عمرو بن معد يكرب : 46 .

أَصله ومعدنه وإنْ رانَ الصدأ على ظاهرها ، لأنه يجد في ذلك نوعاً من الخلاص في معادلة الحياة (البقاء والفناء) ، إذ يشكل الذل عنده نوعاً من ذلك الخلاص فـــ (بعض الذل أبقى وأحرز) ونجد التشـكيل الفني ظاهراً في البيت الثاني من خلال أسـلوبية التقديم والتأخير في شطره الثاني ، إذ دعا الشاعر ابنه إلى أنْ لا يبقى متعززاً في كل الأمور ؛ لأنه عرف نتيجة هذه المعادلة فقال (فقد يورث الذُّل الطويل التعززُ) إذ إنَّ المبالغة في الترفع والتعزز تتقلب ذلاً مقيماً وضعفاً وهزيمة .

والشـاعر المخضـرم ربيعة بن مقروم الضـبي يفخر بأنَّ قومه يأنفون من الإقامة في دار الهوان فمن أقام في دار الهوان سـهل عليه الهوان والذل ، وليس من يرفض الذل والهوان كمن يعتمل الضيم فقال :

ودار هـوان انـفـنـا الـمـقـامَ

بـهـا فـحـلـلـنـا مـحـلاً كـريـمـا

إذا كـان بـعـضـهـم لـلـهـوانِ

خـلـيـط صـفـاءٍ وأُمـاً رؤومـا

وثـغـر مـخـوف أقـمـنـا بـهِ

يهـابُ بـه غيرنـا أنْ يقيمـا (179)

سعى الشاعر في النص إلى إبلاغ الناس جميعاً أَنَ قومه حلوا وسكنوا في دار العزة والكرامة من خلال نفيه الإقامة في دار الهوان ، إذ اسـتعمل التراكيب المتضـادة الآتية (دارُ الهوان ضد محلاً كريماً) و (أنفنا المقامَ ضد فحللنا محلاً) و(أقمنا به ضد يهابُ غير أنْ يقيما) وفي استعمال الشاعر هذه المتضادات عرض لصورتين من صور الهيكل الإجتماعي ، إذ نجد الصـورة الأُولى تُجسـد العزة والرفعة والمكانة العالية عند قوم الشـاعر مدعومة بالقوة ، أما الصـورة الثانية فتجسـد الذلة والهوان والضـعف ، وهذا العرض يتسـم بالتناقض والتضـاد الذي يعطينا مفارقة كونية يزخر بها المجتمع الجاهلي.

وبعد مجيء الإسلام تبينَ أنَّ أَهم ما أحدثه الإسلام في الثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلة) هو تعزيزها وترسـيخها وتوسـيعها فقد أَوجد الله سـبحانه مفهوماً آخر لهذه الثنائية في

---

(179) شعراء أسلاميون ، شعره : 285.

قوله تعالى : ((**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُـــولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**))[180] . وقال أيضـاً في وصـف الأعزاء من المسـلمين المؤمنين : ((**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**)) [181] . وقد حمل الإسـلام الشـعراء المسـلمين على أن يتأثروا بمعطياته الجديدة التي قدّمها لهم ، ويبتعدوا عن التباهي والتغني بالمفاخر الجاهلية ، وتبني محاربة القيم السلبية التي ظهرت فيها ، وقد تأثر هؤلاء الشعراء بالقرآن الكريم ودعوته بعد إيمانهم به ، فقد حرصـوا بعد إسـلامهم على جعل التباهي بالعزة دينية جماعية حين أسـدل السـتار على العصـــبية القبلية الجاهلية التي كانت فردية قبلية ؛ فهذا حســـان بن ثابت يفخر بإعزاز الله سبحانه وتعالى للمسلمين في معركة الخندق بالنصر المبين فقال :

وكفى الإلــهُ المؤمنـينَ قِتــالـهم

وأثَــابَـهُـم فـي الأجـرِ خـيـر ثـوابِ

من بَعْـدِ مــا قنطوا ففرّجَ عنـهُمُ

تـنـزيـل نـص مـلـيـكـنــا الـوهــابُ

وأقرَ عـينَ محـمـدٍ وصـــــحــابَــهُ

وأذل كــل مــكــذبٍ مُــرتــابِ [182]

الأبيات صورة صادقة عن إعزاز الله سبحانه وتعالى ونصره للمنهج القويم الذي جاء به النبي المختار محمد ρ فقد أورد الشـــاعر الثنائية المتضـــادة (أقرَّ عين ضـــد أذل) والمعروف إنَّ الذل هو نقيض العزّة إلاّ أنَّ الشاعر أخرج المفردة الأولى من الثنائية المتضادة من إطارها المعجمي إلى إطارٍ يتناســب مع بنية النص الموضــوعية . فلفظة أقرَ الله عينَ النبي محمد ρ تعني إنَّ الله سبحانه وتعالى أعطاه حتى قُرّت عينه ولم تعد تطمح إلى شيء آخر ، فقد أَعزَّهُ بالنصـــر والغلبة في الدنيا والآخرة . ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ((**مَنْ كانَ يريدُ العزَّةَ فللّهِ العزَّةُ جَميعا**)) [183] . أي إنَّ الله أعز عباده في الدار الأُولى بالنصـــر وفي الآخرة بالأجر والثواب وبهذا يكون قد جمع العزة للمســـلمين في الدارين ، أما الكافرون فلا يحظون بغير الذلة والخسران .

---

(180) سورة المنافقون ، من الآية : 8.

(181) سورة المائدة ، من الآية : 54.

(182) شرح ديوانه : 69.

(183) سورة فاطر ، الآية : 10.

ويبدو أن الثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلة) في العصر الإسلامي اقترنت اقتراناً وثيقاً بثنائية (الحياة ضد الموت) من خلال توحد الطرف الأول والثاني الثنائيتين وتداخلهما معاً وهما (العزّة والموت) في حين أننا نجد الطرف الثاني والأول من الثنائيتين وهما (الذلة والحياة) يتفاوتان فيزيد الطرف الأول على الآخر من حيث الإيغال في المهانة والذلة ، فقد تمنى الحطيأة لأُمه الموت على الحياة إذ كانت أُمه أَمَة فقيرة وقد أورثها الفقر والعبودية الذل والابتذال ، فنشأ الحطيأة في كنفها ((محروماً من نقاء النسب وصفاء الانتساب القبلي أو الانتماء الإجتماعي الذي فرضت وجوده العصبية القبلية عصرئذٍ . فكان يشكو من حالة المستحيل والتي دفعت بهذا الإنسان البائس إلى النقمة على عصره ، والتمرد على بيئته ، والسخرية من بيته الممثل بأمه وأبيه المجهول)) [184] ، وهذا الأمر أثر في نفسية الحطيأة كثيراً إذ جعله يشعر بالذل والمهانة والاحتقار من جانبها فهو ((لم يرحم هذه الأمَة البائسة ولم يقدر ظروفها ، لأنه ما عاد يرى في الأم مصدراً للحنان والدفء والعطف ، بقدر ما رأى فيها رمزاً للعنة والإثم)) [185] . وليس غريباً بعد ذلك أن يجد الشاعر في موت أُمه عزة وكرامة له فقد أعلن براءته وكرهه لها بصراحة إذ تمنى لها الموت ، فموتها يسره ، وقد يسر الصالحين ؛ لأَن بموتها يقبر الذل والهوان إذ قال :

تنحي فاجْلسي مِنَّا بَعيداَ
أراحَ اللهُ مِنْكِ العَالمينا

أَغربالاً إذا استُودِعْتِ سِرّاً
وكانُوناً على المُتحَدِّثينا

ألمْ أُوضح لكِ البغضاءَ مِنيَّ
ولكن لا إخَالُكِ تَعْقِلينا

حياتَكِ مَا عَلِمْتُ حَياةُ سَوْءٍ
ومَوْتُكِ قدْ يَسُرُّ الصّالحينا [186]

ويرى الشاعر المخضرم المزرد بن ضرار بعد إسلامه أَنَّ الموت المقرون بالعزة فخرٌ وكرامة إذ قال :

---

(184) نزعة التمرد والسخرية في شعر الحطيأة : 6.

(185) المصدر نفسه : 8.

(186) ديوانه : 277.

وكنــتُ إذا قطعّــتُ أَعراض معشـــر

نـمـيــتُ إلـى عـيـصٍ مـنـيـعٍ عَرمْرمِ

قـريـنٌ وحصـــن إنْ أُنــاسٌ تـغـيـبـوا

حُمـاتي ورهط ابن الحصـــين المُلطمِ

هُمْ القومُ يختــارُ الحيــاةَ أخوهمُ

عـلـى الـمـوتِ لا رهـطُ الـذلـيـلِ الـــــمـــــلـــــطّـــــمِ[187]

تبدو الثنائية الضــدية (العزّة ضــد الذلة) إذا نظرنا إلى النص بشــكل ســريع غير واضــحة المعالم ؛ ولا مؤثرة في ســياق النص ولكن ورود قرينة لفظية (ذليل) دلَّ على أنَّ المتضادة من نوع المتضادة المتفرعة أي المرتبطة بوجود ذي كيان أكبر وأوسع ، فالحياة إذا لم تكن بعزة فهي أَذل ما تكون عليه بل هي إلى الموت أقرب ؛ كذلك الموت ــ حتى الموت قرنوه بالعزة ؛ فإن لم يكن آتياً مِنْ بابها وداخلاً من باحتيها لم يكونوا يتشــرفون به على نحو تشــرفهم وافتخارهم بالموت المقرون بالعزة ؛ والعزة هنا نابعة بوصــفها متضــادة قابعة في حواشي النص البعيدة من متضادة أكبر هي (الحياة ضد الموت) وقد أدت الألفاظ بتشكلاتها وتناغمها وظيفتها على نحو تتضـافر فيه كل البُنى الصـوتية والصـرفية والأسـاليب النحوية ، فالفعل (يختار) دلَّ على عدة دلالات منها أنَّ الاختيار واقع ضــمن حدود الحرية البشــرية التي يحملها العقل الإنســاني ، لا ضــمن مديات الحرية المرهونة المحددة بمحددات تجعلها ليست حرية كاملة ، وتقدم الضمير (هم) على القوم وكان الحق أن يكون التركيب (القوم هم) مما يترشــح عن التركيب الأول قوة في المعنى ، وزيادة عليه وما ذلك إلاّ لأن الضــمائر أعرف المعارف .

والشــاعرة المخضــرمة عمرة بنت ود العامري رأت في الميتة التي مات عليها أخوها المشــرك عمرو بن ود العامري الذي قتل في معركة الخندق على يد الإمام علي بن أبي طالب (عليه الســلام) ، العزة والكرامة من خلال قيمة قاتله فلو كان قاتله إنســاناً وضــيعاً لشــعرت بانحطاط مكانته وذلته لكنه مات على يد أشــجع الناس وأشــدهم على الباطل حين قالت :

لَوْ كــانَ قــاتــلُ عمْروٍ غيرَ قــاتلــهِ

لـكـنــتُ أبـكـي عـلـيــهِ آخـرَ الأبــدِ

187() ديوانه : 29–30.

لـكـن قـاتـلــهُ مَـنْ لا يُـعـابُ بــهِ وكـانَ يـدعى قـديمـاً بيضـــــة البلـدِ

من هاشـــم في ذراها وهي صـــاعدةٌ إلى الســـماءِ تميتُ الناسَ بالحَســـدِ

قـومٌ أبــى اللهُ إلاّ أن يـكـونَ لـهـم مكـارِمُ الـدين والـدُّنيـا بِلا أَمـدِ (188)

أما الشاعر المخضرم عبد الله بن رواحة يظهر من خلال استعماله للثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلة) إنَّ العزّة بالإيمان والذلة بالكفر والطغيان حين وصف بعض شخصيات بني النضير بعد الإجلاء عن المدينة المنورة فقال :

لعمري لقد حكتُ رحى الحربِ بعدما أطـارت لُؤيّـاً قبـلُ شـــرقـاً ومغربـا

بـقـيــةِ آل الـكـاهـنـيـنَ وعـزّهـا فعـادَ ذليلاً بعـدمـا كـانَ أغلبـا

فطـاحَ ســـلامٌ وابن ســـعيـة عنوةً وقيـد ذليلاً للمنـايـا ابن أخطبـا

واجلــب يبغي العزَّ والــذل يبتـغي خلافَ لديهِ ما جَنى حينَ أجلبا (189)

إنَّ الإبحار في مديات مضمون هذه الأبيات يكشف عن الصلة الوثيقة بين الثنائيتين المتضـادتين (العزّة ضـد الذلة) و (الإيمان ضـد الكفر) إذ أننا نلحظ التحول الكبير الذي لحق بآل الكاهنين وهم بنو قريضـة والنضـير اللذين يعود نسـبهما إلى بني الكاهن بن هارون النبي (عليه السلام) ، إذ تحولت العزّة والرفعة التي كانوا يحظون بها إلى ذلة

---

(188) معجم ديوان أشعار النساء : 135، بيضة البلد ، من الأضداد وهي لفظة تستعمل للمدح والذم، والبيضة أصل الطائر فمن مدح جعلها أصلاً ، ومَنْ ذم أراد أن أصل له ، وقد عدَّ بعض الباحثين هذا النص من المنصـفات في الشـعر العربي ؛ ينظر المنصـفات في الشـعر العربي: 307 ، ودراسات في الشعر الجاهلي : 107.

(189) ديوانه : 81، وينظر مثل ذلك ديوان كعب بن مالك : 253.

ومهانة ، لأن ((تحول الأمم التي أعزها الله في الماضي بالأديان الصحيحة إلى أمم ذليلة لأنها إنحرفت إلى الضلالات ومالت إلى التحريف في أصول أديانها)) [190] .

وهكذا نرى إنحرافهم عن مسار الدين الإسلامي أفقدهم العزة والرفعة ، وأكسبهم الذلة والمهانة .

يظهر البحث عن مسببات الثنائية المتضادة (العزّة ضد الذلة) لنا طبيعة الحجج والبراهين والحب الكامن في نفس الشاعر المخضرم ، فقد لجأ حسان بن ثابت إلى استعمال هذه المتضادة للتعبير عما يختلج في نفسه من المشاعر والأفكار التي قادته إلى رثاء جعفر الطيار τ الذي استشهد في معركة مؤتة فقال :

بَعْدَ ابنِ فاطمةَ المبارَكِ جعفرٍ
خَيرِ البريّةِ كُلَّها وَأجلِّها
رُزءً وأكرمِها جميعاً مَحْتِداً
وَأَعزِّها مُتظلِّماً وأذَلِّها
للحقِّ حينَ ينوبُ غيرَ تنحُّلِ
كذباً وأغمرها نَدى وأقلِّها
فُحشاً وأكثرها إذا ما تَجْتَدَي
فَضْلاً وأَبْذَلِها نَدىً وأَذَلِّهَا [191]

الحب والقول بالحقيقة هو الذي دفع الشاعر وأدى به إلى أَنْ يقيم المقارنة بين الثنائيتين المتضادتين (أعزها ضد أذلها) و(أقلها ضد أكثرها) إذ يطيل الوقوف عند القيم الأخلاقية التي يحملها الشخص المرثي ؛ لكونه واحداً من آل بيتِ رسول الله محمد ρ، وما يتمتع به المرثي من عزة المكانة والهيبة والوقار ، جعله يكون عزيزاً كريماً إذا طلب الجِدا ، وهو في الوقت نفسه ذلول منقاد صاغر لصوت الحق إذا دعاه ، فقد ضحى بنفسه في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ونصرة الدين الإسلامي . وأقلها فعلاً للفواحش والمنكرات وأكثر عملاً للفضائل والمكرمات ، وبهذا يكون الشاعر قد كسر التوقع الذي يوجب إبعاد أحد النقيضين عن الشخص المرثي ، وتظهر قدرة الشاعر الإبداعية على المستوى الموضوعي من خلال قدرته على الجمع بين النقيضين ولملمة الشمل في الشخص المرثي ، وإيمانه الراسخ بالالتزام الصادق لقضية الإسلام التي تمثل القضية الإنسانية بجملتها .

---

(190) الثنائيات المتضادة في القرآن الكريم : 43.

(191) شرح ديوانه : 392-393.

المبحث الثالث

الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان)

((طاعَ يطاع وأطاع لانَ وانقادَ)) [192] . الطاعة إذن هي الانقياد والخضوع والموافقة في الرأي والفعل ، ولا تصح الطاعة مع المعاصي والآثام بل تصح وتخلص مع اجتناب المعاصي .

والعصيان خلاف الطاعة ((عصاه يعصوه إذا ضربه بالعصا ، وعصاني فعصوته إذا خاشنني وخاشنته ، أو عارضني وعارضته)) [193] . وعصي العبد ربه إذا خالف أمره، وعصي فلان سيده إذا لم يطعه .

وقد ورد نوعان من العصيان في شعر المخضرمين سلبي وإيجابي ، والسلبي هو ما يكون رفض الواقع من دون إدراك للحلول الصحيحة أو من دون إيجاد بدائل صحيحة. أما الإيجابي وهو أن يثور إنسان ما ضد وضعه المخصص له أو ضمن حالته الخاصة ، كأن يثور العبد ويحتج على حالة عبوديته فيعصي سيده وبذلك يكون قد عبّر عن شيءٍ ما لا يرضى به كأنْ يكون عصيانه بسبب الطريقة التي يعامل بها ، وهو بذلك يكون قد قدم لنا من خلال عصيانه المحتوى الإيجابي من خلال رفضه الأعمال التي تنسب إليه وهي تبين إلى أي مدى يمكن أنْ يلحق العبد العاصي بتبعيته لسلطة (الآخر ـــ السيد) في الثنائيتين المتضادتين (الأنا ضد الآخر) و(الطاعة ضد العصيان) ويؤكد في الوقت نفسه سلطته الخاصة ، وبهذا الوضع يكون العبد والسيد في وضع متساوٍ ، فسلطان الأول نسبي مؤقت كخضوع الآخر ، وإنَّ القوتين كليهما للعبد والسيد تؤكدان وبالتناوب ساعة العصيان ريثما تتجابهان لتحطم أحداهما الأُخرى ، وحينئذٍ تختفي كل واحدة من هاتين القوتين اختفاءً مؤقتاً .

---

(192) لسان العرب ، مادة : طوع .

(193) المصدر نفسه ، مادة : عصوي .

ونجد بذور العصيان مبثوثة في إرادة الفطرة الإنسانية الأولى عندما كان الإنسان يبحث عن الخلود فعصى ربه قال تعالى : ((**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**)) [194] . فهي إذن إمتداد لتلك البذور متى ما ظهرت فإنها تعبّر عن موقف الإنسان العاصي .

وأسباب العصيان في المجتمع الجاهلي إنسانية في معظم الأحيان ، فقد دفعت عوامل عديدة بعض أبنائه إلى ممارسة العصيان على الواقع الإجتماعي والسياسي إذ حددوا بموجبه رؤيتهم الفكرية ، فقد كان الوضع الإجتماعي والسياسي الباعث الأول للعاصي على التمرد وعدم الطاعة ؛ فقد شهد المجتمع الجاهلي تقسيماً طبقياً حدد بموجبه الوضع الإجتماعي لأبنائه ، وقد حفزت تلك التقسيمات بعض أبنائه من العبيد على العصيان مما دفعهم إلى المواجهة المباشرة مع السادة ؛ لأنه المنفذ الوحيد للتعبير عن رفضهم الظلم والحيف الواقع عليهم .

ونجد الشعراء المخضرمين في الجاهلية قد وظفوا طاقاتهم الإبداعية عبر الرسالة الشعرية في سبيل خدمة القبيلة المتمثلة بتأييدهم طاعتها ورفضهم عصيانها ؛ وبينوا من خلال شعرهم إنَّ العاصي غير واعٍ عصيانه ؛ لأنه خارج عن كل ما يحول دون تمسكه بقضايا القبيلة ؛ وسعوا من خلال ذلك إلى حل المشكلات التي تواجههم وبهذا برهنوا على صدق إنتمائهم وإخلاصهم فكانت بذلك طاعتهم مشروعة ، وبهذا تكون سمة الطاعة للقبيلة وأعرافها سمة عامة عند الشعراء المخضرمين ، ونرى ذلك في قول دريد بن الصمة حين قال :

أمرتهم أمري بمنعرجِ اللوى

فلم يستبينوا النصحَ إلاّ الأضُحى الغدِ

فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى

غوايتهم وأنني غير مهتدي [195]

إنَّ حكمة الشاعر وسعة ثقافته ودقة ملاحظته تجعله عالماً بخطأ هذه الطاعة إلاّ أنه يخضع لها خضوعاً أعمى ؛ لأن إرادته تنبع من خارج ذاته وهي تابعة للعصبية القبلية ، فهو لا يسمح لنفسه ولا لغيره أنْ يعيش منعزلاً عن القبيلة ؛ لأن من يعصي أمرها وأعرافها يطرد

---

(194) سورة طه ، من الآية : 121.

(195) ديوانه : 47.

خارجها فيغدو هائماً في الصحراء المقفرة بلا حماية ولا نصير ؛ فلا غرابة بعد ذلك أنْ يواجه العبد العاصي بالتهديد والتقريع حين قال أبو الأسود الدؤلي :

أعصـــيتَ أَمـر ذوي الـنُـهـى
وأَطـعـتَ أَمْـرَ ذوي الـجـهـالَـه
والـعَـبـدُ يُـقـرَعُ بـالـعَصـــا
وَالـحُـرُّ تَـكـفـيـهِ الـمـقـالَـه (196)

إنَّ تشكيل هذه المجموعة من الثنائيات المتضادة (عصيت ضد أطعت) و(العبد ضد الحر) استطاعت خلق إيقاع موسيقي داخلي في النص ، ثمَّ أنها استطاعت تقديم صورة حيّة للوضع الإجتماعي القائم آنذاك وما كانت عليه نظرتهم حيال العبيد قبيل قدوم الإسلام ، فالمعنى الذي أراده الشاعر ظهر بجلاء فقد قواه التضاد وزاد من وقع نغمة النص الداخلية التي تصاعدت بتصاعدها مديات التشكيل الصوري .

وربما لا يكتفي الشاعر المخضرم بالتعبير عن إحساسه بالدلالة المعنوية بتضاد واحد فقط ، لذلك نلفي التضاد حاضراً بضروب عديدة عند الشاعر نهشل بن حري حين قال :

وَمولىً عصـــاني واســتبدَّ برأيـهِ
كمـا لم يُطعْ بـالبقتينِ قصـيرُ
فلَمـا رأى مـا غِـبُّ أَمْري وأَمْـرِهُ
وَوَلّـت بـأعْجَـازِ الأمورِ صـــدورُ
تمنى نئيشـــاً أن يكون أطـاعني
وقـد حـدَثـت بعـدَ الأمورِ أُمورُ (197)

ما تلبث الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان) بؤرة فاعلة في تشكيل المتن الشعري المخضرم ، فقد برز نوع من التضاد المشترك اللفظي وهو دلالة اللفظة الواحدة في كل منها على أكثر من معنى ، فقد ذكر السيوطي أن ((المشترك يقع على شيئين ضديين

---

(196) ديوانه : 170-171.

(197) عشرة شعراء مقلون ، شعره : 114 .

وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضدين كالجَوْن ، وَجَلَل ، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين)) [198] .

وتبرز من خلال النص لفظة (مولى) التي تعني في الوقت نفسه (السيد والعبد)[199] ويمكننا أنْ نحدد المعنى الذي ذهب إليه اللفظ المتضاد من خلال القرينة السياقية فهي ((وسيلة للكشف عن معاني المشترك والتضاد)) [200] والمولى هنا ابن العم بدلالة استبداده برأيه لأن ((استبد بالأمر يستبد به استبداداً إذا انفرد به دون غيره واستبد برأيه انفرد به)) [201] ولو كان عبداً لأطاعه بحكم العبودية .

وهذا النمط التضادي يُضفي على نسق الثنائيات المتضادة العام جمالية إيحائية تحرك لوحة التضاد بشكل مموسق متناغم إلى حد أنه يبقي النص على وهج نارٍ هادئة تبعث على التأمل والإنفتاح ، ويترشح من النص تضاد تشابهي ولكن ليس على النحو المعهود في موضوع التضاد فكلمة (عصاني) تؤدي المعنى نفسه الذي يؤديه تركيب (لم يطع) ؛ ونجد ضد المتضادة الأولى (عصاني) في البيت الثالث حين قال (أن يكون أطاعني) فقد تحقق العصيان ولم تتحقق الطاعة وما ذلك إلاّ لعوامل إجتماعية ونفسية قابعة في مجرى السلوك والإرهاصات التي يتعاطاها العقل الباطني (للمولى) مع الظواهر القيمية المُسيرة للواقع الناتجة بصفة سبب ، ونتيجة في الوقت نفسه على نحو يجترح معه مشهداً متنامياً يشير إلى عجز الآخر (المولى أو ابن العم) في تحقيق الطاعة لـ (أنا الشاعر) في ثنائية (الأنا ضد الآخر) . فأنا الشاعر غير مستبدة تنزل الأمور منازلها على نحو وافر من الحكمة وسداد الرأي .

وتبرز في النص ثنائية أخرى (الأعجاز ضد الصدور) أشار الشاعر بالأعجاز مُكنياً عن الآخر الذي ذهب أمره فرطاً بسبب عصيانه وعدم اهتدائه إلى سديد الرأي والموقف ، وأشار مُكنياً بالصدور عن أناه التي استساغت الطاعة ؛ طاعة سديد الرأي والموقف عن حكم ودراية .

---

(198) المزهر في علوم اللغة : 305/1.

(199) لسان العرب ، مادة : ولي .

(200) البحث الدلالي في التبيان في تفسير القرآن : 133.

(201) لسان العرب ، مادة : بدد .

شكلت الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان) جزءاً مهماً في التعبير عن آلام الشاعر المخضرم نهشل بن حري فهو دائبٌ في اللوم والعتاب لأبناء مجتمعه في العصر الجاهلي ، فبعد أنْ لامَ (المولى) ابن العم في النص المذكور آنفاً نراه يمعن في لوم السيد المطاع ذي العزة والمكانة المرموقة في قبيلته ، لأن عصيانه وتهوره جعلهم يخوضون حرباً فرقت جمعهم وشتت وحدتهم حين قال :

وذي عـزةٍ أنـذرتـهُ مـن أمـامـهِ

فلما عصـــاني في المضـــاءِ تندَّما

فودَّ بضـــاحي جلـدِهِ لو أطـاعني

إذا زلَّ واعروری بـهِ الأمرُ مُعَّظمـا

وفرقَ بينَ الحيِّ بعـدَ اجتمـاعهم

مشـائيمُ دقُوا بينهم عِطْرَ مَنشِـما (202)

الثنائيات المتضادة هنا اقترانية وإن لم يكن الاقتران ظاهراً على نحو يؤشر في النص ؛ فالمتضادة الأولى (ذي عزة) تقتضي وجود متضادة (ذي ذلة) لكن النص أظهر عبر الإحالة المعنوية نوعاً من التضاد الخفي عبر أسلوبية الفعل عصاني فذي عزة يعصي ومن المحتمل أن يكون ذو ذلة قد أطاعه ؛ وهذا التضاد يشكل محوراً عمودياً لمجرى نشوء التضاد ومزاياه التي صرّح بها النص في الوقت نفسه .

ولعل إخفاء الجزء الثاني من الثنائية المتضادة هو ما زاد من جمالية الأداء الأسلوبي فوضحت كل المعاني الأُخرى الواردة في النص ودلالاتها واستدعى ظلال تلك المعاني على النحو الذي ينشأ معه نوع من الإبداع الذي يستثير المتلقي ويحدث في نفسه نشوة الاستكشاف لعمق تلك المعاني .

وتظهر في النص ثنائية متضادة أُخرى هي (فرق ضد اجتماع) إذ وردت المفردة المتضادة الأولى فعلاً ، في حين أن المتضادة الثانية وردت أسماً مما يدل على أنَّ التفرق أمر عارض يتمنى الشاعر زواله وانكفاءه في حين أن الاجتماع أمر مُتأصل في نفسه لا يمكن أن يزول وإن تغيّرت معادلته ؛ لأنه الثابت في المجتمع العرفي .

---

(202) عشرة شعراء مقلون ، شعره : 128. أعروری ، عُري إلى الشيء عرواً أي حنَّ إليه ، ينظر لسان العرب مادة : عرا .

ويمكن أنْ نسمي هذا الرفض الذي عالجه الشاعر في شعره الجاهلي رفضاً غريزياً ؛ لأن البُنى الموضـــوعية التي يحفل بها شـــعره تنطلق من القبيلة ممثلة إياها ؛ وتعود إليها متمثلة بها .

وبعد سطوع نور الإسلام أصبحت الثنائية المتضادة (الطاعة ضد العصيان) أكثر ارتباطاً بالنص الشـعري الإسـلامي لكونها أصـبحت مفهوماً شـائعاً بحكم تأثر هذه الثنائية المتضـادة بالقرآن الكريم ، فالطاعة لها نتائج وللعصـيان نتائج ومقدمات ؛ وللطاعة فلسـفة عميقة في التشريع الإسلامي ؛ فقد ذهب فريق من العلماء إلى أنَّ الطاعة هي موافقة الإرادة ، وذهب فريق آخر إلى أنَّ الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة [203] ؛ إذ أصبحت الطاعة واجباً بحدود الشرع والتكليف . قال تعالى : **((قُلْ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسول))**[204] . وقوله جلَّ وعلا : **((أطيعوا اللهَ والرســـولَ وأُولي الأمرَ مِنكُم))** [205] وكثير من الآيات الأُخرى دعت إلى إشـاعة ذلك المفهوم قولاً وفعلاً . قال تعالى : **((يا قوُمنا أَجيبوا داعي اللهَ وآمِنوا بهِ يغفر لكم من ذنوبِكُم))** [206] . ثم أنَّ الطاعة أصـبحت ثمناً لمن يريد شـراء الدار الآخرة وخاسـر مَنْ أضـاعها أو لم يعمل لها وفي هذا قال رسـول الله محمد ρ : **((مَنْ خَرَجَ من الطاعة وفارقَ الجماعة فمات مات ميتَةَ جاهلية))** [207] .

ولم تكن طاعة الشـعراء المخضـرمين المسـلمين من غير قناعة ؛ بل هي ناتج طبعي لأشـياء ومفاهيم كثيرة لعل أبرزها ما ورد في نص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشـريفة ؛ إذ أن طاعة الرســـول محمد ρ مقترنة بطاعة الخالق عز وجل فلا تكتمل احداهما إلاّ بالأخرى إذ قال الرسول محمد ρ : **((مَنْ أطاعني فقد أطاعَ الله ومَنْ يعصني فقد عصى الله ومَنْ يطع الأمير فقد أطاعني ومَنْ يعصـــي الأمير فقد عصـــاني))**[208]. فلا غرابة بعد

---

(203) ينظر التفسير الكبير : 143/10.

(204) سورة آل عمران ، من الآية : 32.

(205) سورة النساء ، من الآية : 59.

(206) سورة الأحقاف ، الآية : 31.

(207) صحيح مسلم : 22/6.

(208) المصدر نفسه : 13/1.

ذلك أن يتضجر الشاعر المخضرم كعب بن مالك من عصيان فريق من الناس رسول الله محمد ρ وهو واحد من المأمورين بالطاعة على نحو واضح وصريح إذ قال :

عَصَيتمْ رسولَ الله أفٍ لدينكم
وأمركم السيءْ الذي كانَ غاويا
فإني وإن عنفتموني لقائلٌ
فدى لرسولِ اللهِ أهلي وماليا
أطعناه لم نُعْدِله فينا بغيرهِ
شِهاباً لنا في ظُلمةِ الليلِ هاديا (209)

جاءت الثنائية المتضادة (عصى ضد أطاع) وصفاً لحال المشركين والمسلمين ، فقد ورد تركيب عصيتم مشيراً به إلى الكفار ؛ لأن العصيان في نظر الشاعر وعلى ما أرى هو مخالفة شرعية لا يتغاضى الشاعر عنها ، إذ عنده رسول الله محمد ρ شيء لا يعدله بغيره ؛ لأنه سبيل الهداية والفلاح والفوز ؛ وجاءت كلمة أطعناه وصفاً لحال المسلمين الذين ينتمي إليهم الشاعر ، وقد أدت التراكيب والأساليب والأبنية دورها في حمل هذه المتضادة على نحو فعّال فقد قال الشاعر عصيتم رسول الله ، فصرّح بفاعل الفعل وقال أطعناه وأضمر ضميراً دلَّ عليه ؛ وهو إنكم على الرغم من وضوح النبوة والبينات عصيتم رسول الله ؛ فكان أبلغ لو يصرّح به ها هنا .

ويرى الشاعر المخضرم أُمية بن أبي الصلت أنَّ صغار السن وحدهم يمكن لهم أنْ يتعلموا الطاعة ويستجيبوا لها ويستسيغوها ، أما الكبار في السن فلهم أخلاقهم وانطباعاتهم التي يستحيل تحويرها وتهذيبها حين قال :

إنَّ الغلامَ مطيعٌ مَنْ يؤدبهُ
ولا يطيعكَ كهلٌ حينَ يكتهلُ (210)

وظف الشاعر الثنائيتين المتضادتين (الغلام ضد الكهل) و (مطيع ضد ولا يطيعك) ليظهر من خلالهما رؤيته الفكرية حيال تربية صغار السن الصحيحة ؛ لأن تعليمهم

---

(209) ديوانه : 291 ، ووردت الأبيات منسوبة إلى عبد الله بن رواحة في ديوانه : 109.

(210) أُمية بن أبي الصلت حياته وشعره : 249.

وتأديبهم يكون سهلاً ، أما كبار السن فقد نفى عنهم الطاعة والاستجابة للتعليم ؛ لأن ما جُبلت عليه أخلاقهم يستحيل التهذيب بعدها ، وفي هذا الرأي إجحاف إذ أنه يلغي فائدة التشريع الإسلامي ؛ ويبطل نظم الأخلاق ، صحيحٌ أن تكوين الأخلاق بسبب العادة يكون أكثر صعوبة على الإنسان أنْ يتخلى عنه ، لكن إرادته إذا صادفت ميلاً وإيماناً صادقاً أسرعت إلى العمل وبتكرار العمل تتحقق العادة ويتركز الخلق الجديد وتتحقق الطاعة .

إنَّ الدافع الديني المتمثل في ذات الشاعر المخضرم عبدة بن الطبيب دفعه إلى أنْ يخضع لما خضع له غيره من ضوابط فرضها الوضع العام المتمثل بتعاليم الإسلام القيّمة التي توجه أفرادها إلى السير على هدى المبادىء السامية التي أقرتها الشريعة السمحة والأعراف الاجتماعية ، فضلاً عن الخوف والقلق على الذرية من أنْ تخضع لطاعة صاحب النميمة . لذلك قدم نصحه وإرشاده لأبنائه يدعوهم إلى عدم طاعته ؛ لأن من وراء نصحه مضرة حين قال :

أُوصيكم بتُقى الإله فإنهُ
يعطي الرغائبَ منْ يشاءُ ويمنعُ
وببر والدِكمْ وطاعةِ أمْرهِ
إنَّ الأبرَّ من البنينِ الأطوَعُ
إنَّ الكبيرَ إذا عَصاهُ أُهلُهُ
ضاقت يَداهُ بأمرِهِ ما يَصْنَعُ
ودعوا الضغينةَ ولا تكُن من شأنكم
إنَّ الضغائنَ للقرابةِ تُوضعُ
وأعصوا الذي يزجي النمائمَ بينكُمْ
مُتنصحاً ذاكَ السمامُ المُنَقَعُ (211)

يكشف هذا النص عن صورة مقنعة لمتضادة (الطاعة ضد العصيان) إذ برزت من خلال أسلوب فعلي يشير عبر مزايا تكوينه إلى المتضادة الرئيسة فـ (يعطي ضد يمنع) الإعطاء يحيل على الطاعة ، والمنع يحيل على العصيان وهذه صورة من صور الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين ، إذ تختفي المتضادة الأصلية في بعض الأحيان خلف

---

(211) شعره : 45-46 .

متضادات فرعية ؛ ومع هذا فإن المتضادة الأصلية نلفي حضورها ، فالمفردة الأولى والثانية في الشطر الأول من البيت الثاني والثالث بيد أنَّ المتضادة الفرعية في هذا النص عمقت علاقة التضاد في مظان النص .

ونجد في النص التضاد الأسلوبي الذي ينشأ عن ورود بعض الأساليب على نحو ورود (الأمر والنهي) في سياق نص واحد ، إذ الأمر : هو طلب إحداث الفعل في حين أن النهي هو طلب الكف عن إحداث الفعل ، ويؤشر هذا النمط التضادي في نحو قول الشاعر (دعوا ضد لا تكن) ونجد التضاد حاصلاً ضمن الأسلوب الواحد على نحو ما يؤشر في النص نحو قول الشاعر (دعوا ضد أعصوا) غير أنَّ الذي أسهم في تشكيل التضاد هو القرائن التي صاحبت تلك الأفعال ، ففعل العصيان في قوله (أعصوا الذي يزجي) اقترن بوصف حوّله من مظهره السلبي أودى بالعصيان في نهاية الأمر إلى أن يكون إيجابياً ، إذ هو موجه ضد مَنْ يزجي النمائم ، والنام هو عنصر سلب في التكوين الإجتماعي يُلزم العرف ، والدين عصيانه ؛ وفي ذلك العصيان في الوقت نفسه طاعة للحكمة والرأي السديد في اجتناب ذلك العنصر الذي يبث النمائم ويشيع الخداع ويتصف بالحيلة ؛ لأنه يُشكل مصدر خطر على النسيج الإجتماعي المحكوم بقيم أصيلة صارمة .

ويبدو إنَّ الثنائية المتضادة (العصيان ضد الطاعة) كان لها أثر كبير في توجيه إرادة الشاعر المخضرم المزرد بن ضرار ، فقد كانت المحرّك الأول الذي دفعه إلى أن يكافح الغرائز الشاذة (المتمثلة بالعاذلة الرمز) التي تواجهه ، وبها استطاع أنْ يحصل على التوازن الذي أوجد به ما يروم ودفع به ما يكره حين قال :

وعاذلةٍ عصيتُ فلم أُطعها ... ولكني أقولُ لها دعيني

دعي ما قَدْ علمتُ سأتّقيهِ ... ولكن بالمغيبِ نبئيني

أكلَّ عشية لي منك فنٌ ... كأنك قبلها لم تفقهيني

أسرك في النوائبِ أنْ تُعاني

عـلـى مـا يـعـتـريـك ولا تُـعـيـنـي

فـإنـي لـو تـخـالـفـنـي شـــمـالـي

إذاً لـقـطـعـتُـهـا مـنـي فـبـانـت وجـذِّك مـا وصـــلـتُ بـهـا يمـيـنـي

كـذلـكَ أجـتـوي مَنْ يـجـتـويـنـي (212)

تتجلى الثنائيات المتضادة في نص المزرد بشكل واضح ، وقد ترشح عن نصه ثنائية متضـادة تمثل مفهومي (العصـيان ضـد الطاعة) القائمة بين أنا الشـاعر والآخر المتمثل بالعاذلة وهي متضـادة جسـدتها الألفاظ في (عصـت ضـد لم أطعها) التي ترشـحت عنها ضدية أُخرى هي ضدية (الرفض ضد القبول) التي هي موضوع عام يمكن أن ينطوي تحته كثير من الثنائيات ، ثم تترشح عن النص الثنائية المتضادة (الغياب ضد الحضور)، وهي بمعنى الحضـور والغياب الوجودي التي رفض الشـاعر أن يكون جزءاً منها على نحو غير أساسي .

تترشح عن النص ثنائية متضادة أُخرى هي جزء من الحوار الذي تبناه الشاعر على أسـاس الثنائية المتضـادة (الطاعة ضـد العصـيان) وهي (تُعاني ضـد لا تعيني)، فالآخر يرضـــى لنفســـه أن يلتمس الإعانة لكنه لا يقبل أن يقدمها وهذا نوع من الأنانية التي يرفض الشـاعر قبولها والارتضـاء بها مما يجعله في موقف تأزم حاد يحاول الخلاص منه بالاتكاء على مرجعيات ذاتية إلاّ أنه يتخذ القرار المناسـب في اللحظة الحاسـمة عبر ثنائية (اليمين ضد الشمال) ، فقال : إن شمالي لو خالفتني ويقسم على ذلك ـــ لن تصلها يميني ؛ ورسم الشاعر معادلة تجسدت من خلالها أهم سمات موقفه الذي اتكأ عليه لأجل تحديد موقفه .

تشـتغل آلية الثنائيات المتضـادة على نحو فاعل ومؤثر في المتن الشـعري المخضـرم لإظهار ما قد أخفته الإرادات المتصارعة في الجاهلية على نحو صريح يجبها انتصاراً للإرادة الواحدة المسـتمدة من الإله الواحد ، والمنضـوية تحت لواء الإسـلام بوصـفه معطىً جديداً ومعادلاً موضوعياً في موازنة القيم الحياتية يصـهر ما تبقى منها وتخليصـه من الشوائب بغية

---

(212) ديوانه : 68.

قولبته بقالب جديد تدعمه تعاليم الإســلام ومبادئه ومُثله وســلوكياته ؛ لذلك نجد حســان بن ثابت يجسد إشادته بافتخاره بمن آوى رسول الله محمد ρ حين قال :

وحـامى بنو النَّجـارِ فيـهِ وضـــاربوا

ومــا كــانَ مِنـهُم في اللقــاءِ جزوعُ

أمــامَ رســـولِ اللهِ لا يـخـذلُـونَـهُ

لَـهُمْ نــاصِـــرٌ مِنْ رَبَّهِمْ وَشـــفيـعُ

وَفَوا إذ كفرتم بــا ســـخينَ برَبِكُمْ

ولا يســتوي عبدٌ عصـــى ومُطيعُ (213)

تقبعُ الثنائيات المتضــادة قريباً من حواشــي النص ذات التخوم الأليفة غير الحادة إذ يتجلى في قول الشـاعر (وفوا ضـد كفرتم) فالوفاء يستلزم أسباب الإيفاء به ولعل الوفاء هنا متأتٍ من استجماع أسباب القوة والمنعة على نحو يحمل على الوفاء ويبرُّ به متمثلاً بالطاعة لرســول الله محمد ρ ؛ في حين أن الكفر الذي هو في الحقيقية ليس ضــداً مباشــراً بل هو ضد سياقي إذ يحيل على العصيان وينجم عن الكفر ضَـعفٍ وضُـعْفٍ على السواء فهو إذن ضد بشكل غير مباشر أريد به جعل الصورة أكثر توهجاً واشتعالاً .

وتصـرخ في النص ثنائية (الطاعة ضد العصيان) متمثلة بـــ (عبد عصـى ضد مطيع) وهو تضــاد فيه كثير من التداعيات الدلالية الزاخرة بمدلولات فاعلة ومؤثرة في رســم الصورة وإبداع عنصر المفارقة والدهشة فيها ؛ إذ (عصـى) لا يكون إلاّ فعلاً ناتجاً عن توهم استملاك عناصر القوة مع فراغ تلك الذات العاصية ـ فعلاً ـ منها وصيغة الوصف بالفعل (عصـى) مع تنكير الموصوف أدل دليل على ذلك . وبالمقابل جاء وصف العبد الذي أُخفي لدلالة المذكور عليه بعد حرف العطف بـ (مطيع) ليدل على الثبات وهذه إحدى مرجعيات الوصــف بالاســم وتداعياته ولا يكون الثبات إلاّ ناتجاً عن توافر أســباب القوة على مســتوى الذات بالإيمان بما اعتقدت به وعلى مستوى الخارج بما توافر لها من أسباب تلك القوة ...

---

(213) شرح ديوانه : 314 يا سخين هو يا سخينة وهو نوع من الطعام يتخذ من دقيق وتمر أو ماء يطبخ ثم يؤكل وهو أغلظ من الحساء وأغلظ من العصيدة .

وهذا يقودنا إلى القول بأن الثنائية المتضـــادة (القوة ضـــد الضـــعف) التي أحدث الإســـلام تفســـيراً جديداً لها ، وأوجد فهماً عميقاً لمدياتها قد تآلفت مع ثنائية (الطاعة ضـــد العصيان) فكانتا الفكرة الرئيسة التي وسمت النص الشعري المخضرم.

الفصل الثالث
الثنائيات المتضادة في النواحي الاقتصادية

المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل)
المبحث الثاني: الثنائية المتضادة (الغنى ضد الفقر)
المبحث الثالث: الثنائية المتضادة (القوة ضد الضعف)

المبحث الأول
الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل)

الكرم : هو (الإعطاء بسهولة) [214] والكريم من صفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه والكريم الجامع لأنواع الخير والشـــرف والفضائل [215] .

((والبخل ضـد الكرم)) [216] وهو من الآفات الاقتصـادية والاجتماعية ، لذا أفاض الدكتور طه حسين في الحديث عن بخل العرب وحرصـهم على المال ، واستمد صـورته من القرآن الكريم وتصويره لبخلهم وحبهم للمال [217] .

والشـعر العربي صـوّر البخل ومقته ، وبالمقابل حدثنا تراثنا العربي عن تعلق العرب بالكرم ، وهو واحدة من القيم الخلقية الرفيعة التي ميّزت العرب عن غيرهم من الأمم الأُخرى ، فقد كان للبيئة والظروف المناخية آثار اقتصـــادية واجتماعية وعقائدية قبل ســـطوع نور الإسلام ، إذ ((لم يكن الرجل ليفرط بنفسه وماله لدرجة الاتلاف إلاّ لعقيدة راسخة في نفسه ذات وازع ديني روحي يتصـــل بالمعتقد)) [218] ويذكر ((إنَ بعض العرب اســـتوحى تلك الشـــعائر المتعلقة بآلهتهم ليطبقوها في مجرى حياتهم لينالوا الثناء الذي كان يجزل للآلهة ، عندما يلمسون عطاءها)) [219] .

أما تأثير الظروف المناخية وعلاقتها بالناحية الاقتصـــادية فقد كان إنقطاع المطر وجذب الأرض ذا أثر كبير في ظهور ثنائية (الكرم ضد البخل) إذ إنهم كانوا مضطرين إلى فعل الكرم ؛ لأنَّ أغنياءهم معرضـون جميعاً للفقر وأن فقراءهم عرضـةً للغنى في يوم ما، فلا

---

(214) التعريفات : 123.

(215) ينظر لسان العرب ، مادة : (كرم) .

(216) المصدر نفسه ، مادة : (بخل) .

(217) ينظر في الأدب الجاهلي : 77 .

(218) الملاحم العربية : 295/1.

(219) الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام : 257.

بُدَّ من أن يطلبوا المساعدة من غيرهم فإذا لم يكن لهم فضل على الآخرين لم يلقوا المساعدة من أحد [220] . وقد عبّر عن هذا المعنى الشاعر المخضرم أبو الأسود الدؤلي حين قال :

وإنَّ امرءاَ لا يُرتَجى الخيرُ عنـدَهُ

يَكنْ هيّنـاً ثقِلا على مَنْ يُصـــــاحِـبُ

ولا تَمْنَ َعَنْ ذا حاجـةٍ جاءَ طـالِباً

فـإنـكَ لا تـدري متى أنـتَ راغِـبُ [221]

وهذا مصـــداق قولنا إن ثنائية (الكرم ضـــد البخل) كان انتشـــارها واســـعاً في هذا المضـــمار ولاســـيما إذا علمنا أنَّ نظرية الكرم مبنية على أســـاس الخوف من المجهول الذي تمثله الحاجة الاقتصـــــادية التي دعت العربي إلى العطاء من دون مِنّة ، فإنه لا يعلم متى تأتي به الأيام للســـؤال فكأن هذا الفعل نوع من التوفير يدفع عند الحاجة ، كما أن هذا الفعل جعل الكريم محبوبا من الناس ، لأنه يقضي حوائجهم وينفعهم فيسود بينهم وقد عابَ بعضهم قيس بن عاصـم ((لأنه أوصـى بنيه فكان أكثر وصـيته أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحاً)) [222] . فقد قال عمرو بن احمر الباهلي :

مَتَى تَطْلُـبِ المعروفَ في غَيْرِ أَهْلِـهِ

تَجِـدْ مَطْلَـبَ المَعْروفِ غَيْرَ يَســـيرِ

إذا أنـتَ رَاودت الـبَـخـيـلَ رَددتَـهُ

إلى البُخـلِ واســـتمطرت غَيرَ مَطِيرِ[223]

يميل النص إلى معالجة صـراع بيت متضـادتي (البخل ضـد الكرم) فهو يعبّر عن فقدان العلاقات الاجتماعية والاقتصـــادية في ضـــوء ثنائية (البخل ضـــد الكرم) وقد عبّر الشـاعر عن البخل المطلق في شـخص المهجو من خلال اسـتعماله المتضـادة (اسـتمطرت ضـد غير مطير) لما يحمله المطر من معاني الخصـب والحياة والجود ، وحين منع المهجو

---

(220) ينظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي : 231.

(221) ديوانه : 229.

(222) الأغاني: 110/12 .

(223) شـــعره: 116 ، اســـتمطرت غير مطير : طلبت المعروف من شـــحيح بخيل ، المعروف : الخير والندى والجود ، وينظر مثل ذلك ديوان أبي الأسود الدؤلي : 149.

المحتاجين من المال ماثل في حقيقته امتناع سقوط المطر ، إذ يصبح المطر رمزاً للكرم والعطاء عند الشاعر ، فتأكيد الصفة السلبية للبخل في شخص المهجو زادت من إحساس الشاعر بالامتعاض والحزن من فعله ، ثم تحولت القضية إلى تحذير الآخرين منه، لأنَّ ذلك يخالف نظرية الكرم التي اعتادتها البشرية في المجتمع الصحراوي ، التي بحدوثها يتحقق أكبر قدر من السعادة الممكنة ، غير أنَّ المهجو غير قادر على الوصول إلى هذه الصفة الإيجابية وبذلك يكون الشاعر قد شخّص الصفة السلبية وحاول تجاوزها .

وقد أدى إهتمامهم الكبير من الكرم إلى تقسيمه إلى ثلاث مراتب فقالوا ((مراتب السخاء ثلاثة : سخاءٌ ، وجود، وإيثارٌ ، فالسخاءُ إعطاء الأقل وإمساك الأكثر ، والجود إعطاء الأكثر وإمساك الأقل ، والإيثار إعطاء الكل من غير إمساك بشيء ، وهو أشرف درجات الكرم)) [224] .

وقد تفنن الشعراء المخضرمون في تشخيص صورة الكرم والكرماء وتحبيبها إلى نفوس الناس وتشجيعهم لها وفي مقابل ذلك قبحوا صورة البخل من أجل إجتنابها وعدوه لؤماً وذموا من سلكه وصوروا أدق الخلجات النفسية للبخيل وقد دفعهم إلى ذلك ميلهم الوراثي للجود [225] ، إذ لا ريب أنهم لم يأتلفوا على البخل إذ أننا نلحظ تحول نظرتهم للبخيل ودهشتهم منه إلى حقد عليه وقد كان هذا التصادم الحاصل بين مقومات الحياة في العصر الجاهلي وعناصر مجتمعهم (القبائل) التي يتألف منها كيانهم الاجتماعي والاقتصادي إذ أنَّ رأس المال يجتمع ويتركز عند فئةٍ معينة من الأفراد (رؤساء القبائل والسادة) ، وهي الفئة المسيّرة للفعاليات الاقتصادية في الكيان الاجتماعي فكان لا بد من حصول تصادم بين تلك الكيانات الاقتصادية والاجتماعية ، وكان لا بد أن يأخذ هذا الصراع والإصطدام شكل المقاومة ضمن حدود التعبير الشعوري الناقد ثم ينتقل إلى النشاط الفكري الشامل الذي يمهد دائماً بتحاليله وتخطيطاته إلى المجابهة ، وقد جاء شعر الشعراء المخضرمين ليمثل مرحلة المقاومة (

---

(224) نهاية الأرب : 204/3.

(225) ينظر على سبيل المثال ديوان ابن مقبل : 45، وديوان أبي الأسود الدؤلي : 193، 200، 248، وديوان سويد بن أبي كاهل : 27، وديوان معن بن أوس المزني : 43، 80، 95، 96، وشرح ديوان حسان بن ثابت :207، 233، 238، 301، وديوان الحطيأة : 161 ، ومالك وتميم أبنا نويرة اليربوعي : 107.

مرحلة التعبير الشعوري الناقد) ... فقد كانت مراعاة أصول الضيافة والكرم من تلك المُثل العربية القديمة التي يعتز بها العرب إعتزازاً كبيراً منذ الجاهلية ، إذ نراه يُكثر من مشاهد تشخيص القيم الإنسانية الرفيعة التي لا يتنازل عنها ولاسيما العربي في أقسى الأحوال واشد الظروف اعتباراً لما ربيَّ عليه ذوقه ونفسه بحيث لا يسمح بأي مسٍّ مهما كانت طبيعته ومصدره ؛ لأنها تعني وجوده كله فلا يرتضي فيه وعليه المنازعة أو التخلي ، لذا نرى الشاعر المخضرم خفاف بن ندبة يفخر بقومه في الجاهلية في أثناء تأبينه صخرا ومعاوية ابني عمرو بن الشريد في قوله:

فَلَمْ أَرَ مِثلَهُمْ حَياً لقاحا

أقاموا بين قاضيةٍ وحِجْرِ

أَشدُّ على صروفِ الدَهرِ إدّاً

وأمرَ منهمُ فيها بِصَبرِ

وأكرمَ حينَ ضَنَّ الناسُ خيماً

وأحمدَ شيمةً ونشيلَ قدرِ (226)

ولعل من مظاهر الإنتماء إلى الجماعة البشرية الفخر بها وبما تنجز ، وما تتصف به ، وما يوغل فيها من محاسن ومآثر ، لأن الإنتماء علاقة جدلية بين الفرد والجماعة ، ولعل السجايا هي أحد مكونات أمجاد الجماعة البشرية ومآثرها . لذا فقد أورد الشاعر الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل) على نحو ما ورد في قوله (وأَكرم حين ضن) إذ جعل الكرم بالضد من الضن الذي هو أشدُّ من البخل ليؤكد تفوقه وجماعته بإظهار الكرم قولاً وفعلاً ، وفي الوقت نفسه يؤكد ضن الناس أي بخلهم الشديد الذي يقابل كرم الشاعر وقومه المفرط ، لذلك أظهرت الثنائية المتضادة (الكرم ضد البخل) القيم الإيجابية والقيم السلبية من اجل تعزيز الأُولى وتثبيتها وإجهاض الثانية ونفيها ، لأن ذلك يمثل محور وجوده الإنساني والاجتماعي .

والكرم نوع من أنواع المعروف ، مذاقه حلو وبالضد منه البخل مُرْ المذاق ، لكنه في بعض الأحيان يحوي الخير والعز والمنعة كلها ولاسيما إذا وضع في موضعه الصحيح وإلاّ

---

(226) شعراء إسلاميون ، شعره: 473–474، قوم لقاح وحي لقاح لم يصبهم في الجاهلية سبأ ، الحِجر : اسم موضع ، الخيم الشيمة والسجية والطبيعة ، ونشل يقال انتشلت من القدر نشيلاً فأكلته.

تحول على يد اللؤماء إلى سبة وعار ومنقصة تلحق بالكريم أبد الدهر، فثنائية (الكرم ضد البخل) تتطابق مع ثنائية (العطاء ضد المنع) لأنَّ الشاعر يكون بخيلاً مانعاً عندما ينشد السمو والرفعة بحفاظه على شرفه وصون عرضه من الدنس والمنقصة، في حين أن العطاء والكرم في هذا المجال لا يكسبانه إلاّ ما يذله ويشينه ويفقدهُ جوهر وجوده وفي ذلك يقول معن بن أوس المزني :

أَمِرٌّ وأُحلي والحياءُ خليقتي

ولا خَيْرَ في مَنْ لا يُمِرُ ولا يُحْلي

أَجودُ بمالي دونَ عرضي وَمَنْ يُرِد

رَزيّة عرضي يعْترضْ دُونَهُ بُخْلي

00000000

وإني أخوهم عندَ كل مُلِمَّةٍ

إذا مِتُّ لم يَلقُوا أخاً لَهُمُ عِدْلي

تجُودُ لَهُمُ كفّي بما مَلَكتْ يَدي

وقُمت بلا فُحشٍ عليهمْ ولا بُخلِ[227]

البحث عن القيم في مجتمع صحراوي مجدب لا يحدُ تخومه حد على مدى النظر لذلك يلوذ الإنسان بحمى الذب عن القيم التي هي فطرته وأساس وجوده ، وجوهر كيانه بوصفه منتمياً إلى هذا الحيز المقفر ، لذلك يجد الضدية ويوجد بها نوعاً من التقاطب الاجتماعي والنفسي لأجل التشبث بأسباب الحياة ، فالأضداد كـ (أمر ضد لا يمر) و(أحلي ضد لا يحلي) هي من باب أضداد السلب ، استطاع الشاعر أنْ يعبّر بها عن شمولية المعنى لديه ، فقد تعامد فعلاً المضارع على تلك الضدية مما أضفى عليها نوعاً من الحضور المعنوي المستمر المتناغم مع حركة المجتمع عبر لا زمن محدد ، إنما يتمتع بإطلاق نسبي نوعاً ما ... ثم نلفي الضدية الأُخرى ذات قطبين مختلفين بنائياً هما (أجود ضد بخلي) إذ يوحي (أجود) ببنائه الفعلي باستمرارية ذات بعد اجتماعي نفسي على نحوٍ واضح من التحدي ، لأن المال عند المجتمع القبلي في كل زمان يدفع إلى أن يوقع المرء

---

(227) ديوانه : 95–96، وينظر مثل ذلك شعر عمرو بن احمر الباهلي : 116 ، وشرح ديوان الخنساء: 227 ، وشرح ديوان حسان بن ثابت : 182.

بأخيه ، غير أنَّ الشاعر يفرط به ، على الرغم من كون المال أحد أسباب العز والمنعة في ذلك المجتمع ـــ من أجل أن يحمي عرضه إلاّ أنه يُجابه بصوت يقبع في داخله يحاول قمع رغبته في فقدان أحد أهم أسباب الشرف والرفعة ، وهو يضحي به ويعرض على ذلك الصوت المشتعل بالخوف من المجهول المتراكم على حواشي حياة الفرد المتصحرة في مسافات جغرافية زمنية ليس التفكير بالخلاص منها بأهون وأقل ثمناً من السكوت فيها.

والملاحظ أنَّ توالج الأضداد في هذا النص بين الأفعال والأسماء قد شكل كوناً متناقضاً حمل جدل الواقع والذات في صراعها مع الحياة وذلك عبر نسيج النص وبناءه الموسيقي .

كثيراً ما تعرض الشعراء المخضرمون إلى اللوم على الكرم ، ولاسيما لوم الزوجات لأَزواجهنَّ [228] . فقد كُنَّ يكثرن من اللوم خشية الإملاق ، وقد أظهر الشعراء تمسكهم بسجية الكرم ، لأنهم تربوا ونشأوا عليها ((والشعراء يصرون على إن ظاهرة اللوم هذه لم تكن في محلها مهما كانت الدوافع ، ويؤكدون استمرارهم على السلوك الذي ليموا عليه غير آبهين بما يقال لهم)) [229] . فهذا حُميد بن ثور الهلالي قد قال :

لقد أَمرتْ بالبخلِ أُم مَحمّدٍ
فقلتُ لها حثي على البُخلِ أَحمدا
فإني امرُؤٌ عَوَّدت نفسي عادةً
وكلُّ أُمرى جارٍ على ما تعودا [230]

إنَّ الكشف عن المتضادات يجعلنا دوماً في حالة انشداد وتفاعل مع ما هو متوقع . فذكر اللفظة يستدعي إلى الذهن استحضار ضدها ، وهذا الأمر يقود في نهاية المطاف إلى الكشف عن معنى المعنى الذي عناه الشاعر . فهو يتوسل في تصوير بخل زوجه إلى إبراز صورة الكرم عنده ، فالشاعر غالباً ما يجعل من ((لوحة المحاورة مع العاذلة منفذاً ميسوراً

---

(228) ينظر على سبيل المثال : ديوان حُميد بن ثور : 76، وشرح ديوان لبيد: 246، وديوان معن ابن أوس : 80، وشعراء إسلاميون ، شعر النمر بن تولب : 392، وشعر خفاف بن ندبة: 491، وشعر ربيعة بن مقروم : 275، 281، وأُسد الغابة : 185/4 قطعة للشاعر المخضرم عمرو بن الاهتم المنقري ، وشعر النابغة الجعدي : 226 ، وشعر عمرو بن شأس: 41.

(229) لمحات من الشعر القصصي في الأدب العربي : 37.

(230) ديوانه : 76.

ليتيح له هذا الزخم النفسي العنيف ، فإذا فرغ من محاورتها لم يجد إلاّ المسلك التقريري يسرد فيه ما مارسه من موقف العطاء دون إلحاح)) [231] .

وقد حفلت أشعار الشعراء المخضرمين في العصر الإسلامي بكثير من صور الكرم التقليدية جرياً على عادتهم التي أعتادوها قبله لكنها اتجهت في الإطار الإســـلامي لتحقيق رضـاء الله وكسـب الآخرة [232] ، فالمتصـف بهذا الخلق العظيم يحوز على سـعادة الدارين ، فعن أَبي هريرة τ عن النبي محمد ρ أنَّهُ قال : ((السخي قريب من الله، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، قريب من النار، وجاهلٌ ســـخي ، أحبُّ إلى الله من عالم بخيل)) [233] . وقد قرن الإســـلام بين الجود بالروح والمال في كثير من آياتـه ، حتى إنـه قدم الجود بـالمـال على الجود بـالنفس ، قـال تعـالى : **((الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَـــبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـــهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ))** [234] .

إن تأكيد الإسـلام أهمية الكرم واحيائه لها واسـتمرارهُ واجب قرن بالإيمان بالله سـبحانه وتعالى فقد قال النبي محمد ρ ((مَنْ كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه)) [235].

وكما رأينا أن القرآن الكريم ألح في مدح صـفة الكرم وتحبيبها وتقريبها من المسـلمين المؤمنين فإنه ألحَّ كذلك في ذم البخل فقد عدَّهُ من أمراض الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية وطالب بمعالجتها . قال تعالى : **((وَلاَ يَحْسَـــبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ))** [236] . وقال النبي محمد ρ ((خصـــلتان لا تجتمعان في

---

(231) الإنسان في الشعر العربي قبل الإسلام : 211.

(232) ينظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول : 446 .

(233) سنن الترمذي : 342/4، وينظرالتاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ρ : 67/5.

(234) سورة التوبة ، الآية : 20،وينظر مثل ذلك سورة البقرة :261، وسورة الحديد: 10،و سورة الصف: 11.

(235) صحيح مسلم : 49/1-50.

(236) سورة آل عمران ، الآية : 180.

مؤمن البخل وسوء الخلق)) [237] فلا غرابة إذن حينما نجد أغلب الشعراء المخضرمين في العصر الإسلامي يصرحون بزوال المال ويقرون ببذل المعروف ومساعدة المحتاجين من المساكين والفقراء على الرغم من لوم لعواذل ((لأنهم لن يموتوا جوعاً ، ولآن المال الذي يخلفونه سيرثه غيرهم ـــ ثم هم سيموتون وخير لهم أن يخلفوا ذكراً طيباً)) [238] وحينما يرى الشاعر عاذلته لا تتقي الزجر والنهي يلجأ إلى التذكير بمصير الإنسان وذكره الذي يبقى خالداً بعده ، وذلك ما وجدناه في قول معين بن أوس المزني حين قال :

وعاذِلةٍ هَبَّتْ بليلٍ تَلومني ... وقد غابَ عَيوقُ الثُّريا فَعَرَّدَا

تأوَبَني هَمٌّ فبتُّ مُسهَّداً ... وباتَ الخَليُّ الناعِمُ البال أرقَدَا

0000000

تلومُ على إعطائي المالَ ضَلّة ... إذا جَمَعَ المالَ البخيلُ وَعَدَدا

أعاذّل باللهِ الذي عند بيتهِ ... مَصَلًّى لِمن وأفى مُهِلاً وَلَبَّدا

أريني جواداً ماتَ هُزلاً لعلَّني ... أرى ما ترين أو بخيلاً تَخلَّدَا

تكونين أهدى للسبيلِ الذي بهِ ... يوافقُ أهلَ الحقِّ مني وأقصدا

فإني أرى ما لا ترينَ وإنَّني ... رأيتُ المنايا قَدْ أصابتْ مُحَمَدا [239]

شكلت قيم (الكرم ضد البخل) ثنائية متضادة فعّالة مثلت بؤرة إلتآم ، لجميع ما يترتب عليها من موقف ، إذ أنها أخذت تصنع تاريخاً حافلاً بالمآثر ، فقد غدا الشاعر ((يقارن بين ثنائيات متناقضة واضحة التناقض ليقف بإصرار ووضوح مع الجانب الإسلامي منها)) [240] . لذلك عمد الشاعر إلى ذود تلك العاذلة بكل قواه فما كاد يسمع لومها حتى

---

(237) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسولρ : 41/5.

(238) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : 232.

(239) ديوانه : 79–80 ، وقد ورد البيت الأول والخامس في ديوان شعر حاتم : 229و230 ، وقد ضمنها معن بن أوس في شعره لحاجة القصيدة إلى ذلك . تأوبني : أتاني ليلاً ، مسهداً من السهاد وهو السهر ، الخلي : الذي لا همَّ له .

(240) أثر الإسلام في شعر معن بن أوس المزني : 450.

اعتراه الأرق ، وظل خليله خالي البال (أرقدا) ، وهنا تتشـــكل ثنائية متضـــادة أُخرى بين (الســـهاد ضـــد أرقدا) فهما وإن كانا غريزتين غير أنهما تعبّران عن فضـــائين من الصـــحو المزمن الذي يستحيل مرضـاً يقضُّ المضـاجع وليس هناك مهرب منه ، بقصـد دخول عالم الخلود الكامن في كثير من تلك القيم ، فالســـهاد نتيجة لحالٍ من الإنتظار والترقب والقلق والضـــياع ، وإغتراب قد لا يظهر ولا يفصـــح عن نفســـه إنما يبقى في طيات الوجدان وزوايا النفس مكتوماً مُتداعياً ، والرقاد نتيجة لحالة الشـــعور بالأمن والخير ، والمحبة والإخلاص والتضحية التي تفرض على الإنسان مسؤوليات جمّة قد يتحملها أو لا يتحملها .

ونجد الثنائيتين المتضـادتين صـارختين بين (جواد ضـد بخيل) و(مات ضـد أخلد) فالجواد لا يموت والبخيل لا يخلد ، لأن الجود بوصـــفه قيمة أخلاقية تختزل شـــريط الزمن وتفضي إلى باحة واسعة تتشظى فيها مداخل عديدة يمكن أن يضع الإنسان كيانه في أحدها ، وكلها يمر بخط الكمال والنضج .

والكرم يجب أنْ لا يتحدد بالجانب المادي فقط ، كما يحصـــره المعنى اللغوي ، وإنما يفترض تجاوزه إلى الجانب المعنوي كالمشـــاركة الوجدانية التي أجراها ربيعة بن مقروم بين البخيل والكريم حين قال :

وإنْ تســـــألـيـنـي فـإنـي امـرؤٌ

أهـيـن الـلـئـيـمَ وأحـبُـو الـكـريـمـا

0000000

ويـحـمـدُ بـذلـي لـهُ مُـعـتـف

إذا ذمَّ مَـنْ يـعـتـفـيـهِ الـلـئـيـمـا

0000000

وقـومـي فـإن أنـتِ كـذَّبـتـنـي

بـقـولـي فـأســـــأل بـقـومـي عَـلـيـمـا

ألـيســـــوا الـذيـنَ إذا ازمَـة

أَلحَّـتْ على النـاسِ تُنْسِـــي الحُلومـا

يُـهـيـنـونَ فـي الـحـقِّ أمـوالـهـم

إذا اللزَبَـاتُ التحَيْنَ المُســـيمـا [241]

فتح السـؤال المقرون بالشـرط في بدء اللوحة الشـعرية باباً واسـعاً لإجراء المقارنة في المفارقة التي يقدمها الشـاعر بين نمطين من القيم أو صـفتين ليسـتا مقترنتين بزمن معين بل هما مما يلازم الإنسـان ملازمة شـبه مطلقة إذ قدم الشـاعر عبر صـراحة الأضـداد موقفه الحازم من لئام الناس وكرامهم وهذا تضـاد أيضـاً بين (اللئيم ضـد الكريم) وهو من التضـاد الفعلي الإسمي إذ صدر البيت الشعري فعل يتمثل في الثنائية المتضادة (أهين ضد أحبو) وعجزه اسم (لئيم ضد كريم) ثم إنَّ مجمل هذا النص داخل بقوة في ظلال الفعل وليس القول ، لأن الشاعر بصدد الفخر بنفسه وتعداد مناقبه . ونجد التضاد الفعلي في قوله (يحمد ضد يذم) ؛ لأنَّ الحمد من قبيل المدح فيصـح التضـاد ، وإن لم يكن بلفظه ، ثم أن الحمد متجه نحو أمرٍ يكاد الشاعر لا يغادره ولا يتخلى عنه بوصفه موقفاً ومبدأً ممتدين عبر كل ما يقرب الناس ، ويدعوهم إلى اتخاذ المعايير الصحيحة في فهم مبادىء الإسلام الصادقة وتبنيها .

ومن دواعي الكرم والجود في شـعر الشـعراء المخضـرمين الإسـلامي قوة الإيمان بالله سـبحانه وتعالى ذلك أن العبد إذا اعتقد بالله خيراً أنفق ما عنده احتسـاباً لما عند الله سـبحانه وتعالى وقد عالج هذه الفكرة لبيد بن ربيعة في قوله :

تَلومُ على الإهلاكِ في غَيْر ضَـــلَّـةٍ

وهَلْ لي مـا أمســـكـتُ إن كنـتُ بـاخِلا

رأيــتُ التُقى والحَمْـد خَيْرَ تجــارةٍ

رباحاً إذا ما المرءُ أَصْـــبَحَ ثاقلا [242]

الملاحظ في النص بروز خاصـية التضـاد، فالإهلاك يقتضـي الكرم الذي هو نقيض البخل فالثنائية المتضـادة (الإهلاك ضـد باخِلا) تظهر أن المال الذي لن ينفقه صـاحبه في طريق الخير سـيكون بعده لوارثه ، أما المال الذي بذله في حياته فهو من نصـيبه ، لذا نجد الشاعر يحث على إنفاقه في طريق الخير عملاً بمبادىء الدين الإسلامي فهو التجارة الرابحة . قال تعالى : **((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ))**

---

(241) شعراء إسلاميون ، شعره : 281–282.

(242) شرح ديوانه : 246 ، ثاقلاً : ميتاً .

[243] . ومن هنا يتضح لنا علم الشاعر وإيمانه المطلق بأن الموت لاحق به وما عند الله من جزاء خير وأبقى للذين آمنوا .

وقد جرت العادة في فن المديح أن يُمدح المرء إذا اتصف بالجود إلاّ إنَّ حسانا بن ثابت هجا أبا جهل على الرغم مما اتصف به من صفة الكرم التي تسبغ على صاحبها الهيبة والوقار ، وذلك لإبتعاده عن طريق الحق ومناوَءته الإسلام فقال :

وإن تك مطعامُ العشيات من غنى

فإنكَ حيّادٌ عن الحقِ مانعُ

وزادكَ ذم في الحياةِ وإن تَمُتْ

فحظكَ ركنٌ من جهنمَ واسعُ [244]

يركز الشاعر في هجائه على المقابلة ليكشف من خلالها منزلة المهجو الوضيعة، على الرغم من أنَّ أبا جهل هذا كان يتمتع بمنزلة رفيعة في قريش لما عرف عنه من السخاء في الجاهلية [245] . إلاّ إنَّ سخاءهُ لم ينفعهُ ، لأن إظهار الحق الذي يمنعه المهجو أولى من كل القيم لأنها منبع الخير كله ، وهي التي تأخذ بالإنسان نحو مدارج السمو والرفعة والكمال .

---

[243] سورة الصف ، الآيتان : 10و 11.

[244] ديوانه : 263 .

[245] ينظر المحبر : 140.

المبحث الثاني
الثنائية المتضادة (الغنى ضد الفقر)

الفقر والغنى معنيان متضـــادان ، والفقر هو ((الحاجة وفعلهُ الإفتقار والنعت فقير))[246] والله سبحانه جعل الفقر عاماً في الناس في قوله : **((يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ))** [247] . والدين الإسلامي فرض للفقراء المساكين أموالاً على الأغنياء لقوله تعالى: **((إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ))** [248] .

والغنى هو الإســتغناء ، وقد جاء في اللســان ((أغنى الله الرجل أي صــار له مال))[249] ، والغني هو الله سـبحانه وتعالى فهو لا يحتاج إلى أحد ، وكل الناس يحتاجون إليه فقد قال تعالى : **((وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ))** [250] . وهذا هو الغنى المطلق فالله لا يشاركه فيه غيره .

وحين جاء الإســلام إســتحدث معنىً جديداً للفقر والغنى وهو فقر النفس وهو الشـرَّه المعنى بقول النبي محمد ρ ((ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس))[251].

ولا شــك في أنَّ ثنائية الفقر والغنى هي صــورة من صــور المشــكلة الاقتصــادية والاجتماعية ، فقد كان كثير من الشــعراء المخضــرمين في العصــر الجاهلي يفرغون في الشــعر روح التذمر الاقتصــادي والاجتماعي نتيجة للمضــايقة التي لحقت بأبناء المجتمع الجاهلي بســبب التقســيم الطبقي الذي لحق به حيث لم يكن طبقة واحدة متســاوية الحقوق والواجبات ، بل كان عبارة عن طبقتين متفاوتتين طبقة الأغنياء التي تتمثل بالسادة والأشراف

---

(246) اللسان ، مادة (فقر) .

(247) سورة فاطر ، الآية : 15.

(248) سورة التوبة ، الآية : 60.

(249) اللسان ، مادة (غنى) .

(250) سورة التغابن ، الآية : 6.

(251) صحيح البخاري : 80/8.

، وطبقة عامة تتمثل بأبناء القبيلة والموالي والعبيد التي كان من نتائجها الطبيعيـــــة ظهور الصعلكة التي تعني الفقر [252] ، والصعلوك هو ((الفقير الذي لا مال له))[253] .

أما الدلالة اللغوية للصـــعلوك فتعني ((الضـــمور والانجراد فكأنَّ الفقر الذي يجرد الإنســـان الفقير من ماله ويظهره ضـــامراً هزيلاً بين الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وســمنهم)) [254] . لذا كان وعي الشــعراء المخضــرمين للنواحي الاقتصــادية في الجاهلية واضحاً ومحدداً تجاه الوضع المالي وما لحق به من قصور ، فمن خلال النصوص الشعرية التي بين أيدينا نرى أن الشـــعراء كانوا يدركون أثر المال في خلق ذلك التفاوت الطبقي ، ويدركون أثره في تســوية الخلافات الاجتماعية ، فقد كان الشــاعر المخضــرم في الجاهلية يدرك نظرة المجتمع إلى الغني والفقير إذ أنهم كانوا يمدحون الغني لغناه ، ويذمون الفقير لفقره [255] ، وقد عبّر عن هذا المعنى النمر بن تولب فقد قال :

أَرى النــاسَ قــد أحــدثوا شـــيمــةً وفـــي كـــلِ حـــادثـــة يـــؤتـــمـــرْ

يـهـيـنـونَ مَـنْ حـقـروا ســـيـبـهُ وإن كـــانَ فـيـهـم يَـفـي أو يَـبـرْ

ويـعـجـبـهـم مَـنْ رأوا عـنـدَهُ ســـواماً وإن كـان فـيـهِ الـغَـمـرْ

أَلا يـا لـذا الـنـاسِ لـو يـعـلـمـو نَ لـلـخـيـرِ خـيـر ولـلـشـــرِ شـــرْ

فـيـومٌ عـلـيـنـا ويـومٌ لـنـا ويـومٌ نُسـاءُ ويـومٌ نُسَـرْ [256]

---

(252) ينظر: جمهرة اللغة : 383/3.

(253) الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي : 19.

(254) المصدر نفسه : 20-21.

(255) وبالضد من هذه النظرة ثمة نظرة أُخرى إزاء المال تقلل من شأنه فلا تجعله سبباً في رفع الناس أو الحط من شأنهم فالمخبل السعدي يرى أن الغنى لا يسود الرجل اللئيم البخيل ولا يرفع من شأنه ، فكم من غني مات وهو مذموم ، وكم من فقير مات وهو محمود السـيرة ، ينظر عشـرة شـعراء مقلون ، شعره : 77.

(256) شـعراء إسـلاميون ، شـعره: 346، الشـيمة: الخلق يُريد أحدثوا أخلاقاً لم تعرف من قبل ، يؤتمر: يحدث التشاور وتداول الآراء ، السوام والسائم : المال ، والغمر : الدنس والخلق المكروه.

أفاد الشـــاعر من المشـــاهدة العيانية (أرى الناس) في التعبير عن الآثار النفســـية الواقعة على الفقير الذي قلَّ ماله من جراء امتهان الناس له على الرغم من محامد أخلاقه، وهم في ذات الوقت يكرمون الغني الذي كثر ماله وإن كانت أخلاقه ذميمة .

وقد مثلت إهانة الفقير مصـــدر إثارة للشـــاعر للتعبير عن مســـعاه في إدانة الواقع الاجتماعي المحيط به وتنطوي هذه الإدانة على بيان الآثار السيئة للفقر التي تنال من كرامة الفقير وتقلل من شأنه أو تحجم نشاطه الاجتماعي بلا سبب أخلاقي يدفع الآخرين إلى ذلك ، وفي هذا الفعل إســـتلاب لقيمة الفقير الاجتماعية بوصـــفه إنســـاناً له الحق في التفاعل الاجتماعي معهم .

ومن أجل تعميق أثر إدانة الشاعر لطبيعة التعامل الاجتماعي مع الفقير يعقد مقارنة بين ثنائية (يهينون مَنْ حقروا سَيْبَهُ ضد يعجبهم مَنْ رأوا عنده سواما) فالمتضادة في الطرف الأول يراد بها الفقير الذي قلَّ ماله فأضـطهد ورفض اجتماعياً ، أما الطرف الثاني فالمراد به الغني الذي كثر ماله وقُبِلَ اجتماعياً ، وقد اسـتطاع الشـاعر أن يسـتغل الطاقة الدلالية لهذه المقابلـة بين الطرفين ليظهر من خلالهـا مقدار إنحيـاز المجتمع إلى الطرف الثـاني دون الطرف الأول على الرغم من إن الغني لا يســتحق مثل هذه الحفاوة والتقدير ، وإنما حصــل على ذلك بواسطة غناه ، فمكانته إذن مكانة مكتسبة وليست طبيعية نابعة من محامد أخلاقه .

ولا يخفي الشاعر سخريته من هذا النوع من التقويم غير المنصف للفقير ، أو رفضه له ، وقد عبّر عن ذلك من خلال استعماله الثنائيات المتضادة (الخير ضد الشر) و(علينا ضد لنا) و(نُساء ضد نُسر) وهذه الثنائيات فرضت على المتلقي نوعاً من اليقظة والانتباه لما ســـيؤول إليه واقع الحال فيما بعد ، فالدنيا متقلبة لا تبقى على حال وهي كما قال الإمام علي (عليه السلام) ((الدهر يومان يومٌ لكَ ويومُ عليك)) [257] .

ويذهب الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة [258] إلى ما ذهب إليه النمر بن تولب في بيان أثر العامل الاقتصادي في نفوس الجاهليين ، إذ إن للعامل الاقتصادي الأثر الأكبر في

---

(257) نهج البلاغة : 94/4.

(258) هو سهم بن حنظلة ، أحد بني غني بن أعصر ، فارس مشهور وشاعر محسن مخضرم ، ينظر الأصمعيات : 53.

ظهور الثنائيات المتضادة سلباً أو إيجاباً ، فإذا أيسر الصديق وجد ما لا يُحصى من الأصدقاء وإذا أعسر نأوا عنه وتركوه وحيداً فقال :

إذا افتقرت نأى واشتد جانِبهُ

وإن رآكَ غنياً لانَ واقتربا

وذو القَرابة عندَ النَّيلِ يَطلبهُ

وَهوَ البعيدُ إذا ما جئتَ مُطَّلِبا (259)

النص عبارة عن موجة عاتية من الثنائيات المتضادة (افتقرت ضد غنياً) و(نأى ضد أقترب) و(أشتد ضد لانَ) و(القرابة ضد البعيد) وكأنَّ الشاعر استسلم بكليته لنوبة صارخة نتيجة حدة الصراع المزمن لديه ، فهو لا يكاد يخرج من ثنائية حتى يدخل في أُخرى ، وكأن الفقر والغنى يصطرعان في كل لحظة أمام عينيه وفي ذاته مما جعل الشاعر يخرج من وقاره الهادىء ... ويسلم نفسه لنبرة عالية لعله يدفع بها بعض آثار ذلك الصراع الذي أدى إلى انتشار ظاهرة النفاق وهي من القيم السلبية التي ينصح الشاعر بالابتعاد عنها .

وقد أظهرت الثنائيات المتضادة معاناة الشعراء الفقراء من مضاضة الجوع وصبرهم عليه (260) ؛ لذا نصح النمر بن تولب الفقراء في الخروج إلى الغارة لينالوا الغنى الذي يكسبهم الإحترام والهيبة ويبعدهم عن حياة الذل والهوان الذي لحق بهم من جراء الفقر فقال :

خاطِرْ بنفسكَ كي تصيب غنيمةٌ

إنَّ الجلوسَ مع العيالِ قبيحُ

فالمالُ فيهِ تجلةٌ ومهابةٌ

والفقرُ فيهِ مذلةً وقبوحُ(261)

على شاكلة نص الشاعر النمر بن تولب الآنف الذكر ، يتجه هذا النص إلى لغة تحريضية تدعو إلى المخاطرة بالنفس من أجل تحقيق الغنى والإجهاز على الفقر لأنهما ضدان يشكلان أخطر محاور صراع الخليقة على الإطلاق غير أنَّ الشاعر عبّر عن الضد

---

(259) الأصمعيات : 53–54، يقرب منك إذا رغب في نيلك وعطاءك ، وإذا طلبت منه شيئاً نأى عنك.

(260) ينظر ديوان الهذليين ، شعر أبي خراش الهذلي : 2/127–128.

(261) شعراء إسلاميون ، شعره: 340 ، القبوح : مصدر كالقبُح ضد الحسن .

الأول بلازمة من لوازمه وهي (المال) التي تعني الغنى الذي هو ضـــد الفقر ، وكل منهما تعلقت به في نظر الشاعر وخلاصة تجربته جملة من الصفات التي تستلزم مقارعة (الفقر) وطلب (الغنى) ، لأن فيه (تجلة ومهابة) وفي ضـــده الفقر (مذلة وقبوح) وهما مما تأباه النفس البشرية وتتنأى جهد المستطاع عنه ، لأنه يمثل رمز الضعف والقهر في معادلة لا خيار فيها سوى القوة .

ويبدو من خلال ما عرضــناه وقدمناه من نصــوص جاهلية ، وما بثه الشــعراء من عاطفة طافحة بالألم في الثنائيات المتضــادة التي كشـفت عَمَّا حلَّ بالمجتمع من خلل تردت فيه العلاقات الاجتماعية بســـبب تفاوت الحالة الاجتماعية ، التي تمثلت في ظلم أبناء المجتمع وقسوتهم ووقوفهم بجانب الغني ، فمن كثرَ ماله يجد أكثر الناس حوله ، ومن تنوبه النوائب ويقل ماله لا يجد مسعفاً له أو نصيراً ، وهذا لا يعني مطلقاً فقدان الخير في المجتمع الجاهلي ، إنما يصور جانباً بارزاً لدى طائفة منه .

وحينما ظهر الإســـلام أحدث تغييرات على المســـتوى الفكري الأيدلوجي والاعتقادي بمكان لم يستطع الشعر وهو مرآة الحياة أنْ يتجاوزها بل حفل بها نتيجة ما رسخ في ضمائر الشــعراء واعتقدته ألبابهم فضــجت نصــوصــهم الشــعرية بألوان من الثنائيات المتضــادة التي انعكست من خلالها القيم الروحية الجديدة المتجلية في وضوح المشهد المتجسد عند الشاعر المخضرم أبو محجن الثقفي في قوله :

لا تســـألي الناسَ عن مالي وكثرته

وســـــائلي القومَ عن ديني وعن خلقي

قَـدْ يعلمُ النـاسُ أنـا من ســـراتِهم

إذا ســـمـا بصـــرُ الرعـديـدةِ الفَرقِ

00000000

قد يُقْتِرُ المرءُ يوماً وهو ذو حَسَـــبٍ

وَقَـدْ يثُوبُ ســـوامُ العـاجِزِ الحَمِقِ

قَـدْ يَكثرُ المـالُ يومـاَ بعـدَ قِلّتِـهِ

ويكتســـي العودُ بعدَ الجَدْبِ بالورَقِ[262]

يكشـــف النص عن وجود ثنائيات متضـــادة توحي بتناغم النفوس مع حدث التحول والتغيير بعد مجيء الإسـلام واندماجها فيه ، فالشـاعر يَنهى زوجه عن ميزان التقويم المادي غير المنصـف الذي كان سـائداً في الجاهلية ، وهو يدعوها إلى التمسـك بتعاليم الإسـلام ومبادئه السـامية من خلال توظيفه للثنائية المتضـادة (لا تسـألي ضـد سـائلي) ففيها يظهر تناغم نفس الشـاعر مع حدث التحول وانسـجامها معه فلا مسـتحيل أمام الشـاعر الذي قَدِرَ على الاسـتجابة لهذا التحول مثلما لم يسـتحل اجتماع الثنائيات المتضـادة ، فالغني عنده قد يفتقر بعد غناه ، والفقير قد يغتني بعد فقره ، مثلما الغصـــن الذي جدب قد يأتي عليه وقت الخصب فيكتسي بالورق .

وثمة دافع ديني جدير بالاهتمام أســـهم في دفع بعض الشـــعراء المخضـــرمين في الإسلام إلى تحمل الفقر والصبر عليه ، هو التوكل على الله سبحانه وتعالى وانتظار عطاءه الذي يمنُّ به على عباده متى ما شاء ، وفي هذا الصدد قال كعب بن زهير لزوجه:

والمَرْءُ والمــالُ يَنمْي ثُمَ يُــذْهِبُــهُ
مَرُّ الــدُّهُورِ وَيُفنيــهِ فَينْســـحِقُ

00000000

قَــدْ يُعْوزُ الحــازِمُ المَحْمودُ نِيَّتُــه
بَعْـدَ الثَّراءِ وَيُثري العــاجزُ الحَمِقُ

فلا تخــافي عَلينــا الفَقْرَ وانتظري
فَضْـــلَ الــذي بــالغِنى مِنْ عِنْــدِه نَثِقُ
إن يَفْنَ مــا عِنْــدَنــا فــالله يَرْزُقُنــا

---

(262) ديوانه : 15، 16، 20، 21، الرعديدة : الجبان وسـمي رعديدة لأنه إذا رأى الحرب أرعد، ودخول الهاء فيه ها هنا للمبالغة ، الفرق : الفزع ، يثوب : يكثر ، وينظر مثل ذلك شرح ديوان حسان ابن ثابت : 382-383 ، 425، وشـرح ديوان كعب بن زهير : 134، وشـعر عمرو بن أحمر: 64.

وَمَنْ سِـــوانا وَلَسْـــنا نَحْنُ نَرْتَزِقُ [263]

أســـند الشـــاعر أحوال الناس بفقرها وغناها وتعاقب الأحداث فيها إلى الدهر وقدرته على فنائها وسحقها والحقيقة إن الشاعر استعمل لفظة الدهور كناية عن الله سبحانه وتعالى فهو المُسـيّر والمسـيطر والدهر هو الله ، لأن الرسـول محمدا ρ قال: ((قال الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يســـب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)) [264] . وقد جاء الشـــاعر بالثنائيات المتضادة لإظهار مراميه وأغراضه مثل (يعوز ضد يثري) التي يتوالد عنها تضاد من حيث التركيب ـــ تضاد إسنادي و(الحازم ضد العاجز) وهما فاعلان متضادان لكن ما يميز طرفي الثنائية المتضـادة هو إن الطرف الأول يتجه لحالة طبيعية تعمق سـمة الانفتاح النفســـي نحو مديات الحياة ، أما الطرف الثاني فهو حالة طارئة تعمق الإنكفاء والإختلال النفســي القيمي الاجتماعي ثم ينسـل إلينا عبر مشـهد تضـادي وصـفي إن راعينا المسـتوى التركيبي هو (المحمود ضد الحمق) وهذه الثنائية المتضادة يمكن أن نصفها بتضاد المشهد ، لأنها عبارة عن مجموعة أضداد تضافرت تركيبياً لتشكل معادلة تضادية متوازنة الأطراف ؛ وبذلك نسـتطيع أن نقول إن عقيدة المسـلم اسـتطاعت أن تحقق أقصـى حالات التناغم والتوافق بين جلّ الثنائيات التي حكمت النص .

ويدعو النابغة الجعدي الفقراء إلى السـفر والبحث عن العمل ، لأنه يرى قصـوراً في المرءِ الذي لا يعمل لأن وعيه وعقيدته مكنته من إدراك قيمة العمل بصـفته نشـاط الإنسـان الهادف الذي يجلب المال الذي يؤدي إلى الغنى الذي فيه الراحة والســـعادة ، وإذا ما مات المرء حين ذاك فإنه يكون قد أدى ما عليه من الواجب في الحياة ولا تقع عليه لائمة فقره بعد ذاك حين قال :

إذا المرءُ لم يطلبْ معاشـــاً لنفســـهِ

شـــكـا الفقرَ أو لامَ الصـــديقَ فـأكثرا

---

(263) شرح ديوانه : 228 ، وينظر مثل ذلك ديوان حُميد بن ثور الهلالي : 110، وشعراء إسلاميون ، شعر أبي زبيد الطائي : 674 ، وشعر عمرو بن شأس الأسدي : 83.

(264) صحيح مسلم : 45/7.

فســـر في بلاد اللهِ والتمسَ الغنى تعش ذا يســـار أو تموتَ فتعـذرا[265]

يكشف النص عن وجود صراع بين ثنائيتين متضادتين (الفقر ضد الغنى) و(تعش ضد تموت) وهما تشيران إلى التنازع بين إرادتين ، إرادة الإنسان في ذاته ، وإرادة الزمن في قدره ، وما يتمخض عن ذلك من توافق بين المعاني والأصوات المتمخضة عن المتضادات التي تموج بها نفس الشاعر ، وهو يستند إلى حس ديني اكتسبه بفضل الاستماع إلى قوله تعالى : **((فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِه))** [266] . وقوله تعالى: **((وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى))** [267] . وهذا ما جعله ذا قيمة جليلة استطاع من خلالها الدخول إلى نفوس المتلقين وتحريك مشاعرهم وإنصياعهم لما دعا إليه .

ويرى قيس بن الخطيم بعد إســـلامه إن القناعة تأتي من غنى النفس ، فالحرص الشديد لا يأتي بالغنى فقد تنمو الأموال عند أصحاب الكرم ، وتنفد أموال الحريص وحينئذٍ لا يفيد الحريص حرصه ، لأن فقره يسكن في نفسه حتى وإن كثر ماله ، أما الغني الكريم فإن غناه يتجلى في قناعته وإن قلَّ ماله فقال :

فقلْ للمتقي عرض المنايا
توقَّ وليسَ ينفعكَ الوقاءُ
فلا يعطي الحريصُ غنى لحرصٍ
وقد ينمي لذي العجزِ الثراءُ
غنيُّ النفسِ ما استغنى غنيٌّ
وفقر النفسِ ما عمرت شقاءُ [268]

وهكذا نجد الثنائيات المتضادة حاضرة في أغلب قصائد الشعراء المخضرمين ، وهي لا تشكل إحدى السمات الشعرية فحسب ، بل هي أيضاً من المكونات الداخلية للبنية الحركية في الثنائيات الآتية (توق ضد ليس ينفعك الوقاء) أي لا وقاء و(لا يعطي ضد ينمي) و(

---

(265) شعره: 73، وينظر مثل ذلك ديوان أبي الأسود الدؤلي : 227 .

(266) سورة الملك ، الآية : 15.

(267) سورة النجم ، الآيتان : 39-40.

(268) ديوانه: 71-72، وينظر مثل ذلك شرح ديوان حسان بن ثابت : 181.

العجز ضـد الثراء) و(غني النفس ضـد فقر النفس) حيث نجد أنَّ هذه الثنائيات تصـور حالات من المفارقة بين الحيوية والنشـاط من جهة وبين الثبات والديمومة من جهة أُخرى ، فالفعل في هذه الثنائيات يصـور غالباً الرؤى السـالبة في مواجهة دلالة الاسـم الموجب التي تتجلى في الواقع الذي يعيشه الشاعر ، فالفعل (توق ضد لا وقاء) سالب، و(لا يعطي ضد ينمي) سالب ، بينما الثنائيات التي وردت بالاسماء موجبة .

وهكذا نجد النص يتحول بدعم من حركة الاسـم وتحولاته الداخلية الموجبة ، التي تخلق اللحظات وتتجاوزها في آن واحد ضـد حركة الفعل السـالبة التي تصـور حالة من عدم الاستقرار والثبات ، وعندما تتسرب الرُؤى السلبية عن طريق الفعل يفاجئنا النص بتولدات ، اسمية ضدية مباغتة مشحونة بحركة عالية ، تمكنها من العصف بالدلالات السلبية السابقة لها فتمحوها وتحل محلها وتعلن عن اسـتقرارها وثباتها ، وهذا ما يؤكده النص ، فالغنى هو غنى النفس السليمة المتطلعة نحو المستقبل ، والفقر هو فقر النفس المريضة الخاوية .

ويحذرنا الخليفة عثمان بن عفان τ من البطر ، وهي صـفة قد تلازم بعض الأغنياء ، ويدعونا إلى عدم اليأس والخنوع في حالة الفقر قائلاً :

وإذا غـنـيـت فـلا تـكـن بَـطـراً

وإذا افـتـقـرتَ فـتـه عـلـى الـدَّهْـرِ

فـاصـبر فَلَسْـتَ بواجـدٍ خُلُقـاً

أدْنـى إلـى فَـرَجٍ مِـنَ الصَـبْـرِ [269]

الفقر والغنى ضـدان على أسـاسـهما قامت الصـراعات التي كُتبت بالدم ، وأوغلت في تيهها حتى صار الفقر مؤدياً إلى الإلحاد ، والغنى مؤدياً ولو توهماً إلى الإيمان ، ومضاضة الفقر وقساوته ، ومرارة الحرمان الذي يكابده الإنسان من جرائه أمرٌ مما حدا بالإمام علي بن أبي طالب (عليه السـلام) إلى أن يقول ((الفقر الموت الأكبر)) [270] . ثم إنَّ الشـاعر يختصر لنا حكمة طالما لازمت حالة الفقر والغنى إذ يدعو إلى عدم البطر في حالة الغنى ، وعدم اليأس والخنوع في حالة الفقر .. ثم أنَّ هذه الضـدية هي محور وجودي بالغ الأهمية إذ يكاد يرتبط ارتباطاً مباشـراً بالنواحي النفسـية والاجتماعية على نحوٍ يُذكي ويخمد إوار

---

[269] نصيحة الملوك : 262.

[270] نهج البلاغة : 41/4.

الصراعات حتى أنَّ الغنى (المال) مقدم في القضايا التعبدية التي نص عليها الإسلام على النفس في أُمور الدفاع عن الحرمات ، فقال تعالى : **((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ))** [271] وكذلك حينما وعد الله المتقين بالمدد فقال : **((وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا))** [272] .

إذاً إلى هذا الحد يشكل الغنى بؤرة ضدية في مساحة الصراع بين الخير والشر ، والبقاء والفناء على نحوٍ لا تشكله أي ضدية أُخرى .

---

(271) سورة الأنفال ، الآية : 72.

(272) سورة الإسراء ، الآية : 6.

المبحث الثالث
الثنائية المتضادة (القوة ضد الضعف)

القوة والضعف في اللغة:

أجمعت المصـــادر التي رجعتُ إليها في بيان معنى مادة (قَويَ) في اللغة على إنَّ القوة نقيض الضـعف ، والفعل قَوِيَ يقوى إذا كان مصـدره قوّة على فُعْلة جاء بمعنى القوة في البدن ، وإذا كان مصـدره قَواوة أو قواية على فِعَالة فمعناه : القوة في الحزم ، والعقل، والرجل الشديد القوي بمعنى : شديد أسر الخَلق ، فالقوي في نفسه ، والمقوي في دابته[273]، والقوي واحدٌ من أسماء الله الحسنى ، والقوة تدل على القدرة التامة والله تعالى بالغ القدرة تامها قوي [274] .

وجاء الضعف خلاف القوة : وقيل : الضُعف بالضم في الجسد والبدن ، والضَّعف بالفتح في الرأي والعقل ، وقيل هما لغتان جيدتان في ضعف البدن والرأي وقيل بالضم أقوى [275] .

ويقال فلان ضعيف مَضعِف ، فالضعيف في بدنه والمضعف الذي دابته ضعيفة، ويقال : قوي ومقوٍ [276] ، والضعيف ما استماله هواه ، وقيل المريض العليل ، وقيل الأعمى والضرير . ويجمع على ضُعفاء ، وضُعفى وضِعاف ، والنسوة تجمع ضعيفات وضِعَاف .

لم تكن سمة القوة والضعف التي اتخذها الشعراء المخضرمون في العصر الجاهلي للتعامل مع الحياة مجرد مظاهر زائفة أو زائلة تتخذ من معطيات الواقع الجاهلي المعاش منفذاً للتعامل معها ، بسبب وجود الصلة الوثيقة بينها وبين الحياة ؛ لأنَّ السمة الطاغية على مظاهر الحياة في تلك الحقبة الزمنية هي القوة ، والعربي يعيش صراعاً دائماً بينه وبين بيئته

---

(273) ينظر الجمهرة : 187/1(قوي) ، الصحاح : 2469–2470 (قوا) ، اللسان مادة (قوي) ، تاج العروس : 306/10 (قوي) .

(274) ينظر شرح أسماء الله الحسنى : 122.

(275) المحكم : 283/6 (قوو) .

(276) ينظر المدخل إلى علم اللغة : 42.

الصحراوية القاسية ، فكل شيء فيها يوحي بالبقاء للأقوى [277] ، لأنَّ بنيان المجتمع مبنيٌ على التضاد ، فما يهدد كيان الإنسان فرض عليه أن يكون السلاح أقرب الأشياء إلى نفسه مودة ورحمة ، والبيئة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان فيها ما يساعده على البقاء ويسانده ، فما يبدو لغيره صعب المران يبدو له مطواعاً ، وما يبكي غيره من الوحوش والقفار يؤنسه ، فقمم الجبال العالية توحي إليه بالكبرياء ، والطرق الوعرة غير السالكة تشعره بالتحدي ، والصخور الصماء تهب له المناعة ، وهذا ما جعل رؤيته الشعرية مكتنزة بالعنف تبرز فيها قوته .

والعرب تسعى إلى بناء قوتها من خلال اعتمادها على أبنائها فهي ((تفرض على أبنائها أدب الفروسية ، وتقديس البطولة ، لما هم عليه من التنافس القبلي ومن التعرض المستمر لأن يكونوا غزاة أو مغزوين ، مترحلين في طلب الماء والكلأ متصعلكين مشردين في البراري المخيفة المقفرة ، فجاء شعرهم حافلاً بذكر حروبهم وأمجادهم ، ووصف مايلاقونه من الأهوال والمصاعب في قطع المفاوز وطلب العيش ، وحماية الأهل والمال)) [278] . لذا نجد العصبية القبلية تعم العرب كلهم حضراً ، وبدواً ، والعصبية في عرفهم تعني نصرة ذوي القرابة إذ كان المبدأ القبلي السائد في الجاهلية ((ليس من العصبية والإخوة أن تسأل أخاك عما وقع له . عليك تلبية ندائه ، وتقديم العون له معتدياً كان أم معتدى عليه)) [279] وقد أفتخر الشعراء بتلبية النداء وإبعاد السؤال كما في قول قريط ابن أنيف [280] :

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حينَ يندبهم

في النائباتِ على ما قالَ برهانا [281]

---

(277) ينظر الفروسية في الشعر الجاهلي : 46.

(278) الشعراء الفرسان : 8-9.

(279) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : 334/5.

(280) قريط بن أنيف أحد بني العنبر جاهلي ، وبعضهم قال إسلامي . وبدا لي من خلال مراجعة شعره أنَّه مخضرم لوجود معاني جاهلية وإسلامية فيه. ينظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي : 8/1.

(281) ديوان الحماسة : 29، إبداء الشر ناجذيه مثل يضرب لشدته والزرافات الجماعات ، وينظر شرح ديوان لبيد : 100-101.

ينطلق الشاعر المخضرم في جاهليته في قول الشعر من ذاته الفردية ليصل بها إلى الذات الجماعية ((فطبيعة المؤثرات الخاصة والعامة التي أسهمت في تكوينه الشعري هي التي جعلته يحمل لنا القيم التي آمن بها من قريب أو بعيد ، فالقيم التي عبّر عنها في شعره برغم ما يكتنفها من مبالغة أو تطرف أحياناً هي وليدة الإحساس القبلي)) [282] . فالشاعر الفارس الذي ينطلق من ثقته بنفسه وهي ثقة مجتمعه ، يترجم ما في نفسه من حب للحرب ، ويظهر انتماءه لها غير مبال بما يحدثه من الفتك والبطش والقتل والاستهانة بالآخرين وفي هذا قال عامر بن الطفيل :

وأنا ابنُ حَرْبٍ لا أَزالُ أَشِبُها

سَعْراً وَأوْقِدُها إذا لَمْ تُوقَدِ [283]

كانت حياة الشاعر قائمة على التضاد ، فليس أدل على ذلك هذا البيت الذي نجم عنه ذلك التوتر النفسي ، الذي بدا جلياً في شعره من خلال تضاده بين الثنائية (أوقدها ضد لم توقد) لاستيعاب متناقضات محيطه والتعبير عنها ، ولم تكن في الغالب سوى أحاسيسه مقرونة بالتضاد .

وحين يكون الشاعر المخضرم هو اللسان الناطق بمآثر قبيلته يصبح أداة لردع كل عوامل الضعف المستهجنة ، وهو الباحث عن المعاني التي ترفع من شأنه وأبناء قومه ساعياً بذلك إلى إضفاء كل سمات القوة عليهم وهذا ما وجدناه في قول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطعْ شيئاً فدعهُ

وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

وصِلهُ بالزماعِ فكمْ لأمرٍ

سما لكَ أو سموتَ لَهُ وَلُوعُ [284]

---

(282) جدلية القيم في الشعر الجاهلي : 65 .

(283) ديوانه : 57 ، أشبها : أشعلها ، سعراً : ناراً .

(284) ديوانه: 142، الزماع : العزم والتصميم ولوع: ولعت بالشي ، إذا لزمته، وينظر مثل ذلك شعراء إسلاميون ، شعر زيد الخيل: 199.

تجلت الثنائية المتضادة (الضعف ضد القوة) بصيغة النصح والإرشاد ، وقد عبّر عنها الشاعر بالضدية السلبية (لم تستطع ضد تستطيع) وفيها إشارة إلى التحول من حالة الضعف إلى القوة التي توصله إلى حفظ ماء الوجه ، فالشاعر غير قادر على استرجاع أخته ريحانة بعد أن سباها الصمة بن بكر ، وبعد عودته ويأسه من إنتزاعها من الأسر اختلجت مشاعره بالحسرة والألم وشعر بالضعف فقال قصيدته الطويلة هذه التي اقتطعنا منها هذين البيتين اللذين يظهر من خلالهما ضعف قدرته الجسدية التي تمكن من تحويلها إلى قوة بسعة حكمته ، إذ لم تكن لديه القدرة الكافية على الإنجاز ، فقادته حكمته إلى أنْ لا يضع نفسه في موقف لا يُحسد عليه ، وبذلك استطاع أن يجنب نفسه مغبة الخزي والاستخفاف بشأنه من لدن الآخرين .

وللشاعرة المخضرمة نصيب في إظهار قوة قومها واستبعاد كل مظاهر الضعف عنهم وذلك من خلال استعمالها للثنائيات المتضادة ، فدرة بنت أبي لهب صورت إقدام قومها وشجاعتهم في حرب الفجار فقالت :

لاقوا غداةَ الروعِ ضمرزةً ... فيها السَّنَوَّرُ من بني فِهْرِ
ملمومة خرساءَ تَحْسبُها ... لَمَا بدت مَوْجاً من البحرِ
والجُرْد كالعُقبانِ كاسِرةً ... تهوي أمامَ كتائبٍ خَضرِ
منها ذُعافِ المَوْت أبْرَدُهُ ... يغلي بهم وأحَرَهُ يجري
قومٌ لو أنَّ الصَّخرَ صالدهم ... صَلبُوا وَلانَ عرامسَ الصخرِ (285)

في هذه القطعة شبهت الشاعرة قوة قومها بموج البحر الذي يدل على التقدم والإسراع ، وهو يثني كل شيء ولا يدع شيئاً يثنيه ، وبالمقابل أظهرت قوة أعدائها من خلال وصفها للجحافل القادمة بالكتائب الخضر وتوصف الكتيبة بهذا الوصف لشدة اجتماعها وكثرتها التي جعلتها تميل إلى السواد ، لكنها ملكت القدرة أمام تلك الجحافل بإن جعلت الأمر العظيم يصغر أمام أمر أعظم منه فحين ((يعود الإنسان بحساباته ليستهون ما حسبهُ عظيماً))

---

(285) شعر المخضرمات بين الجاهلية والإسلام : 20، الضمزرة : السوء والغلظ ، السَّنور : السيد الشجاع ، الخرساء : الكتيبة ، الجرد: الخيل ، عرامس الصخر: القمم الصخرية الصلبة.

[286] تكون المفارقة التي مكنت الشـــاعرة من أنْ تجعل الموت الذعاف الذي يذيقه قومها لأعداءهم أبرده يغلي بهم وأحره يجري ، والعجب يكمن في كون البارد يغلي، والحار يجري .

وبقي أن أشير إلى أنَّ الشاعرة استعملت الثنائية المتضادة (لانَ ضد صَلبوا) لتظهر من خلالها أنَّ قومها لاقوا أعداءهم وهم أصلب ما يكونون واستمرت هذه الصلابة حتى لانَ الصخر الذي هو أشدُّ من أعدائهم قوة وصلابة .

والشـاعر المخضـرم اسـتطاع أن يكشـف من خلال المسـتوى الدلالي للكلمة عن خطوات تطور معانيها واسـتوائها أداة للتعبير والتأثير ، فالدلالة هي المحصـلة النهائية التي يسـعى الشـاعر إلى تحقيقها عن طريق الألفاظ التي ترتبط مع بعضـها بعلاقات مختلفة كالصوت والتركيب فيحقق بذلك غرضه في إيصال المعنى ، ثم أنها الهدف المنشود والغاية المرجوة التي تدفع الشاعر إلى اختيار أنماط مختلفة من الأساليب والصياغات في إيصال ما يريده إلى السـامع [287] ، فالعباس بن مرداس يعقد مقارنة تعتمد على الموازنة. عالج فيها ضآلة جسمه مع جسم غيره استطاع من خلالها أن يجعل ضعفه قوة ويحظى بالفوز في نهاية المطاف حين قال :

تَرى الرجلَ النحيفَ فتزدريهِ

وفي أثوابهِ أسد مزيرُ

ويعجبكَ الطرير فتبتليهِ

فيخلف ظنك الرجل الطريرُ [288]

يعتمد الشـاعر في هذين البيتين على المقارنة والموازنة المتضـادة بين جملتين متشابهتين في التركيب لكنهما متضادتان في المعنى (فتزدريه ضد تبتليه) والجملة الأولى تمثلت في نهاية صدر البيت الأول ، أما الجملة الثانية فيمثلها نهاية صدر البيت الثاني وهي تحوي ما احتوت الجملة الأولى من تراكيب إلاّ أنها تخالفها في المعنى، إذ أنها تمثل المعنى الإيجابي ، ويتجلى التضـاد بين كل عبارتين متجاورتين (الصـدر والعجز) أو متعامدتين لصـدر البيت الأول مع صـدر البيت الثاني ، وعجز البيت الأول مع عجز البيت الثاني ،

---

[286] استراتيجيات القراءة : 219.

[287] ينظر سور القيامة . دراسة اسلوبية : 96.

[288] ديوانه : 58–59 ، الطرير : الشاب الذي نبت شاربه ، مزير : شديد القلب العاقل الحازم.

ويلاحظ في هذين البيتين وجود علاقة تشـابه واضـحة في المعنى بين صـدر البيت الأول الذي يمثل معنى سلبياً مع عجز البيت الثاني الذي هو الآخر يمثل معنى سلبياً .

وأعطى الشـاعر المخضـرم خفاف بن ندبة سـيد القوم أهمية اسـتثنائية ومميزة في قضـية أخذ الثأر، حين كان القضـاء يعني القضـاء على القوم كلهُمُ ، لأنه الرأس القائم على تدبير الأمور ، ومن هنا يضحى قتله ذعراً وضعفاً للقبيلة المعادية وكفيلاً بزعزتها فقال:

تيممـتُ كبشَ القومِ حتى عرفتُـهُ

وجـانبتُ شـبّانَ الرجـالِ الصـعالكا

فإن تَكُ خَيْلي قد أُصـيبَ صَـميمُها

فعمـداً على عينٍ تيمّمـتُ مـالكـا [289]

يطالعنا النص بثنائيتين ضـديتين هما (تيممت ضـد جانبت) وهي ثنائية ضـدية أسـهمت في خلق طاقة حركية ودلالية مكثفة أمنت الانفتاح من داخل النص إلى الرمز الذي ((يستدعي الموضوع ، والموضوع يستدعي العلاقات ، والعلاقات تستدعي الحركة الداخلية ، حيث يقوم هدير هذه الحركة من الداخل بدفع الرمز خارج حدوده ومحدوديته، صـاعداً به إلى آماد كوني)) [290] .

والرمز حسـب ما هو معروف ((مرتكز العلاقات وبؤرتها)) [291] لهذا يطالعنا الشاعر بقطبي الرؤية الشعرية لديه بالضدية الثانية وهي الثنائية المتضادة ، كبش القوم التي تمثل ذروة القوة والإرتقاء ، وشبان الرجال الصعالكا تمثل مركز الضعف والانحطاط، وبهذا يكون النص قد قام على هذه المفارقة الرمزية التي طرفاها هذان الرمزان القوة والضعف.

والملاحظ أنَّ الشاعر استطاع أن يدعم حركة الثنائية المتضادة (القوة ضد الضعف) التي عبّر عنها من خلال استعماله الرمز بحركة الأفعال في الثنائية الضدية
(تيممت ضد جانبت) التي تنسجم مع ثورة الغضب والعنفوان لديه ، وبذلك استطاع أن يحرز الانتصـار ويلحق بأعدائه الاندحار الذي أكسـبه إخماد ثورته والارتقاء نحو السـكينة الروحية بعد أن أكسب قبيلته الهيبة والاحترام .

---

(289) شعراء إسلاميون ، شعره 484، تيممت : قصدت ، كبش القوم : رئيسهم وسيدهم ، وجانبت شبان الرجال الصعالكا: أي أنه لم يقتل الشباب لأنهم ليسوا كفئا لمعاوية بن عمرو والصعاليك هم الفقراء مالك هو مالك الشمخي الذي قتل معاوية .

(290) تحرير المعنى : 108 .

(291) المصدر نفسه : 109.

وعلى العموم القوة في المجتمع الجاهلي هي قوة حربية دفاعاً عن القبيلة وتقاليدها ونظامها .

ويذهب الشاعر الفارس قيس بن الخطيم إلى ما ذهب إليه خفاف فقدم ما حقه التأخير ليبين قيمة المقدم في قوله :

أصـــابت ســـراةَ ملأّغر ســـيوفنا

وغـودِرَ أولادُ الإمــاءِ الـحـواطـب (292)

أعطى تقديم المفعول به (ســراة) على فاعله (ســيوفنا) البيت بعداً موازياً لأهمية هؤلاء الســادة في قومهم ، لذا كانوا أول مَنْ أصــابتهم ســيوف الفرســان الأقوياء من قبيلة الشاعر وبفعلهم هذا يكونون قد أعطوا فرصة الهرب للأولاد الضعفاء لقلة أهميتهم ، ومن هنا كان المفعول به أحرى بالتقديم كما كان سراة الأعداء أولى بالقتل .

يحفل المتن الشــعري المخضــرم بالمتضــادات ، ويتبنى على نحوٍ واضــح أســلوبية التضــاد رغبة منه في المقارنة أو الإنفلات من اصــطراع القيم القديمة والجديدة ، أو إظهاراً لقوة الجديد , وغلبته للقديم من أنماط الحياة ، وصــور الفكر وتحديات الاجتماع الإنســاني ، فقد أحس الشــاعر بحركة الزمن وبمشــكلته الأزلية التي حاول مقاومتها فاســتجاب لذلك الإحساس بفنية ظاهرة ودفينة لمعطياته القريبة والبعيدة .

فلبيد بن ربيعة يرى أنَّ الدهر قوة جبارة وإرادة قهرية لا يمكن قهرها ، لأنها ذات نزعة عدوانية ظاهرة ومضمرة فقال :

وأبـوكِ بُسْـــرٌ لا يُـفـنـد عُـمْـرهُ

وإلــى بــلــىً مــا يــرجــعــنَّ جــديــدُ

غُـلــبَ العزاءُ وكنــت غيْرَ مُغلّــب

دَهــرٌ طــويــلٌ دائــمٌ مــمــدودُ

يَـومٌ إذا يَـأْتــي عَـلَــيَّ ولـيـلــةٌ

وَكـلاهـمــا بَـعْـدَ الـمَضَـــاءِ يَـعُـودُ

---

(292) ديوانه: 35، مَلأّغر من الأغر وينظر مثل ذلك شــعراء إســلاميون ، شــعر زيد الخيل : 210.

وأراهُ يـأتـي مِـثْـلَ يـومٍ لـقـيـتُـهُ لَمْ يَنْصـرِمْ وَضَـعُفْتُ وَهْوَ شَـديدُ [293]

نص لبيد هذا تبدو فيه الأضداد صريحة جاهرة بصوتها فارضة ظلالها على نفس الشاعر التي بدأت تماؤها عتمة الوهن والشيخوخة ، إذ نجده يورد تلك الجملة من المتضادات على نحوٍ لافت للنظر إذ يورد (بلى ضد جديد) و(غُلب ضد غير مغلب) و(مضاء ضد يعود) و(ضعفت ضد شديد) التي يمكن أن نلاحظ عليها الأمور الآتية :

1- إن التضاد الفعلي الذي تم بالفعل وأودى به كان عدده ثلاث متضادات فعلية .

2- إن التضاد الاسمي الذي تم بالاسم وأودى به كان عدده خمس متضادات اسمية.

وهذا له أكثر من دلالة في خلق الصورة ، وتشكيل النسيج الشعري وبناء هيكله من أجل إظهار المعنى عبر مشهد درامي صوتي ـ بالصورة التي قصد إليها الشاعر، وما تظهره الأضداد يدل على عنف الصراع بين كثير من المحاور والبؤر التي خلقتها ، وبها خُلقت تلك الأضداد ، و(بلى ضد جديد) يدل على انتهاء شيء ألح على الشاعر الهجوس به ، وإبدائه على نحوٍ تمثل في صرخة رفض أو شهقة استسلام ، وفي (غُلبَ ضد غير مغلب) إسترجاع حالة القوة ومقارنتها مع حالة الضعف والغلبة التي يعيشها الشاعر اعترافاً بما ألقاه الواقع عليه من ظلال ثقيلة أدت إلى ولوج عوالم لم يكن الشاعر ناظراً إليها على هذا النحو من قبل .. وما نجده في كنف المتضادة (مضاء ضد يعود) إذ يُغامر الشاعر في متعة ذهنية نفسية صارخة لأجل حيازة مساحة إستذكارية لكي يشعل بها رماد العمر الذي باتت تذروه ريح لا تجيد إلاّ العصف ، وإذكاء ما يقلم أظفار الرغبة بالانتهاء والتلاشي .

وعندما جاء الإسلام لم تكن ثنائية (القوة ضد الضعف) غائبة عن الجزيرة العربية لكن الشاعر المخضرم أحسن استغلالها وتوجيهها فهذبها لا ليُهدِئَها وإنما لتأجيجها أكثر مما كانت عليه، ولكن ضمن قيم ابتعدت عن الصراع القبلي من أجل الاستيلاء والقتل تحقيقاً لمآرب القبيلة القوية ، لتصبح تجسيداً لقيم الإيمان الجديدة التي بشّر بها النبي محمد ρ فتلك القوة التي شحذها المران الطويل في الجاهلية مطلوب منها التوجه إلى العالم في صور

---

(293) شرح ديوانه : 35-36 ، وينظر مثل ذلك ديوان عمرو بن معد يكرب : 181، وديوان دريد بن الصمة: 66.

الأبطال المحررين الذين يحملون مشعل الهداية لنشر دين قيّم دعامته السلام إلى كل الأقطار التي وصل إليها الإسلام [294] .

وجاء الإسلام ليسأل فارس الحرب عن سَبَبَها فلا يجوز أن يخوضها إلاّ إذا كان السبب معقولاً فالنبي محمد ρ قال: ((مَنْ قاتل تحت رايةٍ عُمّية يغضب لعصبة أو يَنْصرُ عصبةً فقتل فقتلته جاهلية)) [295] فهو لم يخضع الناس لمبادىء الدين الإسلامي بالسيف بل استطاع بحكمته أنْ يدرك مواطن الضعف ومواطن القوة في المجتمع فيقضي على الأولى ويطور الثانية ولهذا ((لم يعد فخر العربي بشجاعته ، وقوته مكرساً لخدمة القبيلة والمجد الفردي وإنما صار يصب في خدمة الأمة جميعاً ، بعد أن أوضحت له عقيدته الإسلامية أنّ عز قبيلته من عز العرب ، وأنّ المجد الذي يسعى إلى تحقيقه لقبيلته يبقى ناقصاً إذا بقيت القبائل العربية مجزأة ضعيفة)) [296] . لذا نجد أنَّ أول ما يتجلى لنا من قيم الفخر الإسلامي الذي هو تمجيد لا يدانيه تمجيد لجماعة المسلمين المؤمنين الذين توحدوا على ما يرضي الله ورسوله فأصبحت قوتهم قوة جماعية لا تدانيها أية قوة ، وحسان بن ثابت يفخر بالمسلمين من قريش والأنصار والمهاجرين ويظهر قوتهم وسجاياهم التي شرعوها للناس حين قال :

إن الذوائبَ من فهرٍ واخوتِهِمْ
قد بيّنُوا سنّةً للناسِ تُتَّبَعُ

يَرضى بها كلُ مَنْ كانت سريرتُهُ
تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعُوا

قومٌ إذا حاربُوا ضَرُّوا عدوُّهمْ
أو حَاولُوا النفعَ في اشياعِهِمْ نَفَعُوا

0000000

---

(294) ينظر تعليق الأستاذ عبد العزيز الرفاعي : 125 على محاضرة الأستاذ محمد مهدي مجذوب التي كان عنوانها ((البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي)) مؤتمر الأدباء العرب الرابع ، الكويت .

(295) صحيح مسلم : 21/6.

(296) شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام: 260.

لا يرقعُ النــاسَ مــا أوهــت أكفَّهمُ

عنــدَ الــدفــاعِ ولا يوهونَ مــا رَقعُوا[297]

يميل النص إلى معالجة صـراع بين متضـادتين (القوة ضـد الضـعف) فقد اسـتعمل الشـاعر الثنائية الضـدية (ضـروا ضـد نفعوا) ليظهر من خلالها قوة المسـلمين في حروبهم الدفاعية ، فهم قادرون على إلحاق الأذى بأعدائهم وهم في ذات الوقت نفاعون لأصـــحابهم وقد جمع الشـاعر بين هذا وذاك ليظهر فيها مقتضـى الحال واستجابة لدواعي المضـامين، ثم تتجلى الثنائيتان المتضــادتان (لا يرقع ضــد رقعوا) و (أوهت ضــد لا يوهنون) فتعلو فيها نغمة الإصرار الشديد على تحقيق كل الأهداف النبيلة التي جاء بها الإسلام ، ويبلغ الشاعر قمة رفيعة في تصــوير هذه الإندفاعية الثورية العارمة التي تجتاح كل العقبات التي تعترض طريقها في الوصـول إلى الهدف المنشـود وهو نصـرة الدين الإسـلامي الحنيف، مسـتغلاً كل طاقات لغته التصـويرية متمثلة بالتضـاد والمفارقة والتشـخيص والتجسـيد، إذ يسـتخدم الشـاعر مجموعة من أشد الأفعال عنفاً وثورةً وتحدياً .

وهذا الشــاعر كعب بن مالك يؤكد حقيقة المشــاعر الجماعية التي كانت تتعالى في نفوس المجـاهدين يوم الخندق وهم يتحـدثون عن الحرب ، والحرب لا يـدخلهـا المجـاهدون المؤمنون إلاّ بعد الاســتعداد لها والتوكل على الله ســبحانه وتعالى ، واســتجماع القوى حيث يتكاثر الفريقان ، فيتوحد المؤمنون لتصبح كلمتهم قوية فينطلقو بقدرة مؤثرة فقال :

إذا قــالــت لنــا النُّــذرُ اســـتعــدوا

تــوكــلــنــا عــلـــى ربِ الــعــبــادِ

وقــلــنــا لــن يــفّــرَج مــا لــقــيــنــا

ســـوى ضـــربِ القوانسِ والجهــادِ

فَلَمْ تَرَ عصـــــبــةً فِيمَنْ لَقَيْنَــا

مِــنَ الأقْــوَامِ مِــنْ قــارٍ وَبَــادي

---

(297) شرح ديوانه : 304 ، وينظر مثل ذلك معجم ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام ، ديوان عمرة بنت مرداس : 137.

أشـــــدُّ بســـــالـــةً مـنـــا إذا مـــا أَردنَـــاهُ وألْـــيـــنَ فِـــي الـــودَادِ [298]

الحرب يخوض غمارها المؤمنون حين يرتبطون بمصير وغاية واحدة ، تحقق للجميع العز والحرية والكرامة ويكون كل ذلك في إظهار الحق ، فالمسلمون بعد توكلهم على الله لن يغلب جمعهم لا قارٍ ولا بادٍ مهما كانت قوتهم ، لأنهم أصحاب حق وصاحب الحق يمتلك القدرة على زمام الأمور ، فهو قادر على أن يكون شديد البأس على أعدائه ، وليّناً مطواعاً لمن أراد الصلح والوداد .

وعلى الرغم من امتلاك بعض الشعراء المخضرمين لقوة تحد عالية ، التي حاولوا من خلالها مقارعة الدهر ، وهذا ما لم يكن يجري في طريق محكم دائماً ، لأنَّ بعضهم أعلن عجزه وضعفه أمام هذه القوة الجبارة ، إذ لا حولَ له ولا قوة . وأشعارهم تنمُّ على الضعف الواقع تحت مطارق الأيام ، إذ تتقاصر فاعليتهم أمامه كقول النمر بن تولب:

كَـانـت قنـاتـي لا تلِينَ لِغَـامِزٍ

فَـألأَنَهَـا الإّ صْـبَـاحُ وَالإّ مسَـــاءُ

وَدَعوْتُ رَبِي بـالسَـــلامـةِ جَـاهـداً

ليُصـــحني فَـإذَا السَـــلامـةُ داءُ [299]

تظهر صيغة الفعل تلين عبر تكرارها مضيفاً لها لا النافية ليحقق التضاد السلبي ويحقق تغايراً دلالياً عبر الثنائية المتضادة (لا تلين ضد ألانها) وبفعله هذا استطاع أن يمزج بين الماضي والحاضر حين ذكر قوته التي آلانها تعاقب الليل والنهار ، فكل ما في هذه الحياة لا بد من أنْ يدركه الضعف ثم الزوال ، والإنسان لا يملك القدرة على الحفاظ على قوته وصحته مهما عمل جاهداً فهي رهينة للفعل الذي يسيّره الله سبحانه وتعالى ، والإنسان المؤمن بالله سبحانه وتعالى يقوده إيمانه وحكمته إلى أنَّ السلامة لمن في عمره داء ، لهذا استسلم شاعرنا لقضاء الله وقدره لينعم بالهدوء والسكينة .

---

(298) ديوانه : 194، القوانس : أعلى البيضة من الحديد ، قار: من أهل القرى ، والبادي : من أهل البادية، وينظر مثل ذلك شرح ديوان لبيد بن ربيعة : 197.

(299) شعراء إسلاميون ، شعره : 400، وينظر مثل ذلك شعر ربيعة بن مقروم : 256 ، وديوان حُميد بن ثور : 94-95، 120، 130.

وهكذا رأينا أنَّ الثنائية المتضادة (القوة ضد الضعف) اتسعت لتشمل على السلوك الناجم عن الوعي واللاوعي ، والمادي والروحي والقوة هي المحركة للإنسان نحو المُثل، والتمسك بها يُعدُّ معلماً من معالم الشاعر المخضرم ؛ لذا يستلزم تنشئة الأبناء والحفدة عليها، وقد جاءت استجاباته لها بتأثير عوامل متنوعة كان أهمها بيئته الصحراوية التي كوّنت أهم خصائصه الإنسانية والمادية والوجدانية كقوة الجسد والصبر على مواجهة قوة الصحراء والتعايش معها ، وقد انصرف الشاعر المخضرم في جاهليته بالدرجة الأولى إلى فرديته المتعلقة بمفاصل وجوديته في القبيلة مما أدى إلى إلتزامه بقواعد سلوكيتها.

أما في العصر الإسلامي فشملت في الجانب الحربي الدفاعي عن القيم والمبادىء التي جاء بها الدين الحنيف ، وتميزت مبادراته في إظهار اللين والرفق لمن جاء طالباً للصفح والسلم ، ومقاومة هوى النفس والتطلع إلى الخلود .

الفصل الرابع
الثنائيات المتضادة في النواحي الأخلاقية

المبحث الأول : الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر)
المبحث الثاني : الثنائية المتضادة (الصدق ضد الكذب) .
المبحث الثالث : الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر).

المبحث الأول
الثنائية المتضادة(الخير ضد الشر)

الخير في اللغة ضد الشر وجمعه خيور وفيه قال النمر بن تولب :

وَلاقـيـتُ الـخُـيُـورَ وأخْـطَـأَتْـنِـي

شُـــرُورُ جَّـةٌ وَعَـلـوتُ قِـرنـي[300]

والخير كل فعل فيه صلاح الآخرين ، والشر نقيضه وهو كل رذيلة يستكرهها الناس وترفضها الأذواق السليمة ((وجمعهُ شرور)) [301] .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان على وجه البسيطة خليفته في أرضه قال تعالى : **((إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً))** [302] . وأوجد معه الخير والشر يصطرعان في داخله . قال تعالى : **((وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْواها))** [303] .

لذلك اختلفت آراء العلماء في طبيعة الإنسان الشريرة والخيّرة ، فبعضهم يرى إنَّ الشر يغلب عليها ولا تستطيع منه فكاكاً ((فالإنسان شرير بطبيعة غرائزه المتأصلة فيه، كما إنَّ رغباته شريرة أكثر منها خيرة)) [304] وإنَّ الإنسان جُبِلَ على فعل الشر ، وهو بطبيعته التي خُلق عليها إنسان شرير لا يعرف الخير ولا يستطيع التسامي إليه .

ومنهم مَنْ يرى أن طبيعة الشخصية الإنسانية خيرة وإن الشر يأتي من المجتمع ((فإذا أردنا أن نصلح الحياة الإجتماعية فعلينا أن نربي الناشئة تربية طبيعية بعيدة عن مؤثرات المجتمع وشروره)) [305] . ولعل جان جاك روسو هو أكثر مَنْ دعا إلى هذا الرأي في كتابه العقد الإجتماعي ، وكانت فلسفته هذه مستقاة من مبادئ الإسلام العظيمة، وقد تأثر به بعض علماء التربية والإجتماع الغربيين وصاروا يؤكدون ما ذهب إليه روسو من إن الإنسان خير بطبيعته لأنه جاء عن طريق خالق الكون ، فإذا ما مسته يد الشر أحالته إلى شرير [306] .

---

(300) شعراء إسلاميون ، شعره : 392 ، الخيور مفردها خير .

(301) لسان العرب ، مادة : (شرر) .

(302) سورة البقرة ، من الآية : 30 .

(303) سورة الشمس ، الآيتان : 7-8.

(304) منهج التربية الإسلامية أصوله وتطبيقاته : 95.

(305) المصدر نفسه : 96.

(306) ينظر: منهج التربية الإسلامية ، أصوله وتطبيقاته : 97.

وقد نظر الشعراءُ المخضرمون في العصر الجاهلي إلى موضوعة الخير ضد الشر فأوجدوا لها معنيين مرتبطين مع بعضهما الأول مادي وهو ((ما يرغب فيه وما يكره)) [307] ومنه قول كعب بن زهير :

لَـعَـمْـرُكَ لَـوْلاَ رَحْـمَـةُ اللهِ إنَّـنـي

لأمْطُو بِجَدٍّ مـا يُـرِيـدُ لِـيَـرْفَـعَـا

فَلو كنـتُ حُوتـاً ركضَ المَـاءُ فَوْقَـهُ

وَلَوْ كنـتُ يَرْبُوعاً سَـرَى ثم قَصَّـعَا

إذا مَـا نتجنـا أربعـاً عـام كفـاةٍ

بَغَـاهَـا خَنَـاسِـيرٌ فَـأَهْلَـكَ أَرْبَعَـا

إذا قَلْـتُ إنّـي فِـي بَـلاَدٍ مَضَـلَّـةٍ

أَبَى أنَّ مَمْسَـانا وَمُصْـبَحَنَا مَعا[308]

والمعنى الثاني دارَ حول المعنى الأخلاقي وهو ((تابع للمعنى المادي .. فالخير بالمعنى الخلقي هو صنع ما ينفع الناس ويسعدهم والشر يقابله)) [309] وعمرو بن معد يكرب في جاهليته إستعمل الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر) إستعمالاً يدل على إظهار الإعتداء والشر حين قال :

فَـلَـمْ نـقـتـلْ شِـرارُهـمُ ولـكـن

قتلنـا الصـالحينَ ذوي السـلاحِ

قَتَلْنـا مُطعِمَ الأَضـيـافِ منـهم

وأصـحابَ الكريهـةِ والصـباحِ [310]

إن المتأمل للنص جيداً يجد أن الواقع الأصلي له هو الفخر وقد عبّر الشاعر عن هذا الواقع شعراً فنقلنا إلى ساحة الصراع والتخاصم والتحارب ، فكانت هذه الثنائية المتضادة (الشر ضد الخير) بمثابة وعاء هذا الصراع ، فقد استطاع الشاعر أن يوظف أسلوب

---

(307) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : 103.

(308) شرح ديوانه: 227 ، أمطوا : أخذ ، الجَدُّ : الحظ وإنما يشكو حظه ، قصع دخل القعصاء وهي حجرة اليربوع ، الخناسر : الدواهي .

(309) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : 105.

(310) ديوانه : 52–53 ، وينظر مثل ذلك : 148 ، وشرح ديوان الخنساء : 185.

التضـــاد بالكلمات لأنه الأســلوب المناســب لهذا الواقع ، ولأن كل متضـــادتين متصـــارعتان متخاصـــمتان في الوقت عينه ، فهما إذن لا تجتمعان أبداً ، لأن أســـاس وجودهما التنافر والضدية . ومنذ بداية الغرض الأصلي للنص يبدأ الشاعر باستعمال أسلوب التضاد المتقابل على مســـتوى الأفعال المتقابلة والمتصـــارعة في بنية النص وهي (فلم نقتل ضـــد قتلنا) ، واستعمل لفظة شرارهم التي يقابلها في جداول المتضادات المعجمية (خيارهم) قد عدل عنها إلى الصـــالحين وهي نتيجة لخيارهم وقد كثّف الشـــاعر جملته ، فأبعد خيارهم وجاء بلفظة الصـالحين ، وبذلك اسـتطاع الشـاعر أن يرسـم الواقع بالكلمات ليفرز لنا صـورة حية للواقع العربي المعاش آنذاك القائم على الصراع القبلي .

وشـغلت الأنسـاب تفكير العرب كثيراً ، لأنها علم من علومهم التي عقدوا لها مؤلفات ضـخمة [311] ، وهذا يدلُّ دلالة واضـحة على مكانتها المهمة لديهم ، فقد أفتخر حسـان ابن ثابت في جاهليته بأنه لا يسـتطيع أن يخلف أباه ، لأنه أفضـل منه وجاء ذلك رداً على قول أبي سفيان بن الحارث الذي كان قد هجاه قائلاً :

ألاَّ مِنْ مبلغ حســـــان أنـي

خـلـفـت أبـي ولـم تـخـلـف أبـاك

فأجابه حسان قائلاً :

إني لَعْمرُ أبيـكَ شـــرٌّ من أَبي

ولأنـتَ خـيـرٌ مِـن أبـيـكَ وأكـرَمُ

وَبَـنُـوكَ نـوْكَـى كـلُّـهُـمْ ذُو عِـلَّـةٍ

وَلأنْـتَ شَـــرٌّ مـن بـنـيـكَ وَأَلأمُ [312]

يبدو أن حسـانا بن ثابت في جاهليته يسـتشـعر العار إن قيل له أنك خير من أبيك، لأن أعرافهم وتقاليدهم تفرض عليهم الافتخار بالأنســاب [313] ، لهذا نجد الشـــاعر قد ثارت حميته فأخذ يظهر امتعاضـه من ذلك القول من خلال توظيفه الثنائية المتضـادة (الشر ضد

---

(311) يلاحظ مثلاً كتاب جمهرة النسب لابن الكلبي (ت 204هـ)، وكتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ت 456هـ) ، وكتاب الأنساب لابي سعيد التميمي السمعاني (ت 562هـ) .

(312) شرح ديوانه : 456 ، نوكى : حمقى .

(313) ينظر الإنتماء في الشعر الجاهلي : 82.

الخير) وهما أسـما تفضـيل يحملان في ذاتيهما ثنائية ضـدية أُخرى هي (الشـاعر ضـد الممدوح) فالممدوح يتمتع بالشـرف والسـيادة والتفوق على أبناء جنسـه ، بمعنى إنه يتفوق عليهم بالخير الذي يحمله وهي صـفة من صـفات التكامل الاجتماعي والأخلاقي ، والتفاخر بالأنساب من الصفات النافعة لأنها جزء من الخير العام الذي ينمي القيم والمفاهيم الأخلاقية والإجتماعية في المجتمع الجاهلي ، ولكنه يقود إلى الشـطط والتخلف إذا لم يرافقه ما يثبت ذلك الأصل ، فالأصل تتبعه الفروع وحسان في النص ينفي كون الفروع جزءاً من الأصل ، ومن هنا ندرك إنهم قبل الإسلام كانوا يؤمنون بأن النسب الوضيع لا يرفعـه أو يزكيه أي عمل مهما كان نافعاً ، وهذا المفهوم جعل حسان متغطرساً بعض الشيء .

نستنتج من ذلك إن ثنائية (الشر ضد الخير) أظهرت النظرة القاصرة التي ولّدت الاتكالية والضعف ، وإنها منعت التطور والتجدد الذي كان يمكن أن يحصل لو أن الشاعر أجهد نفسه ليكون أفضل من أبيه .

ويبدو أنَّ غالبية الشعراء المخضرمين كانوا ممن يؤمنون بالقدر ويعتقدون بمسؤوليته عن خيرهم وشرهم [314] حين وجدوا أنفسهم في خضم المتناقضات منحنين منقادين صاغرين له ، فقد شـعروا بعدم جدوى مقاومته . ومن هنا وجدنا النابغة الجعدي يجسـد فكرته القائلة بوجود الخير والشـر وهما في صـراع دائم مع القدر ، فالعالم ليس كله خيراً أو جلّه شـراً بل يتعاقب النقيضان على هذا الوجود ، فعلى الإنسان أن يأخذ من هذا عبرة ويتعامل مع الحياة بحذر حين قال :

وأعلم إن الخيرَ ليسَ بدائمٍ

علينا وإن الشـرَّ لا هو يرتئبْ [315]

أورد الشاعر عنصري الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر) في شطري البيت بحيث يكون الصدر مطابقاً للعجز ، وبذلك يكون قد حقق بفعله هذا شيئاً من التوازن والتعادل الذي أراده .

---

(314) ينظر الحياة والموت في الشعر الجاهلي : 101.

(315) شعره : 11.

وأبو ذؤيب الهذلي بعدما قتلَ ناسٌ من بني سـليم ناسـاً من هذيل ، تألم كثيراً لما أصاب قومه [316] وأحسَّ بفداحة المصاب والوجيعة فقال :

فـدعْ عـنـكَ هـذا ولا تـغـتـبِـطْ

لـخـيـرٍ ولا تَـتَـبـأسْ لِضُـرْ

وَخـفِّضْ علـيـكَ من الـنـائـبـاتِ

ولا تَـكُ مِـنْـهَـا كَـئِـيـبَـاً بِشَـرْ

فـإنَّ الـرِّجَـالَ إلـى الـحـادِثـا

تِ فـاسـتَيقنَنّ أحـبُّ الجُزُرْ [317]

تتجلى من النص الثنائيتان المتضادتان (تغتبط ضد تبتأس) و (الخير ضد الضر) على الرغم من أن الخير ضده الشر وليس الضر ، وما الضر إلاّ نتيجة من نتائج الشر أو هو قرينة من قرائنه والشاعر يجسد من خلال هاتين الثنائيتين قضية القدر ، فهو يرى على المرءِ أنْ لا يفرح ويبتهج كثيراً لقدوم الخير ، ولا يحزن ويكتئب إذا تجلى له الشـر ، لأن كل ذلك قدر من الأقدار التي لا يمكن أنْ تُجابه ، وقد أفاد الشـاعر من أسـلوب الثنائيات المتضادة في تدعيم حجته وتقوية المعنى وتحريك المشاعر للعمل على الإقناع للتخلص من الحزن الذي إعتراه بسبب تلك الحادثة .

والخنساء بنت عمرو بن الشريد في جاهليتها وظفت الثنائية المتضادة (النفع ضد الضر) في رثاء أخيها صخر ، لتظهر من خلالها القيمة الحقيقية للمرثي من خلال ما يقدمه للقبيلة من الخير ، فضلاً عن تمكنه من إنزال الشر باعدائه ، فقيمة الإنسان في الجاهلية تتوقف على مقدار ما يقدمه من النفع أو الضر في الحياة . فقالت :

فإنْ كانَ صـخرُ الجودِ أصْـبَحَ ثَاوِياً

---

(316) ينظر شرح أشعار ديوان الهذليين : 112/1.

(317) ديوان الهذليين : 149/1-150.

فَقَدْ كَانَ فِي الدُنْيا يَضُـــرُّ وَيَنْفَعُ [318]

أقامت الشاعرة علاقة تحالف مع الثنائيتين المتضادتين (النفع ضد الضر) ظاهرياً و(الخير ضد الشر) ضمنياً ، لأن النفع ضده الضر ـــ والخير ضده الشر ، إلا أنها أقامت علاقة التحالف ؛ لأن النفع داخل في الخير والخير لفظ عام يدل على منافع كثيرة ، ومثلهما الضر والشر .

وبعد مجيء الإســـلام تغيّر مفهوم ثنائية الخير ضـــد الشـــر ، فقد جعلها الله تعالى امتحاناً وابتلاءً لعباده حين قال : **((كُل نفسٍ ذائقة الموت ونبلوكم بالشرِ والخيرِ فتنةً وإلينا ترجعون))** [319] . ومن هنا جاء التسليم بإرادة الله سبحانه وتعالى والإحساس بعنايته نابعين من الإيمان بالقدر ، لأن ((المسلم الذي يؤمن بالتصور الإسلامي على بصيرة فلا يجزع ولا يقلق ولا يضـطرب لما يترقبه من قدر الله لأنه قد سـلّم أمره إلى الله واطمأن إلى إرادته فيه ، واطمأن إلى أنه لا يريد له في النهاية إلاّ الخير ، تهديه في ذلك علاقة المودة لله والحب ، والرغبة المتبادلة من الجانبين)) [320] . وفي هذا يرى معن بن أوس المزني عدم دوام الشـر ولزومه وعلى الإنسان في الدنيا أن يظل مؤملاً الخير في أقسى الظروف حين قال:

فَلَا تَحْسِـــبَنَّ الشـــرَّ ضَـــرْبَةَ لازمِ

ولا الخَيْرَ في الدُّنيا على المرءِ سّـــرْمَدا [321]

ولا يسـتوي الشـاعر المؤمن بالشـاعر الكافر في رؤيتهما إذ يرى عبد الله بن الزبعّرى يوم أُحد في هجائه حسان بن ثابت أنَّ للخير والشر غاية أوجدها الله سبحانه وتعالى ينتهيان إليها ولكل منهما وجهة يوجهها الله فيها وأن العيش ونعيمه لا يدومان لأحد حين قال :

يـا غراب البينِ أَســـمعـت فقـلْ

إنمـا تـنـطـقُ شـــيـئـاً قـد فـعـل

---

(318) شرح ديوانها : 185 ، وينظر مثل ذلك : 234، وديوان عمرو بن معد يكرب : 148، وديوان قيس بن الخطيم : 80.

(319) سورة الأنبياء ، الآية : 35.

(320) منهج الفن الإسلامي : 107-108.

(321) ديوانه : 81.

إن لـلـخـيـرِ ولـلـشـــرِ مـدى وكـــلا ذلـــكَ وجـــه وقـــبـــل

كُـلٌّ بـــؤسٍ ونـــعـــيـــمٍ زائـــلٌ وبـنـاتُ الـدهـرِ يـلـعـبـنَّ بـكُـلّ[322]

وتميم بن أُبي بن مقبل قال بعد إسلامه :

إنـا مشـــائيم إن أرشـــت جـاهِلَنـا

يومَ الطعـانِ ، وتلقـانـا ميـامينـا [323]

لقد مثلت ثقافة الشـــاعر الدينية التي اكتســبها من خلال إيمانه بالدين الإســـلامي والعقائدية الموروثة التي اكتسبها من مجتمعه في العصر الجاهلي بوصفه عضواً فيه وسيلة موجهة لخدمة القضية الإسلامية وقد امتزجت رؤاه الشعرية واختلطت بما هو راسخ في نفسه حتى قيل عن قصـيدته التي اقتطعنا منها هذا البيت إنها من المشـوبات ، ومشـوبات العرب سبع قصائد جياد شابهن الكفر والإسلام [324] .

فالشـاعر اسـتعمل الثنائية المتضـادة (مشـائيم ضـد ميامين) للتعبير عن الثنائية المتضادة (الشر ضد الخير) وقد استعمل مفردة مشائيم وهي جمع مشؤوم وهو الذي يجلب الشر والشؤم والفراق ضد مفردة ميامين وهي جمع ميمون وهو ذو البركة والخير واليُمن ، وقد جاء استعماله مفردة مشائيم مثلما استعملها الجاهليون ، فقد كانوا يعمدون إلى هذا الوهم في مقاومة الحجج والمنطق فكانوا يقولون كما جاء القرآن الكريم بلسـانهم: **((قَالوا إِنَّا تطيْرنا بِكُمْ لئن لمْ تنتهُوا لنرجُمنّكُمْ وليُمسـنّكم منَّا عذابٌ عظيم))** [325] . وقد عدَّ الرسـول محمد ρ الطيرة شركاً تؤدي بصاحبها إلى الكفر الصريح حين قال : **((الطيرة شرك ، الطيرة شرك ، الطيرة شرك))** [326] . ومن هنا نجد خروج الشاعر عن إطار التعبير المألوف إلى التعبير الســـاخر المتهكم الذي ينتقد بلغة لا يمكن الفصـــل معها بين رؤية وأُخرى ، ومن زحمة

---

(322) السيرة : 136/3 –137.

(323) ديوانه: 331.

(324) ينظر هامش ديوان الشاعر : 315.

(325) سورة ياسين ، الآية : 18.

(326) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول : 670/7.

المتناقضات التي تعتمل في داخل الشاعر نجده يوظف ثنائية (مشائيم ضد ميامين) توظيفاً يخدم به الدعوة الإسلامية فهو يحذر أعداء الإسلام من أن المسلمين مشائيم أشرار في الحرب يجرون الشؤم على أعدائهم ، وهم في ذات الوقت ميامين وأصحاب خير وبركة ، لمن يطلب الصلح والسلام معهم .

ويظهر الشاعر المخضرم حسان بن ثابن أُصولاً عالية من الأخلاق الإسلامية المستمدة من روح الإسلام ، حين جَعَلَ مصطلح الشر شاملاً لكل ما هو من الرذائل والخطايا والذنوب وجميعها متمثلة بالكفر حين قال :

أَتَهْجُوهُ وَلسْتَ لهُ بِكُفءٍ

فَشَرُكُما لِخيرِكُما الفداءُ (327)

هَجَوْتَ مُبَاركاً براً حنيفاً

أَمينَ اللهِ شيمتُهُ الوَفاءُ

فمنْ يَهْجُو رسُولَ اللهِ مِنْكُمْ

وَيمدحُهُ وَينْصُرهُ سَوَاءُ (328)

يعلو صوت الشاعر معبّراً عن توحد الثنائيات المتضادة (الشر ضد الخير) و(يهجو ضد يمدح) على الرغم من تضادهما الصارخ مستخفاً بها ، لأنها صادرة من عدوٍ كافر يحمل صفة الكفر ، والكفر هو الشر بعينه ، ولا يحتمل صدور الخير منه ، لذلك استوت لديه هذه المتضادات فكانت حافزاً قوياً للتحدي المضاد لإبراز مستوى عالٍ من التميز والتفوق في المجال الأخلاقي والإجتماعي ، اتخذه الشاعر منفذاً للتعبير عن الإحساس بالحب وبالقيمة الجليلة التي يحملها النبي محمد ρ ؛ لأن أول شرائط عمل الخير لدى الأفراد هو التعرف على بنية واقعهم ورسم صورتهم من خلاله ، وقد أظهر الشاعر قدرة متميزة على حماية ذلك التميز والتفوق ، لأن هناك تداخلاً بين كيان النبي محمد ρ وجماعته ، وأن كيان هذه الجماعة يظهر بفعالية أفرادها وقدرتهم على الدفاع عنها .

ويبدو أن الأخلاق الفاضلة عند بعض الشعراء المخضرمين هي أثر من آثار التغييرات التي أحدثها الإسلام ، وقد عمل صفاء نفوس بعض الشعراء الذين صاروا

---

(327) عدَّ العلماء هذا البيت أنصف ما قالته العرب في الهجاء . ينظر ديوان المعاني :191/1.

(328) شرح ديوانه : 64.

يستشعرون المعاني الإسلامية الروحية ويتقيدون بما جاء به الإسلام من أخلاق فاضلة جعلتهم يدافعون عنها في شعرهم ، فهذا هدبة بن خشرم قال :

ولا أبتغي الشرَّ والشرُ تَارِكي

ولكن متى أُحملْ على الشرِّ اركبِ (329)

يفخر الشاعر المخضرم في العصر الإسلامي بكره الشر وابتعاده عنه، وبميله إلى الخير وحبه له ، أما إذا حلَّ الشر بساحته فإنه حين ذاك لا يتوانى عن مقابلته بالشر حفاظاً وصوناً لكرامته .

وقد نجح أبو الأسود الدؤلي في شكر صاحبيه من خلال استعماله الثنائية المتضادة (الخير ضد الشر) وقد كان حريصاً على أن يكون معجمه اللغوي في هذا النص قريب المأخذ بعيد المرمى ، لأن الكلام السهل أقدر على التأثير في النفس وإحداث التخيير المناسب لشد السامع إلى الغرض لاتخاذ الموقف المناسب حين قال:

أميران كانا صاحبَيَّ كلاهُما

فكلٌ جزاهُ اللهُ عني بما عَمِلْ

فإن كانَ خَيْرَاً كانَ خيراً جزاؤهُ

وإن كانَ شراً كانَ شراً كما فعلْ (330)

(الخير ضد الشر) لفظان متضادان جمع الشاعر بينهما لإظهار تناوب الحركة واستمرارها في دلالة المعاني المتضادة ، وقد استعمل الشاعر صيغة الشرط ، لأن فيها ترابطا واجتماعاً بين الشرط وجوابه ؛ لأن حصول الأول يستلزم منطقياً حصول الثاني ، وهذا متأتٍ من التأثر بالقرآن الكريم في قوله تعالى : ((**فمَنْ يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومَنْ يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره**)) (331) .

ويرى الشاعر ذاته في شأن صدور الخير عن النفس الإنسانية أن هناك دائماً عائقاً من النفس يحول دون عمل الخير ، وعلى الرغم من إن نزعة الخير مغروسة في النفس

---

(329) شعره : 69.

(330) ديوانه : 135-136.

(331) سورة الزلزلة ، الآيتان : 7-8 .

الإنســـانية ، إلاّ أن ما يعوقها هو أهواؤها وما فيها من ألوان النزعات كالطمع والحرص حين قال :

أراكَ مَتَى تَهمِمْ يمينُكَ مرةً

لتفعلَ خَيْراً تغتصبْها شمالكا [332]

أعتمد الشاعر في هذا البيت على المتضادات الملموسة (يمينك ضد شمالك) لإثبات وجود الثنائية المتضادة والمتصارعة (الخير ضد الشر) وهي من المتضادات المحسوسة، واختار لها بيئة واحدة هي اجتماعهما في الشخصية الإنسانية وقد جاء هذا الأمر بتأثير نزعته العقائدية الموروثة من العصر الجاهلي ، فقد كان الناس يتفاءلون باليمين ويتشاءمون من الشمال ((نظراً لطبيعة الحياة الصحراوية ومتاعبها فإن ريح الشمال كانت قاسية على مَن في الصحراء صيفاً وشتاءً ، فتذمر العرب منها وذموها ، وتبعاً لذلك أصبحت الشمال عند العرب تمثل موضوع الشؤم والتطير والمنزلة السيئة والضعف ، وفي المقابل أصبحوا يميلون إلى اليمين ممثلاً بالخير والتفاؤل والبركة والقوة)) [333] . وربما يكون هذا التضاد مأخوذاً من نزعته الدينية المتأثرة بالقرآن الكريم وهذا هو الأرجح ، فأصحاب اليمين هم المؤمنون المتقون في الدنيا وهم الذين يستحقون الجنة ، أما أصحاب الشمال فهم الكفار الذين يكون مصيرهم النار في الآخرة [334] ، قال تعالى : **((ثم كانَ من الذينَ آمنوا وتواصوا بالصبرِ وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة * والذينَ كفروا بآياتِنا هم أصحابُ المشأمة* عليهم نارُ مؤصدة))** [335] والذي يتجلى لنا من خلال تتبع شعر أبي الأسود الدؤلي أن مجموع آرائه تشكل فصلاً خاصاً في التربية الإسلامية الفاضلة ، وتربية المُثل العليا .

ومن هنا نرى أن الشعراء المخضرمين قادرون على التحويل والتبديل ، وقدرة التحويل والتبديل موجودة في زوبعة الثنائيات المتضادة التي تدفع النفوس إلى سبيل الرشاد والخير ، والعلو بها نحو أهداف سامية ، واختيار الطريق السليم جعلهم قادرين على ضغط مراحل

---

(332) ديوانه : 142.

(333) الألفاظ الإسلامية وتطور دلالتها : 40.

(334) ينظر التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم : 531-532 .

(335) سورة البلد ، الآيات : 17-18-19-20.

زمنية كبيرة ، إذ قضـــى على كثير من المشــكلات الأخلاقية والإجتماعية المعقدة التي كان المجتمع الجاهلي يعاني منها .

المبحث الثاني
الثنائية المتضادة (الصدق ضد الكذب)

((الصـــدق نقيض الكذب)) [336] والصـــدق هو مطابقة الكلام للواقع وهي حقيقة علمية يراد بها ((صدق الفعل لأنه يعني موافقة أو مطابقة وقائعه للواقع)) [337] وهو بذلك يتباين مع الحقيقة الأدبية التي لا تعتمد على برهان خارجي بل تسكبها العاطفة حية نابضة في قلوب متلقيها ، وهي نتاج الشعور الفردي للشاعر الذي يعرضها فتكون فاعلة مؤثرة في النفوس مما تدفع متلقيها إلى قبولها أو رفضها .

وقد كان للشعر دورٌ بارزٌ في حياة العرب في الجاهلية إذ كان الشاعر حين يمدح أو يهجو يذهب كلامه مثلاً حتى قيل ((لا شيء أسبق إلى الأسماع ، وأوقع في القلوب وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر ، وشعر نادر)) [338] . وبهذا يكون الشعر قادراً على الحطِ من منزلة قوم كانت لهم منزلة رفيعة ، ويرفع من منزلة قوم آخرين لم تكن لهم منزلة تذكر ، فبنو آنف الناقة كانوا يخجلون من لقبهم هذا ، ولا يريدون أن يذكروا به حتى مدحهم الشاعر المخضرم الحطيأة في قوله :

قومٌ هم الأنف والأذناب غيرُهُمُ

ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا [339]

فصارَ بعد ذلك لقبهم فخراً لهم ومدحاً [340] ، ويذهب الشعر في الجاهلية إلى أكثر من ذلك إذ أنه يصبح قادراً على أن يحط من منزلة القوم ثم يعود ليرفعها في ذات الوقت في أبيات تسير بين العرب ، فبنو عبد المدان كانوا يفخرون بطول أجسامهم وقديم شرفهم حتى هجاهم حسان بن ثابت حين قال :

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عَظم

جِسُمُ البِغَالِ وأحلامُ العصافير [341]

---

(336) لسان العرب ، مادة (صدق) .

(337) من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم : 145 .

(338) كتاب الصناعتين : 141.

(339) ديوانه : 93 .

(340) المصدر نفسه : 94 .

(341) شرح ديوانه : 270.

فقالوا له يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحيي من أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت فقال فيهم :

وقد كنا نقولُ إذا رأينا

لذي جسم يُعدُّ وذي بيانِ

كأنكَ أيها المعطي بياناً

وجسماً من بني عبد المدان[342]

ونخلص من كل هذا إلى أن العرب في الجاهلية لم تكن تحفل بالصدق فيما يقوله شاعرهم ، فقد كان الشعر يسير فيهم لما فيه من قوة بيان ودقة معنى وإذا صحت الرواية القائلة أن حجر بن عمرو الكندي قد قال يوماً لابنه امرىء القيس ((يا بني أحسن الشعر أكذبه ، ولا يحسن الكذب بالملوك)) [343] فهذا يدل على قدم النظرة القائلة ((أحسن الشعر أكذبه)) فلا أهمية بعد ذلك إذا كان ما أنشده الشاعر مطابقاً للحقيقة أَم غير مطابق .

أما بعد مجيء الإسلام فقد تغيرت وتميزت قيمة الصدق عند الشعراء المخضرمين المسلمين ((إذ لولاها لانقطعت الروابط الإنسانية وأعتراها الضعف وعدم الثقة وفقدت العقود والعهود قيمتها في التعامل الإنساني)) [344] ، إذ قال الله تعالى : **((من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه))** [345] ، وقد كثرت الاتجاهات الأخلاقية التي نبه عليها القرآن الكريم والسنّة النبوية ونهوا عن نقائضها ، إذ قال تعالى في أصحاب رسول الله : **((وينصرونَ اللهَ ورسولهُ أولئكَ هم الصادقون))** [346] . وقال النبي محمد ρ : **((إنَّ الصدقَ برٌّ وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة وإنَّ العبدَ ليتحرى الصدق حتى يكتبَ عند الله صديقاً وإنَّ الكذب فجور وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النار وإنَّ العبد ليتحرى الكذب حتى يكتبَ عند الله كذاباً))** [347] . وبهذا النفس الإيماني الذي جاء به الإسلام أصبحت دعوة الشعراء صريحة تدعو إلى النطق بالصدق ، وعدم الإيغال في الوصف أو الإنجراف وراء العاطفة التي قد

---

(342) ينظر هامش شرح ديوانه : 270.

(343) الإعجاز والإيجاز : 62 .

(344) القيم الخلقية والاجتماعية في الشعر العربي في صدر الإسلام : 296.

(345) سورة الأحزاب ، الآية : 23.

(346) سورة الحشر ، الآية :8.

(347) صحيح مسلم : 29/8.

تقودهم إلى الوهم والخيال الذي يخالف الصدق ، وبذلك لم يعد (أحسن الشعر أكذبه) كما كان بل صار كما يريد الإسلام وكما جاء في قول حسان بن ثابت :

وإنَّما الشّعْرُ لُبُّ المرءِ يَعْرِضُهُ

عَلى المَجَالِسِ إنْ كَيْساً وإن حُمقا

وإنَّ أشعر بيتٍ أنتَ قائلُهُ

بَيْتٌ يقال إذا أنشدتَهُ صَدَقا (348)

وبذلك صارَ الحديث في الشعر يستقيم مع الحقيقة ولاسيما إذا كانت مقدسة مع الخط البياني المتصاعد للانفعال الشعري المتجمهر في بؤرة الإشعاع الواعي للحظة الشعرية المتكونة في أثناء التعاطي مع كيان سماوي ، ذي خصوصية بلغت حد التقديس المطلق أو كادت ، ولعل تأكيد إبراز أقدس جانب تتركز عليه حقيقة ذلك الكيان بل تلك الأفكار برمتها يُعدُّ أمراً مهماً ؛ فحينما نتعامل معه ؛ ونحاول تعاطي وصفاً من أوصافه أو الدخول إلى جزيئة من جزئياته التي أكد الخالق امتلاكه لها ، أو ضرورة امتلاكه لها. لذلك نجد الثنائيات المتضادة حاضرة في قول رافع بن عميرة (349) حين قال :

فألفيتُ النبيَّ يقولُ قولاً

صدوقاً ليسَ بالقولِ الكذوبِ

فبشرني بدينِ الحقِ حتى

تبينت الشريعةَ للمُنيبِ

وأبصرتُ الضياءَ يضيءُ حولي

أمامي إنْ سعيتُ ومن جنوبي (350)

وهذا الحضور قد جاء حضوراً كلياً عبر صوت لا ينكفىء في دواخل تقتات على بقايا صمتٍ ، أو أسطورة بليدة ... لذا نجد (الصدق ضد الكذب) ضدين قصدهما الشاعر، فعمد إلى الأَول بالإثبات ناحياً فيه صوب صيغة المبالغة بنائياً ـ الحقيقة باطنياً ـ في وصف النبي محمد ρ فقال (قولاً) ووصف الأول القول (بالصدوق) زنة فعول ، ولم يحتج إلى أية

---

(348) شرح ديوانه : 348.

(349) كان رافع بن عميرة الطائي نصرانياً ، ومن اللصوص في الجاهلية ولما جاء الإسلام كان لإسلامه حكاية ذكرها في شعره هي أن الذئب كلّمه ودعاه إلى إتباع دين محمد ρ ويبشره بنصرة من اتبعه فأسلم ، ينظر أُسد الغابة : 241/2.

(350) أُسد الغابة :241/2، وينظر مثل ذلك شرح ديوان حسان بن ثابت : 71.

مؤكدات لترسيخ ذلك المعنى وتأكيده ، ولكنه حينما نفى الضد احتاج إلى التأكيد من جهة الموصوف بل من جهة الموصوف لهم مجانساً بين الصفتين (صدوق ضد كذوب) بنائياً غير أن فارقاً أسلوبياً اندلعت منه الصورة على صهوة المعنى ففي إثبات صفة الصدق وصف بالمصدر الموصوف (قولاً صدوقاً) وهو أثبت في تقرير المعنى وتأطير الصورة مما يدل على أن هذه الصفة مسلّمة لا تحتاج إلى برهان يظهر أبعادها لما تحقق في النفوس من الإيمان بها ، في حين أن نفيها يأتي دعماً لموقف سماوي منصوص عليه في القرآن الكريم ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ρ بالصدق في قوله : **((وما ينطقُ عن الهوى * إن هُو إلاّ وحيٌّ يوُحى))** [351] . وقد ((كان مشهوراً بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه ، وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه)) [352] . كما أن الممارسة الحية الواقعية للنبي محمد ρ كانت قد قررت مسبقاً إثبات صفة الصدق للنبي محمد ρ على الرغم من رفض الواقع في إثبات صفةٍ ما لأحد ما أو سلبها منه .

وبما إنَّ الإسلام التزم وشجع ما يوافق الخلق القويم والفضائل الإنسانية ، ورفض ما يتنافى مع المُثل والقيم والأخلاق الإسلامية ومبادئها السامية ، لذا نجد عاتكة بنت عبد المطلب [353] تلوم الكفار لتكذيبهم لها واستهزائهم بها حين قالت في رؤياها التي رأت في غزوة بدر :

ألم تَكُ رؤيايَ حَقَّاً وفاتكُمُ
بتأويلها فلّ من القومِ هاربُ
رأى فأتاكم باليقينِ الذي رأى

---

(351) سورة النجم ، الآيتان : 3-4.

(352) عبقرية محمد : 17.

(353) هي عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله محمد ρ شاعرة مخضرمة لها شعر قبل الإسلام وبعده ، ينظر شعر المخضرمات بين الجاهلية والإسلام : 79.

فقلتم ولم أكذبَ عليكم وإنما بعينيهِ ما يَفري السيوفُ القواضِبُ

يُكذبني بالصِدقِ من هو كاذبُ (354)

إنَّ المتضادتين (الصدق ضد الكذب) اسمان للقائل أو للقول ، ولكن الاعتياد عليهما يغرس في النفس صفة الصدق أو الكذب ، لذا فإن صدق الحديث من لوازم إكتمال أخلاق المرء عند الشاعرة ، لأنهم يعدونه منجاة ، وما ذلك إلاّ لإيمانهم بأن الصدق هو حال تقترن بالروح النقية الطاهرة , وضده الكذب الذي هو أبغض الأخلاق وأذمها عندهم، وما ذلك إلاّ لإعتقادهم أن الصدق يجلب لصاحبه كل فضيلة ، والكذب يجلب لصاحبه كل رذيلة ، فكيف بالكافر الذي يكذب هازلاً ؟ لا بد أن يكون أشد جهلاً وأكبر جريمة لأنه يهزأ بحرمات الله وحرمات الأخلاق وهو مهتوك الحرمة لأنه متجاهر بالأثم ، ويتعدى الأمر ذلك إلى كون (الصدق ضد الكذب) ضدية على أساسها ومنها تتشظى باقي المتضادات الأخرى المشعة في مساحة المتن الشعري المرصود .

والذي نلحظه في الشعر الإسلامي للمخضرمين ، أن كثيراً منهم مَنْ تأثر بأسلوب القرآن الكريم ، وما يتضمنه من معانٍ سامية ، فحسان بن ثابت وهو شاعر الرسول محمد ρ ، كان قد استوعب المعاني القرآنية ، فاستطاع أن يفرغها في شعره في قوله :

يا أَيها النَّاسُ أبْدوا ذَاتَ أنفسِكُمْ

لا يستوي الصِّدقَ عندَ اللهِ والكَذِبُ (355)

بدءاً لا بد من الإشارة إلى التأثر الأسلوبي الواضح في النص بأسلوب الخطاب القرآني الذي أعتاد على استهلال خطابه بعبارة (يا أيها ..) ولاسيما في الطور المكي (المرحلة المكية) وقد تولد من الخطاب الديني هذا (الشعر الديني) وبدا التركيز جلياً على ضديتين (الصدق ضد الكذب) إذ هما أساس بناء كيان الإنسان بالنسبة للصدق ، والمعوّل الذي يهدم به ذلك الكيان بالنسبة للكذب ، وقد ورد في الخطاب الديني تغليظ وتشديد على التمسك بالصدق قيمةً ، كونها أساس القيم الأُخرى ، بل لكونها أساس هذا الخطاب الذي تبناه شاعر الرسول محمد ρ لا يخرج عن إطار عام ونظرية قرآنية صرفة عرضها الشاعر

---

(354) معجم ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام : 121.

(355) شرح ديوانه : 78 .

من خلال شعره بل هي فكرة أن التغير يبدأ من الذات ، وهو ما نص عليه قول الله عز وجل **((إنَّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفُسِهم))** [356] .

وتابع لبيد بن ربيعة حسان بن ثابت في الامتثال لمعاني القرآن الكريم وأسلوبه، إذ قال :

واكذبِ النفسَ إذا حَدَّثتها

إنَّ صدقَ النفسِ يُزْري بالأَمَلْ

غيْرَ أن لا تَكْذِبَنها في التُقى

وأَخرُهَا بالبرِّ للهِ الأجلْ [357]

إنَّ البداية مع مجتمع ما تكون خطرة وصعبة ، لأننا يجب أن نبدأ بالجزئيات نحو الكليات لأجل إعداد النفوس إعداداً منطقياً واعياً مبنياً على أساس تفعيل القيم الروحية المتوطنة في النفوس ، القابعة في مديات الصراع الممتد من الجاهلية إلى الإسلام ، فالشاعر في وصف سعيه في البيت الأول إلى السمو وهمته وطلبه الأمور العظيمة من خلال استعماله مفردة الضدية الأولى (أكذب) في الثنائية المتضادة (أكذب ضد لا تكذبنها) التي عاد وتراجع عنها في المفردة الثانية للضدية نفسها بقوله (لاتكذبها) ليؤكد من خلالها أنّه قانع بها إذا اتقت ربها في حين لا مناص من تكذيبها في غير ذلك ، وفي هذا ما يدل على أن ذات الشاعر قد اختلفت في وقت عنها في وقت آخر مما جعل كلامه هو الآخر مختلفاً في ظرف معين عنه في ظرف آخر ، إذ ليس الشاعر مطالباً دائماً بأن يقول الأفكار نفسها والأحكام ذاتها ، وإلاّ كانت أشعاره تكراراً لا طائل منه ، ولكن ذات الشاعر هنا متلونة متغيرة بتلون ظروفها وبيئتها ومواقفها ، وبهذا يكون الشاعر قد وضع المعاني في مواضعها التي تليق بها بعد أن تغير موقفه إذ استثنى النفس التي تتمسك بتقوى الله سبحانه وتعالى من أن تكذب ، وفي هذا قال الرسول محمد ρ عندما سئل **((المسلم يسرق ؟ قال : نعم قالوا المسلم يزني ؟ قال : نعم قالوا المسلم يكذب ؟ قال: لا))** [358] .

---

(356) سورة الرعد ، الآية :11 .

(357) شرح ديوانه : 180.

(358) لم أجد الحديث في الصحيحين ولا في المساند ولا في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، لذا خرّجته من الموطأ : 990/2 حيث ورد .

دأب الناس على حصـر الثنائية المتضـادة (الصـدق ضـد الكذب) في نطاق الكلام المنطوق والكلام المكتوب . ولكن الواقع أنَّ الصـــدق والكذب يتســـعان لأكثر من هذين المجالين إلى مجال السلوك الذي تنتهجه الشخصية ، فقد تجلت الثنائية المتضادة (الصدق ضد الكذب) عند الشعراء المخضرمين الإسلاميين من خلال تعاملهم الاجتماعي فهو من الأدلة الدامغة على إخلاصهم وتمكسهم بفضيلة الصدق التي لها أثر كبير في إقامة حدود الله وتجنب نواهيه ، وبذلك نالوا النصر والعزّة .

أما المشركون فقد ضلّوا عن سواء السبيل بتكذيبهم للنبي محمد ρ فكعب بن مالك قال :

مَنْ يتبعْ قولَ النبي فإنه
فينا مطاع الأمرِ حقٌّ مصَدقِ
فبذاك ينصرنا ويُظهرُ عِزنَا
ويصيبُنا من نَيلِ ذاكَ بِمَرْفَقِ
إنَّ الذينَ يُكذّبونَ محمداً
كَفَروا وضلّوا عن سبيلِ الُمتقِي [359]

والشاعر المخضرم بشر بن قطبة [360] يدخل عنصر اللاوعي في عمله الأدبي غير أنه يعمل جاهداً في احتوائه وتقييده حيث نرى ارتكاز النص على آثار الغي الواقعة عليه من طرف الثنائية المتضادة (الأنا ضد الآخر) وهو المنافق مما أدى به إلى تحريك شعوره ونفسه دون عقله واعتقاده فقال :

اقولُ لنَفْسي بَعْدَ ما رَقَّ بالها
رُوَيْدك لَمَا تَشَقَقَنَ حِينَ تُشَقِ
وكوني مع الراعي وصاة محمدٍ

---

(359) ديوانه : 247.

(360) بشر بن قطبة بن سفيان الفقعسي وهو شاعر فارس مخضرم ، شهد اليمامة في عهد أبي بكر τ مع خالد بن الوليد . ينظر الإصابة : 344/1.

وإنْ كذبتْ نفسُ المنافِقِ فاصْـدِقي [361]

سـعى الشـاعر إلى تصـوير حالة القلق الفكري التي كان يعيشـها من خلال توظيفه للثنائية المتضـادة (كذبت ضـد اصـدقي) فيها اسـتطاع الشـاعر أن يُظهر ذلك التناقض الذي راود نفسـه ، فقد أحسَّ في داخله شـيئاً من التردد والقلق على الرغم من إيمانه بالله سـبحانه وتعالى وبرسـوله محمد ρ ؛ لذا نراه يخرج من ميدان نفسـه بتجريدها إلى ميدان الأنا ، حين واصل حواره معها فأوصاها أن تسلك سبيل أصحاب رسول الله ρ وتثبت على الحق وتخالف نفس المنافق الذي هو الطرف الآخر من ثنائية (الأنا ضد الآخر) التي تطالبه بترويج الكذب في ما جاء به رسول الله ρ .

ومن هنا نرى أنَّ الثنائية المتضـادة (الصـدق ضـد الكذب) عبر تاريخها الجاهلي والإسلامي كانت شيئاً وأصبحت شيئاً آخر ، فقد تظافرت على نسجها جملة من الأمور منها المعيار الديني الذي صـاغته أحكام القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشـريفة ، فضـلاً عن طبيعة المجتمع الجديد وأصالته وقيمه .

المبحث الثالث
الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر)

---

(361) الإصابة : 344/1.

الوفاء : وفى يفي وفاءً فهو وافٍ ، يقال وفيَّ فلان بعهدهِ إذا أَتمّهُ [362] ، ويقال إنَّ ((الوفي الذي يعطي الحقَّ ويأخذ الحق)) [363] . والوفاء صفة ترادف الأمانة ، وهو صورة من صور الكرم النفسي .

الغدر هو الصفة المناقضة للوفاء ، وقيل هي ترك الوفاء بالعهد [364] ، والغدر صفة ترادف الخيانة .

إذا أخذ الإنسان هاتين الصفتين (الوفاء ضد الغدر) بالحسبان ولم يجعل لصفة الغدر مكاناً في حياته كان إنساناً سوياً ، لأن الغدر لا يمتُّ بصلة للإنسانية فهو لا يمثل ديناً أو مذهباً ، وبدون الوفاء تنعدم الثقة بين الناس ويقل الأمان ويعتزل الناسُ بعضهم بعضاً ، فالغدر صفة مستقبحة غير مرغوب فيها وقد رفضها بعض رجالات العرب في الجاهلية ، إذ كانوا ((إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول أَلاّ أنَّ فلان بن فلان غدر ، فأعرفوا وجهه ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تستمعوا منه)) [365] . ولهذا عمد الشعراء المخضرمون إلى تسجيل خيانة مَنْ يخون أو يغدر من القبائل أو الأفراد تشهيراً وإظهاراً للخيانة الجماعية أو الفردية على إنها أمر محتقر منبوذ لكي ينفر الناس منها ويبتعدوا عنها .

وقد عاب حسان بن ثابت على قبيلة هوازن الخيانة والغدر وعدّهُ خرقاً لعاداتهم وتقاليدهم حين بات الشاعر يهجو هذه القبيلة ويعطيها وجهاً مغايراً عن وجوه الأقوام الآخرين .

وقد تقاطر أسلوب التضاد مع أسلوب السخرية والهزء لكي يزيد من فعالية الكره والإشمئزاز لهذه الصفة الذميمة ولكي يعود الناس إلى الأمانة والوفاء فقال حسان :

أَبلِغْ هَوَازِن أَعْلاَهَا وَأَسْفلَهَا

أَنْ لسْتُ هَاجِيهَا إلاّ بِمَا فِيهَا

---

(362) ينظر لسان العرب ، مادة : (وفي) .

(363) المصدر نفسه ، والمادة نفسها .

(364) ينظر المصدر نفسه ، مادة : (غدر) .

(365) أسواق العرب في الجاهلية : 324 .

قَـبـيـلـــةٌ أَلأَمُ الأحْـيـــاءِ أَكْـرَمُـهـا وَأغـدَرُ الـنـــاسِ بـالـجـيـرانِ وَافِـيـهـا

وَشَـرُّ مَنْ يَحْضُـرُ الأَمْصَـارِ حاضِـرُها وشـــــرُّ بـاديـــةِ الأعـرابِ بَـادِيـهـا

تُـبْـلَـى عِـظَـامُـهُـمُ إمَّـاهُـمُ دُفِـنـوا تحـتَ الترابِ ولا تفنى مَخـازِيَهـا (366)

الملاحظ في النص تقاطر المتضـادات على نحو يتلاءم مع المرمى الذي قصـد إليه الشاعر وهو الهجاء ، وقد حدا بشاعريته نحو رسم صورة ثلاثية الأبعاد لتجسيد صورة القبيلة المهجوة ثم تأطيرها بكل المقابح والمقادح ، فيورد عبر مسافة الإنفتاح النصي ما يملأ أشداقه من المعاني ليلفظها على القبيلة المهجوة على نحو تشـخيصـي بارع ، فهو يرى أنَّ (أكرم) ما في القبيلة المهجوة هو (ألأمهم) و(أوفاهم) (أغدرهم) وقد اســـتوقفني إتكاء الشـــاعر على صـيغة التفضـيل في بيان المتضـادات ، غير أنَّ ما تؤسـسـه هذه الصـيغة في هذا المتن الشعري لا يراد بها المفاضلة حقيقة ، بل تهويل حجم القبح ، وتفاهة صورة القبيلة المهجوة ، وقد نجانب الصواب لو سمينا مثل هذا البناء التضادي بـــ (التضاد التفضيلي) ، ونريد به الأضـداد التي ترد على صـيغة (أفعل التفضـيل الصـرفية) وهي يراد بها التفاضـل المعروف عرفاً .

ثم أننا لو نظرنا إلى النص من زاوية أُخرى لوجدنا أنَّ قمة التضاد فيه قمة مكانية أي تضاد مكاني (أَعلاها ضد أَسفلها) و(حاضرها ضد باديها) ، وكذلك (تبلى ضد تفنى) حيث ورد الفناء الذي هو ضـــد تبلى بقرينة لفظية هي لا ، كما إننا لا نغفل عن الإشـــارة إلى أنَّ الأضـداد القيمية قد إنحصـرت بين الأضـداد المكانية مما يدل على أَنَّ للبيئة أثرها في تحديد أبعاد المتضـــادات ، وتعيين مدياتها من خلال شـــبكة العلاقات التي يربط بينها المؤشـــر التضادي ، إذ ربما يكون شعاع التضاد واحداً أي ذا أصل واحد أو مرد واحد ، لكنه بعد ذلك يتجمع ليصـبح حزمة من المتضـادات التي تجتمع في مخيلة الشـاعر ليعبّر بها عن حرمانه من مســـاحة الوعي في التأمل ، والتروي والبقاء .. وهذا هو المحمل الذي تُحمل عليه جملة الأضداد التي تقاطرت في شعر حسان بن ثابت ذي التجربة الشعرية المتغايرة (المخضرمة)

---

(366) شرح ديوانه : 486.

، فقد شهد التبدل والتحول الاجتماعي والأخلاقي الذي ألقى بظلاله على مساحة واسعة من فكره وشعره ولاسيما أنه كان يمثل المنبر الإعلامي للدعوة الإسلامية بعد البعثة المحمدية الشريفة .

ويبدو أنَّ جانباً من جوانب الوفاء الذي أَبدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد حيال أخيها صخر امتزج مع مقدار الرعاية التي قدّمها لها في حياته [367] مما حدا بها إلى أنْ تذكره أكثر من أخيها معاوية فهي دائبة في ذكره وذكر وفائه وحرصه على الأمانة والحفاظ عليها فقالت :

سَمحٌ سَجِيتهُ جَزِلٌ عطيتهُ

ولِلأمانةِ راعٍ غيرَ خوَّانِ [368]

الأمانة ضد الخيانة ثنائية متضادة جاءت مفرداتها مرادفة للثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر) وقد حصل التضاد بها إلاّ أنَّ الشاعرة قد انتهكت ذلك التضاد عبر توظيفها كلمة (غير) النافية لتحقق الدلالة المبتغاة .

يكشف البحث عن الثنائيات المتضادة في شعر الشعراء المخضرمين عن قدر هائل من الأخلاق الفاضلة التي حاول الشعراء أن يتلبسوها ويظهروا من خلالها بمظهر الرجال الحافظين الأمانة والعهد ، الكارهين الخيانة والغدر ، الكاتمين الأسرار .

على أنه مهما عرف عن العرب في الجاهلية من فضائل ومكارم أخلاق ، فلم يكونوا يفعلونها لذاتها فحسب ، بل إتقاءً للذم وإجتلاباً للثناء ومحافظة على الحسب والمجد وطلباً لحسن الأُحدوثة .

ولهذا كان فيهم عفة واعتدال وابتعاد عن كل ما يخلُّ بالمروءة والشرف والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ذكرنا بعضها ونذكر قول قيس بن الخطيم يفخر بنفسه :

---

(367) قالت الخنساء ترثي أخاها وتذكر جانباً من كرمه معها .

أَلا يا صخرُ إن ابكيتَ عيني لقد أضحكتني دهراً طويلا

دفعتُ بكَ الجليلَ وأنتَ حيٌّ فمن ذا يدفعُ الخطبَ الجليلا

البيتان أخلت بهما رواية شرح ديوانها لذلك خرّجتهما من أنيس الجلساء : 225–226 حيث وردا .

(368) البيت أخلت به رواية شرح ديوانها ، لذلك خرّجته من أنيس الجلساء : 247 إذ ورد .

يـا عمروُ إنْ تُسْـــدِ الأمـانـةَ بيننـا

فـأنـا الـذي إن خُـنْـتَـهـا يـرعـاهـا

يـا عمرو ليسَ أخو الأمـانـةَ بـالـذي

مَـا رابَـهُ مـن خـطـةٍ أفشـــاهـا

يـا عمرو إنَّ أخـا الأمـانـةِ كـاتمٌ

لو يســـتَطيعَ بجلـدِهِ أخفـاهـا (369)

يعمد الشاعر إلى إشاعة الثنائيات المتضادة في النص ليؤكد معنى من المعاني عن طريق خلق حالة من التضـــاد ، لإبراز التمايز بين المتضـــادات ، فمن المعلوم أنَّ الطبيعة البشرية في تكوينها قائمة على نوع من العلاقات الثنائية لما بين المدركات المحسوسة ، أما الصور الفنية التي تصور معاني ذهنية فـ ((ليس لها ما يقابلها في العالم ـ الحسي سوى ما يبدو من آثارها)) (370) . لذلك حصل التضاد في البيت الأول بين (الأمانة ضد الخيانة) كما حصل في عجز البيت الثاني والثالث بين (أفشاها ضد أخفاها) من أجل خلق صورة ذهنية في عقل المتلقي تشير إلى إنسانية الشاعر وأخلاقه الفاضلة وصفاته الحميدة، لأن العرف الاجتماعي السائد لدى العرب حينذاك كان يدعو إلى المحافظة على الأمانة وكتمان الأسرار ، فقد قال أكثم بن صيفي ((إنَّ سرك من دمك فأنظر أين تريقه)) (371) فالسر بحد ذاته أمانة معنوية ، والإنسان يرتقي بمعنوياته أكثر من مادياته .

وبعد هذا فإنَّ الشعراء المخضرمين قبل الإسلام كانوا كما رأينا على شيء من التفكير الأخلاقي ومعرفة الفضائل والعمل بها .

ولما جاء الإسلام لم يتنكر لكل ما كان عليه العرب من آداب وأخلاق ، بل أقر منها ما رآه صالحاً لبناء أمة وإنهاض شعب ، ونهى عما رآه سيئاً ، وجاءهم فيما جاءهم في قوله

---

(369) ديوانه : 70، وينظر مثل ذلك : 56، 78 .

(370) الصورة الفنية في شعر الصعاليك قبل الإسلام : 168 ، وينظر الصورة في الشعر العربي :28، يعدُّ الدكتور علي البطل الصورة الحسية جزءاً لا يتجزأ من الصورة الذهنية .

(371) عيون الأخبار : 34/1.

تعالى : ((**وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسؤولا**)) [372] . وقوله تعالى : ((**يا أُيها الذينَ آمنوا أوفوا بالعقود**)) [373] .

وقد جسّد الشعراء المخضرمون في العصر الإسلامي القيم الأخلاقية الفاضلة والصفات الإنسانية الحميدة في شخص النبي محمد ρ إذ ((يندر أن نجد في التاريخ وفاءً يشابه وفاء الرسول محمد ρ بل لا نجد مثيلاً في التاريخ كله لهذا الوفاء)) [374] . وبذلك استطاع الشعراء تثبيت صفة الوفاء في شخصه الكريم ونقضهم صفة الغدر التي كان المشركون يتصفون بها ، إذ قال حسان بن ثابت يهجو الحارث بن عوف [375] :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بذِمَّةِ جَارِهِ

مِنْكُمْ فإنَّ مُحمداً لَمْ يَغْدِرِ

إنْ تَغْدِرُوا فالغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ

وَالغَدْرُ يَنْبتُ في أُصُولِ السَّخْبَرِ

وأمانةٌ المُرّيّ حَيْثُ لقيتَهُ

مِثلُ الزجَاجةِ صَدْعُها لَمْ يُجْبَرِ [376]

اتخذ الشاعر من نفس المهجو الفضاء الذي يدور فيه التضاد ، إذ قابل بين (يغدر ضد لم يغدر) فقد جعل المتضادة تتصارع في نفس المهجو ، لأن الجمع بين اللفظة وضدها ((يسهم في خلق تواتر إيقاعي يمكن أن يكون عنصر جذب في القصيدة)) [377] وقد زاد من عمق هذا التضاد في نفس المهجو أسلوب الشاعر في عرض هذه الثنائية فهو يعمل إلى تقرير حالة الغدر عندهم ، إذ شببها قائلا (مثل الزجاجة صدعها لم يجبر) ، مما حدا

---

(372) سورة الإسراء ، الآية :34.

(373) سورة المائدة ، الآية : 1.

(374) الرسول القائد : 240.

(375) الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري رجل من المشركين قدم على النبي محمد ρ وأعلن إسلامه أمامه وبعث معه النبي ρ رجلاً من الأنصار إلى قومه فقتل الانصاري ولم يستطع الحارث حمايته ، ينظر هامش شرح ديوان حسان بن ثابت : 266 .

(376) شرح ديوانه : 266– 267. السخبر: نوع من الشجر إذا انتهى استرخى رأسه ولم يبقَ على استقامته وهو لا يثبت على حال .

(377) المناسبات في الشعر العربي الحديث : 126.

بالمهجو أن يتعامل معها ويركز جهده على تفنيدها ، لذا جاء إلى النبي محمد ρ وطلب منه الإجارة من شعر حسان إذ قال : (أجرني من شعر حسان فوالله لو مزج به ماء البحر لمزجه) [378] وهنا نجد أنَّ حساناً يشكك في توجه الحارث ونيته إذ يغوص في الأدلة التي تكشف عن الغدر الثابت والمقيم الذي لا يمكن رتقه مهما فعل .

العتاب هو طلبك إلى المسيء ، الرجوع عن إساءته [379] ، وهو شاهد من شواهد المودة ودليل على الوفاء بين الناس إلاّ أن فيه شيئاً من المخادعة إذا مازجه بعض الهجاء، أو قد يكون سبباً من أسباب القطيعة والجفاء إذا كثر وخشن جانبه وثقل صاحبه ، وإذا قلَّ كان أدعى للألفة وإدامة الصحبة [380] ، وهذا كله يعتمد بدوره على المعنى الذي يرتكز عليه الشاعر في عتابه ، فحُميد بن ثور τ يقف عند صورة الأمانة والوفاء يمتدحها ويشيد بها ليوجد انموذجاً يقتدى به في بيئته الجديدة التي ترفض الغدر والخيانة وتضع لها عقوبة دنيوية وأُخرى أخروية وهو يُذكر الخائن أَنَّه سيلقى يوماً ما حساباً عسيراً عند الله تعالى فقال :

خَليليَّ إني مشتك ما أصَابني
لِتَسْتَيْقِنَا مَا قَدْ لَقيتُ وَتَعلَما
أُمليكُما إنَّ الأمانةَ مَنْ يَخنْ
بِها يَحتَمِلْ يوماَ مِنَ اللهِ مأثَمَا
فلا تُفشيا سِرّي ولا تخذلا أخاً
أبثكُمَا مِنهُ الحَدِيثَ المُكَتَمَا [381]

المكونات الفنية في نص حُميد بن ثور تقوم بدور فعّال في توضيح حركة العلاقات الداخلية للنص وتفعيلها ، الأمر الذي يجعل الأضداد من العناصر المؤسسة للبنية الحركية في نص الشاعر ، وهذا ما تجلى من خلال البنية الحركية للتضاد الذي يجتمع فيه الأسم والفعل ، ففي الثنائيتين المتضادتين (الأمانة ضد يخن) و(تفشيا ضد المكتما) نجد المفارقة بين الثبات والديمومة من جهة أولى ، والحيوية والتجدد من جهة ثانية ، فالأسماء أو الصفات

---

(378) أدباء العرب : 281/1.

(379) ينظر لسان العرب ، مادة : (عتب) .

(380) ينظر العمدة : 160/2.

(381) ديوانه :28 ، وينظر مثل ذلك ديوان ابن مقبل : 298، وشرح ديوان حسابن بن ثابت : 396.

تدل على الثبات والتقرير لحالة الشاعر المستقرة وهي التي تشكل المحور الإرتكازي الذي تدور حوله المتضادات وقد تجلت فيها كل معاني الأخلاق النبيلة .

من المعلوم أنَّ الهجاء يظهر المعاني السلبية ، لأنه يقابل المُثل والمناقب والصفات الكريمة التي كان الشعراء يبنون عليها مدائحهم ، لذلك فإن لهذا الأسلوب أثراً ووقعاً شديداً في نفس المهجو ، وهو من أكثر الأساليب هجاء ؛ لأنه يجرد المهجو من معاني القيم والعادات الكريمة التي يحافظ عليها الإنسان العربي ، فكلما كثرت أضداد المديح كان الهجاء أمر وأشد [382] فكان لا بد من أن تدخل ضمن هذا الفن جملة تغييرات تشتمل على المعاني والأفكار والصور حين انضوى الشعراء تحت راية الإسلام ، وربما يعد هذا من الأغراض التقليدية التي طرأت عليها التغيرات بصورة كبيرة منذ أن أُستعمل الشعر وسيلة من وسائل الدفاع عن مبادىء الدين الإسلامي [383] ، فهذا النمر بن تولب تنازع مع رجل من بني ربيعة اسمه وهب ، في بئر تدعى (الدحول) وهي في أرض عكل ، وقيل إنما نزاعهما أن النمر سقاه فلم يشكر له فلم يزد أن قال فيه :

يُريدُ خِيانتي وَهْبٌ وأرجو ... من اللهِ البراءَة والأمانا

فإنَّ اللهَ يعلمني ووهباً ... ويعلمُ أنْ سنُلقاهُ كِلانا

وأنْ بني ربيعةَ بَعْدَ وهبٍ ... كراعي البيتَ يَحْفَظُهُ فخانا [384]

من خلال تحليل الألفاظ الداخلة في الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر) تتضح لدينا ثنائية (الخيانة ضد الأمانة) وهي من مرادفاتها ، وهاتان المتضادتان من الصفات التي تنسب إلى الإنسان بالسلب والإيجاب ، فالخيانة تستوجب نقيضاً لها وهو الأمانة ، ومن خلال النظر إلى متون المعاني المتجمهرة في النص نستشف علاقة التضاد التي بها يمكننا

---

(382) ينظر نقد الشعر : 92.

(383) ينظر ديوان ابن مقبل : 76 حين قال :

لَوْ لا الحَياءُ ولو لا الدِّينُ عبتُكُما ... ببعضِ ما فيكُما إذ عبتُكما عَوري

(384) شعراء إسلاميون ،شعره : 394– 395.

أَنْ نكتشف علاقة مهيمنة على النص تضمها المقابلة بين اللفظتين المتضادتين مشيرة إلى أهمية الصفة لدى الشاعر ، فالخيانة هي اللفظة الإرتكازية التي حاول الشاعر إظهارها في صراعه مع المهجو ، فقد كررها مرتين وقد أشرك قبيلته معه فيها على الرغم من إسلامها لعله يجعلها تقوم بنبذه وطرده من المجتمع الإسلامي ، وبذلك يكون قد حقق ما يريد بإشاعة أحد النقيضين .

ويظلُ الباب مفتوحاً لصور جديدة في شعر الشعراء المخضرمين فيها أشكال من صور التضاد السياقية ؛ لذا كانت كثيرة ، لأن أغلب صور التضاد السياقية جاءت لضرورة إنبجست عنها صورهم الشعرية المتضادة وهي تحمل بين طياتها ثقلاً فكرياً جديداً يهفو الشاعر من ورائه إلى تعيين الدلالة الموروثة ، فكعب بن زهير في أثناء دعوته قومه إلى الإسلام بعد أن عرف الحق وآمن به ليظهر الفرق بين ما يكون عليه حال المسلمين من الالتزام بالعهد والوفاء به وبين ما كان عليه حال قومه المشركين من الغدر والخيانة وعدم التمسك بالعهود ، قال :

لَشَتَانَ مَنْ يَدْعُو فَيُوفي بِعهْدِهِ

ومَنْ هَوَ للعهدِ المُؤكَّدِ خالِعُ (385)

فيوفي هذه المفردة الأولى من الثنائية المتضادة (الوفاء ضد الغدر) التي يقابلها في جداول المتضادات المعجمية (يغدر) لكن الشاعر عدل عنها إلى مفردة خالع وهي نتيجة للغدر الواقع عليها ليصل إلى غرضه بسرعة وخفة ، فبدلاً من أن يقول لقومه الذين يدعوهم إلى الإسلام أن المسلمين أصحاب وفاء وقد وقع عليهم الغدر من جانبكم خفف الشاعر جملته الشعرية وابعد لفظة (يغدر) وجاء بلفظة خالع التي يختفي بين حروفها معنى الغدر (اللفظ المبعد) لأنه لم يكن يريد أن يكون فظاً غليظ الجانب معهم آملاً في هدايتهم ، إذ استبدلها بهذه اللفظة لكي يجعل وقعها أخف عليهم وليجعل قلوبهم ترق وتلين للدخول في الإسلام وتؤمن بالله سبحانه وتعالى .

وفي الختام لا بد من أن نقول إن وجود الثنائيات المتضادة في شعر الشعراء المخضرمين بهذه الكثرة يرجع إلى الإنقلاب والثورة الفكرية التي حدثت في حياتهم ، مما

---

(385) شرح ديوانه : 113.

جعلهم يقيمون موازنـة في أحوالهم الاجتمـاعيـة والأخلاقيـة فظهر لهم الفرق بين حـالهم في الجاهلية والإسلام .

الخاتمـــة :

بعد هذه الرحلة الشــاقة في كتب التراث والأدب ودواوين الشــعراء المخضــرمين ومن خلال البحث عن الثنائيات المتضـــادة في متنهم الشـــعري ، اتضـــح لديَّ تأثيرها العقلي والوجداني سـواء أكان ذلك في العصـر الجاهلي أم في العصـر الإسـلامي ؛ إذ مثّلَّ نتاجهم

الشعري الحقيقة والتجربة وأسفرت تلك الثنائيات عن الاصطراع النفسي الذي تنازعته نفوسهم بين واقعها الكائن الذي قيّد حدودها والواقع المثالي الذي أقره الإسلام ؛ ولعل هذا التنازع بين الواقعين الممثل الحق لموضوع البحث ، ووصلت إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها على النحو الآتي :

- لم تكن الثنائيات المتضادة في شعر المخضرمين بارزة وواضحة وإنما مبثوثة في طيّات قصائدهم ومقطوعاتهم وأبياتهم الشعرية .
- إنَّ الثنائيات المتضادة ظاهرة شائعة في الكون والطبيعة وتدخل في تنظيم فعاليات الإنسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، وهي وليدة ظاهرة التضاد؛ إذ إن الشاعر في إيراد الثنائيات المتضادة يسعى إلى بناء هيكل صوريّ يزداد تأثيره وتبرز جماليته بالإتكاء على التضاد .
- أظهر البحث أن المعنى اللغوي لكل ثنائية متضادة كان ذا دلالة معجمية ثابتة في العصر الجاهلي على أنه ذو دلالة اصطلاحية تتسع أو تضيق في العصر الإسلامي .
- شكّلت الثنائيات المتضادة حضوراً في نواحي الحياة كافة ؛ إلاّ أنها تميزت في الجانب الفكري بنطاق واسع .
- تقوم الصور التقابلية في ثنائية الحياة والموت على أساس توافق الثنائيات المتضادة وتخالفها ؛ لتكوين مشهد واضح ودقيق .
- غيّر الإسلام فلسفة الشاعر المخضرم في النظر إلى الثنائية الحياة والموت بتغيير مشاعر الشعراء بإزاء قضية الموت ؛ فتحولت هذه الثنائية إلى بُعد جديد يحفز الشعراء للتعبير عن هذه الثنائية بمعانٍ وتصورات جديدة لا عهد للشاعر الجاهلي بها .
- كان للبيئة الصحراوية والبدوية أثر كبير في تشكيل الثنائيات المتضادة ولاسيما ثنائية (الشيب والشباب) .
- أسفر البحث في الثنائيات المتضادة في المناحي الاجتماعية عن تحول في الوضع الاجتماعي من وضع سابق في الجاهلية يتسم بالانغلاق والجمود إلى وضع لاحق يمتاز بدفق الحياة .

- تجلّت الثنائيات المتضادة على مستوى الصورة الشعرية الكاملة ولم تبقَ محصورة في الألفاظ المتضادة .
- كان للعوامل الاجتماعية تأثير فاعل في تشكيل الصورة الشعرية القائمة على وفق الثنائيات المتضادة ولاسيما ما نجده في ثنائية (الحلم والسفه) و (البغض والحب) و(الفقر والغنى) .
- شكّلت ثنائية الطاعة والعصيان إطاراً لرؤية الشاعر الاجتماعية والسياسية من جهة واستطاعت أن تطور مواقف الشعراء بعد التغير الإسلامي لما بثه الإسلام من فلسفة جديدة في معاني الطاعة والعصيان من جهة أخرى .
- ظهر من خلال استعمال الشاعر المخضرم الثنائيات المتضادة أنه جعل المتضادة الرئيسة منها متخفّية في بعض متضادات النص الفرعية .
- وجدتُ في البحث أن فلسفة الشاعر المخضرم في عصره الجاهلي حول الكرم تتجلى في الخوف من المجهول والحاجة الاقتصادية ؛ ففعل الإعطاء يمثل بصورة رمزية فعلاً تكافلياً وهو ما جعل الشعراء يبالغون في تصوير الكرم بشكل إيجابي وتصوير البخل بشكل سلبي لتعميم فلسفتهم في الكرم وجعلها واقعة اجتماعية .
- كشفت ثنائية الفقر والغنى أثر الصراع الطبقي الواضح في شعر المخضرمين الجاهلي ؛ إذ شكّل محوراً لمشاعر الإحباط واليأس لدى الطبقة المعدمة ومحوراً لمشاعر الكبر والغرور والغطرسة لدى الطبقة الغنية وهو ما يظهر تردي العلاقات الاجتماعية بين الطبقات المختلفة .
- كانت صورة الجسد من حيث (القوة والضعف) مهيمنة على رؤية الشاعر المخضرم في الجاهلية ، وهي رؤية مادية للموضوع ولا تنطوي على الأبعاد الروحية التي جاء بها الإسلام فيما بعد ؛ وهذه الرؤية هي نتاج حياة البداوة القائمة على مفهوم القوة والغلبة الذي يتطلب قوة جسدية .
- إتكأ بعض الشعراء المخضرمين في استعمال لفظة تدل على قطب ثنائية ما ؛ وأخفوا القطب الثاني بين المعاني التي عرضت في النص الشعري تاركين للقارىء متعة كشفها والاستدلال عليها .
- بدا أثر الإسلام جلياً في ثنائية الصدق والكذب في مستوييهما الأخلاقي والفني على نحو واضح .

هذه هي أهم النتائج التي توصـــلتُ إليها من خلال بحثي في هذه الثروة الخالدة من التراث العربي ؛ فإن وفقتُ في بعض ما قدّمتهُ ؛ فذلك بفضل من الله ؛ وإن أخطأتُ فهذا من شأن العباد ، فحسبي أني قد بذلتُ جهداً ، ولا كمال إلاّ لله جلَّ ثناؤه .

وآخِر دعوانا إن الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمد المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- أثر الإسلام في بناء القصيدة العربية ، الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب ، دار البيضاء للنشر والتوزيع ، عمان . الأردن ، 2001م .
- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ــ حياتهم ــ آثارهم ــ نقد آثارهم ــ بطرس البستاني ، دار المكشوف ودار الثقافة ، بيروت ــ لبنان ، الطبعة العاشرة ــ أيلول ، 1968.

- استراتيجيات القراءة ـــ التأصيل والإجراء النقدي ، د. بسام قطوس ، مؤسسة حمادة ودار الكندي . أربد ، 1998 م.
- أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت 630هـ) ، تحقيق الشيخ علي محمد عوض والشيخ علوان أحمد عبد الموجود ، قدّم له محمد عبد المنعم العربي ود. عبد الفتاح أبو سنه ود. جمعة طاهر النجار ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، د.ت .
- الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة ، د. فؤاد البهي السيد ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار التأليف بالمالية بمصر ، 1968م.
- الأسلوب ، دراسة بلاغية تحليلية ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، 1976م.
- أسواق العرب في الجاهلية ، سعيد الأفغاني ، الطبعة الثانية ، مطابع دار الفكر بدمشق ، 1960م.
- الإصابة في تمييز الصحابة ، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبن عبد البر القرطبي (ت 463هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1328هـ .
- الأصمعيات ، اختيار الأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (122- 216هـ) ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف في مصر ، 1976م.
- الأضداد ، محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الكويت ، 1960م.
- إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت 403هـ) ، هامش الاتقان في علوم القرآن ، دار مكتبة الهلال ، بيروت . لبنان ، د.ت .
- الإعجاز والإيجاز ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق اسكندر آصاف ، الطبعة الأولى، مصر ، المطبعة العمومية ، 1897م.

- الأعلام قاموس تراجم ، لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، خير الدين الزركلي (ت 1396هـــــــ) ، دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة ، 1979م.
- الأغاني ، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت 356هـــ) ، تصحيح الأستاذ الشيخ أحمد الشنقيطي ، مطبعة التقدم بشارع محمد علي ، مصر ، د.ت .
- أُمية بن أبي الصلت ، حياته وشعره ، دراسة وتحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، الطبعة الثانية، 1990م.
- الانتماء في الشعر الجاهلي ، د. فاروق أحمد أسليم ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ، 1998م .
- الأنساب ، لأبي سعيد التميمي السمعاني (ت 562هـــ) ،نشر د. س. مرجليوث ، 1912م وتصوير الاوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد ، 1970م.
- أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء ، طبع لأول مرة نقلاً عن ست نسخ خطية قديمة ، اعتنى بطبعه وتصحيحه وجمع رواياته وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، 1886م.
- الإيضاح في علوم البلاغة ـ المعاني والبيان والبديع ، تأليف الخطيب القزويني جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضـــي القضـــاة ســـعد الدين بن أبي محمد عبدالرحمن القزويني ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، 1385هـ . 1966م.
- البداية والنهاية ، لابن كثير الدمشقي (ت 774هـ) ، مكتبة المعارف ، بيروت ، د.ت .
- البلاغة والتطبيق ، تأليف د. أحمد مطلوب ود. حسن البصير ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، العراق ، الطبعة الثانية ، 1999م.
- البنيوية وعلم الإشـــارة ، ترنس هوكز ، ترجمة مجيد الماشـــطة ، مراجعة د. ناصـــر حلاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، الطبعة الثانية ، 1986م.
- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ρ ، الشيخ علي ناصف ، وعليه غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ، 1395هـــــ . 1975م.

- تاج العروس من جواهر القاموس ، لمحمد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر ، د.ت .
- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أُمية ، نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة 1910–1911 المرحوم الأستاذ كارول نالينو، تقديم طه حسين ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، 1970م .
- تاريخ العرب قبل الإسلام ، د.أحمد هبو ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، جامعة حلب ، 1980م.
- تحرير المعنى ، دراسة نقدية في ديوان أدونيس ، أسيمة درويش ، بيروت ـــ لبنان ، 1972م.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، د. محمد مفتاح ، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1985م.
- التصوير البياني، د. حفني محمد شرف ، 1970م.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ـــ دراسة دلالية مقارنة، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة اتلماز ـ الأردن ـ الزرقاء ، الطبعة الأولى ، 1405هـ . 1985م.
- التعريفات ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني ، مطبعة الاتحاد المصري بمصر ، د.ت .
- التفسير الكبير ، أو مفاتيح الغيب ، للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (ت 544–604هـ) ، قدّم له وحققه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه هاني الحاج عماد زكي البارودي ، القاهرة ـــ مصر ، 2003م .
- التفسير النفسي للأدب ، د. عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963م.
- التقابل والتماثل في القرآن الكريم ، د. فايز عارف القرعان ، المركز الجامعي للنشر والدعاية ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 1415هـ . 1994م.
- تقليد وتجديد، د. طه حسين ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، حزيران ، 1978م.

- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، مجاهد مصطفى بهجت ، مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1402هـ . 1982م.
- ثمار القلوب في المضـــاف والمنســـوب ، لأبي منصـــور عبد الملك محمد الثعالبي النيسابوري ، طبع بمطابع الظاهر بالقاهرة سنة 1326هـ . 1908م.
- جدلية الخفاء والتجلي ، دراســـات بنيوية في الشـــعر ، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1979م.
- جدلية القيم في الشـعر الجاهلي ـــــ رؤية نقدية معاصـرة ، د. بو جمعة بو بعيو ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2001م.
- جمهرة أنســـاب العرب ، أبو محمد علي بن أحمد بن ســـعيد بن حزم الأندلســـي (ت456هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، مصر ، 1962م.
- جمهرة اللغة ، لأبن دريد بن الحسن (ت321هـــ) ، الجزء الأول ، طبعة بالأوفست عن الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، 1344هـ ، دار إحياء بيروت .
- جمهرة النسب ، لأبن السائب الكلبي ، تحقيق د. ناجي حسن ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، 1407هـ . 1986م .
- الحب والكراهية ، يوسف ميخائيل أسعد ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ،د.ت.
- الحياة العربية من الشـــعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، مطبعة نهضـــة مصـــر ، 1949م.
- الحياة والموت في الشـعر الجاهلي ، د. مصـطفى عبد اللطيف جياووك ، منشـورات وزارة الأعلام ، الجمهورية العراقية ، بغداد ، 1977م.
- خصـائص الأسـلوب في الشـوقيات ، محمد الهادي الطرابلسـي ، منشـورات الجامعة التونسية ، طبع المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1981م.
- الخطيئة والتكفير ، . عبد الله محمد الغذامي ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، الطبعة الأولى ، 1985م.
- دراســـات في الأدب الإســـلامي ، ســـامي مكي العاني ، مطبعة المعارف ، بغاد، 1968م.
- دراسات في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، بغداد ، 1976م.
- دراســـات نقدية في الأدب العربي ، د. محمود عبد الله الجادر ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي . جامعة بغداد ، مطابع دار الحكمة ، 1990م.
- ديوان ابن مقبل ، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، دمشق ، 1381هـ . 1962م.

- ديوان أبي الأسود الدؤلي ، حققه وشرحه وقدّم له عبد الكريم الدجيلي ، الطبعة الأولى ، بغداد ، 1373هـ . 1954م.
- ديوان أبي محجن الثقفي، صنعة أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، نشره وقدّم له د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت . لبنان ، د.ت .
- ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه) ، العربي الحديثة ، النجف الأشرف ، الطبعة الرابعة ، د.ت .
- ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق د. سيد حنفي ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1394هـ . 1974م.
- ديوان الحُطيأة ، شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني ، تحقيق نعمان أمين طه ، شـــركة مكتبة ومطبعة مصـــطفى البابي الحلبي وأولاده بمصـــر ، الطبعة الأولى، 1378هـ . 1958م.
- ديوان الحماسة ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت 231هـ) برواية أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضـر الجواليقي (ت 540هـــــ) ، تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح ، دار الرشيد للنشر ، 1980م.
- ديوان حُميد بن ثور ، وفيه بائية أبي داود الأيادي ، صـــنعة الأســـتاذ عبد العزيز الميمني ، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية ، 1371هـ . 1951م.
- ديوان دريد بن الصـمة الجشـمي ، قدّمه الدكتور شـاكر الفحام ، جمع وتحقيق وشـرح محمد خير البقاعي ، دار قتيبة ، 1981م.
- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني ، الدار القومية للطباعة والنشر ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، القاهرة ، 1950م.

- ديوان ســـويد بن أبي كاهل ، جمع وتحقيق شـــاكر عاشـــور ، مراجعة محمد جبار المعيبد ، الطبعة الأولى ، 1972م.
- ديوان شـعر حاتم الطائي وأخباره ، صـنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشـام ابن محمد الكلبي ، دراسة وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، مطبعة المدني ، القاهرة ، د.ت .
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، حققه وشرحه صـلاح الدين الهادي ، قدّم له عمر الدسوقي ، دار المعارف بمصر ، سنة 1968م.

- ديوان عامر بن الطفيل ، رواية أبي بكر محمد بن القاســم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، دار صادر ، بيروت ، 1379هـ . 1959م.
- ديوان العباس بن مرداس ، جمعه وحققه د.يحيى الجبوري ، المؤســســـة العامة للصحافة والطباعة ، دار الجمهورية ، بغداد ، 1388هـ . 1968م.
- ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، دراسة وجمع وتحقيق د. حسن محمد باجودة ، دار التراث ، القاهرة ، 1392هـ .
- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، هاشـــم الطعان ، مطبعة الجمهورية ، بغداد، 1390هـ . 1970م.
- ديوان قيس بن الخطيم ، حققه د. إبراهيم الســـامرائي ود. أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1381هـ . 1962م.
- ديوان كعب بن مالك الأنصــاري ، دراســة وتحقيق ســامي مكي العاني ، منشــورات مكتبة النهضة ، بغداد ، 1965م.
- ديوان المزرد بن ضــرار الغطفاني ، برواية ابن الســكيت وغيره وشــرح ثعلب ، عني بتحقيقه خليل إبراهيم العطية ، قدّم له العلاّمة الشــيخ محمد رضــا الشــبيبي، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1962م.
- ديوان المعاني ، للإمام اللغوي والأديب أبي هلال العســـكري عن نســـخة الإمامين العظيمين الشــيخ محمد عبده والشــيخ محمد محمود الشــنقيطي مع مقابلة المشــكل بنسخة المتحف البريطاني ، عالم الكتب ، د.ت .
- ديوان معن بن أوس المزني (ت 64هـ) صنعة د. نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن ، مطبعة دار الجاحظ ، بغداد ، 1977م.
- ديوان الهذليين ، نســخة مصــورة عن طبعة دار الكتب ، قدّم له أحمد الزين ، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر ، 1385هـ . 1965م.
- الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ، منشورات دار مكتبة الحياة ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1960م.
- الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي ــ البنية والرؤيا، كمال أبو ديب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1986م.

- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، عبد الإله الصائغ ، وزارة الثقافة والأعلام ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1982م.
- سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت 297هـ) ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، 1418هـ . 1987م .
- السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان ، د.ت .
- شرح أسماء الله الحسنى ، الغزالي ، أبو حامد الغزالي (ت 505هـ) ، المكتبة الحديثة ، بغداد، الطبعة الأولى ، 1990م .
- شرح أشعار ديوان الهذليين ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت 275هـ) ، حققه عبد الستار أحمد فراج ، راجعه محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، ومطبعة المولى ، القاهرة ، د.ت .
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ضبطه وصححه عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس ، بيروت ، 1980م.
- شرح ديوان الحماسة للتبريزي ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي بمصر ، د.ت .
- شرح ديوان الخنساء ، أبو العباس ثعلب ، قدّم له وشرحه د. فايز محمد، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1419هـ . 1998م.
- شرح ديوان زهير ، أبو العباس ثعلب ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية ، 1964م.
- شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1369هـ ـ 1950م، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1385هـ . 1965م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، حققه وقدّم له د. إحسان عباس ، الكويت ، 1964م.
- شعراء إسلاميون ، د. نوري حمودي القيسي ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، 1405هـ . 1984م.
- الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي ، د. يوسف خليف ، دار المعارف بمصر ، 1959م.

- الشـعراء الفرسـان ، بطرس البسـتاني ، منشـورات دار المكشـوف ، الطبعة الأولى، 1944م.
- الشـعر الجاهلي ـــــ منهج في دراسـته وتقويمه ، د. محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت .
- شـعر الحرب في العصـر الجاهلي ، د. علي الجندي ، مكتبة الانجلو المصـرية ، مطبعة الرسالة ، 1958م.
- شـعر عمرو بن أحمد الباهلي ، جمعه وحققه د. حسـين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، د.ت .
- شـعر عمرو بن شـأس الأسـدي ، د. يحيى الجبوري ، دار القلم ، الكويت ، الطبعة الأولى ، 1396هـ . 1976م ، الطبعة الثانية ، 1403هـ . 1983م.
- شـــعر المخضـــرمين وأثر الإســـلام فيه ، يحيى الجبوري ، قدّم له د. محمد طه الحاجري، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، 1963م.
- شعر النابغة الجعدي (ت 65هـــ) ، تحقيق عبد العزيز رباح، الطبعة الأولى ، نشر المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1384هـ . 1964م.
- الشعر والموت ، د. فؤاد رفقة ، دار النهار للنشر ، بيروت ، 1973م.
- الشهاب في الشيب والشباب ، الشريف المرتضى (ت 446هـ) ، دار الرائد العربي ، بيروت . لبنان ،1402هـ . 1982م.
- شـعر هدبة بن الخشـرم العذري ، تحقيق د. يحيى الجبوري ، منشـورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، 1976م.
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت 365هـــ) ، تحقيق مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، بيروت . لبنان ، 1963م.
- الصحاح وتاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـــ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار الملايين ، بيروت ، 1399هـ . 1979م.
- صحيح البخاري ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـــ) ، تقديم وتحقيق وتعليق ، محمود النواوي ومحمد أبو الفضـل إبراهيم ومحمد خفاجي ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، 1376هـ .

- صحيح مسلم ، لأبي الحسن بن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ) ، مشكول ، مطبوعات مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، د.ت .
- الصـورة في الشـعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، 1980م.
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلاّم الجمحي (ت 199هـ ـ 231هـ) ، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1974م.
- الطراز المتضـمن لأسـرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، منشورات النصر ، مطبعة المقتطف ، 1914م.
- عبقريـة محمد ρ ، عبـاس محمود العقـاد ، نشـر وتوزيع مكتبـة العروبـة ، دار التضامن ، بغداد ، 1964م.
- عشرة شعراء مقلّون ، صنعة د. حاتم الضامن ، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ، الموصل ، 1411هـ ـ 1990م.
- العقد الفريد ، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، شرحه وضبطه وعنوّن موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1361هـ ـ 1942م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت 456هـ) ، حققه وفصله وعلّق على هوامشه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة، 1972م.
- عيون الأخبار ، لأبن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ)، الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية ، 1925م.
- الغزل في الشـعر الجاهلي ، د. احمد محمد الحوفي ، دار النهضـة ، مصـر للطبع والنشر ، الطبعة الثالثة ، 1973م.
- الفروسـية في الشـعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسـي ، الطبعة الأولى ، دار التضامن ، بغداد ، 1964م.
- في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، دار المعارف بمصر، القاهرة ، 1927م.

- قراءة معاصـــرة في نصـــوص من التراث العربي ، د. محمود عبد الله الجادر ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 2002م.
- قضـــية الزمن في الشـــعر العربي (الشـــباب والشـــيب) ، د. فاطمة محجوب ، دار المعارف ، القاهرة ، طبع بمطابع دار المعارف ، 1980م.
- كتاب ســـيبويه ، أبي بشـــر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق عبد الســـلام محمد هارون ، عالم الكتب ، الطبعة الثالثة ، 1983م.
- كتاب الصـناعتين ، الكتابة والشـعر ، تصـنيف أبي هلال ، الحسـن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت 395هـ)، الطبعة الثانية ، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده ، مصر ، د.ت .
- لسـان العرب ، أبو الفضـل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، دار صـادر ، بيروت .
- لمحات في الشـعر القصـصـي في الأدب العربي ، د. نوري حمودي القيسـي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980م.
- مالك وتميم أبنا نويرة اليربوعي ، تأليف ابتسـام مرهون الصـفار ، مطبعة الإرشـاد، بغداد ، 1968م.
- المتغير الغربي ــ الشرق ، الاستشراق أدب الصحراء ، محمد عبد الحسين الرعمي ، بغداد ، 1986م.
- المجاز الذهنبي ، رثفن ، ك، ك ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، بغداد ، 1978م.
- المحبر ، لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت 345هـــــ) ، تصـحيح د. ايلزة ليختن ، دائرة المعارف العثمانية ، 1942م.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، لابن سيده علي بن إسماعيل (ت 458هـــــ)، تحقيق د. مراد كامل ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى ، 1392هـ . 1972م .
- مختار الصحاح للشيخ الإمام محمد ب أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت666هـ) ، طبعة حديثة ومنقحة ، مكتبة النهضة ، بغداد ، 1983م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، د. رمضـــان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1405هـ . 1985م.

- المدخل اللغوي في نقد الشعر، قراءة بنيوية ، مصطفى السعدني ، مطبعة منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1987م.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، د. عبد الله الطيب المجذوب ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، 1374هـ . 1955م.
- المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، للإمام أبو حامد الغزالي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ، 1389هـ . 1969م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، للسيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ) ، ضبطه وصححه ووضع حواشيه فؤاد علي منصور ، منشورات محمد علي بيضوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الأولى ، 1418هـ ـ 1998م .
- مشكلة البنية ، د. زكريا إبراهيم ، مشكلات فلسفية (8) ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، 1971م.
- مشكلة الحياة ، د. زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، الطبعة الأولى ، 1971م.
- معجم البلدان ، لشهاب الدين بن عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (575 . 626هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1397هـ . 1977م.
- معجم متن اللغة ، موسوعة لغوية حديثة للعلاّمة الشيخ محمد رضا ، دار الحياة ، بيروت ، 1377هـ . 1958م.
- معجم ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام ، د. ليلى محمد ناظم الحيالي ، مكتبة لبنان . ناشرون ، الطبعة الأولى ، 1999م.
- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ، 1422هـ . 2001م .
- المعمرون والوصايا ، لأبي حاتم السجستاني (250هـ ـ 864م) ، تحقيق عبد المنعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1961م.
- المفردات في غريب القرآن ، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ) ، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية ، د.ت .

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت، 1970م.
- الملاحم العربية ، د. عادل البياتي ، مطبعة الجاحظ للطباعة والنشر ، بغداد، 1976م.
- ملحمة كلكامش ، طه باقر ، بغداد، دار الرشيد للنشر ، الطبعة الأولى ، 1980م.
- منطق المشرقين ، تصنيف الرئيس أبي علي ابن سينا ، تقديم د. شكري النجار ، دار الحداثة ، الطبعة الأولى ، 1982م.
- من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم ، د. عثمان موافي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، د.ت .
- منهج التربية الإسلامية ـــ أصوله وتطبيقاته ، د. علي أحمد مدكور ، مكتب الفلاح، الكويت ، الطبعة الأولى ، 1987م.
- منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت . القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1400هـ . 1980م.
- مواقف في الأدب والنقد ، عبد الجبار المطلبي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد، 1400هـ . 1980م.
- موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية (المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون) للشيخ المولوي محمد أعلى بن علي التهانوي ، شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت . لبنان ، 1966م.
- الموطأ ، للإمام مالك ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، د.ت .
- نزعة التمرد والسخرية في شعر الحُطيأة ، د. عناد غزوان إسماعيل ، مستل من العدد الثالث . السنة الرابعة من مجلة البلاغ ، مطبعة المعارف ، بغداد، 1973م.
- النص القرآني من الجملة إلى العالم ، وليد منير ، المعهد العالي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1418هـ . 1997م .
- نصية الملوك ، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري (ت450هـ) ، تحقيق محمد جاسم الحديثي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، 1406هـ . 1986م.
- نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت 337هـ) ، تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الأولى ، مصر ، 1367هـ . 1948م.

- نهاية الأرب في فنون العرب ، النويري ، شـــهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ) ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، 1342هـ . 1924م.
- نهج البلاغة ، شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت . لبنان ، د.ت .
- وقعة صفين ، نصر بن مزاحم المنقري (ت 212هـــ) ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، مطبعة المدني ، 1383هـ .

الرسائل الجامعية :

- الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ، أحمد إسماعيل ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، 1991م.

- الألفاظ الإســـلامية وتطور دلالتها إلى نهاية القرن الثالث الهجري ، يعرب مجيد مطشر العبيدي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد، كلية الآداب ، 1414هـ ـ 1993م .
- الإنسان في الشعر العربي قبل الإسلام ، نضال جهاد عبد الرحمن ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1408هـ . 1987م.
- البحث الدلالي في التبيان في تفسير القرآن ، لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460هـــ) ، إبتهال كاصد ياسر الزيدي ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، 2004م.
- البناء الفني في شــعر الفرســان والأجواد في عصــر ما قبل الإســلام ، فائزة يحيى عاكف الخزرجي ، رســالة ماجســتير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1411هـــــ . 1990م.
- الثنائيات في القرآن الكريم ـــ دراسة تحليلية ، لقاء موسى فنجان الساعدي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية التربية ، 1421هـ . 2000م.
- الثنائيات المتضــادة في الشــعر العربي في القرن الثالث الهجري ، هدى هادي عباس ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1420هـ . 1999م.
- ثنائية اللذة والألم في الشعر العربي قبل الإسلام ، من منظور نقدي فني ، ليلى نعيم عطية الخفاجي ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1426هـ . 2005م .
- سورة القيامة ـــ دراسة أسلوبية ، مواهب عباس الدليمي ، رسالة ماجستير ، جامعة الأنبار ، كلية التربية ، 1999م.
- شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام وحتى نهاية 230هـــ ، أيهم عباس حمودي، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد، كلية الآداب ، 1984م.
- شــعر المخضــرمات بين الجاهلية والإســلام ، (جمع وتوثيق ودراســة) ، نضــال أحمد باقر الزبيدي ، رسالة ماجستير ، جامعة ديالى ، كلية التربية ، 1426هـ . 2005م .
- الشــيب والهرم في الشــعر العربي ، هدى هادي عباس ، رســالة ماجســتير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1415هـ . 1994م .

- الصبر والجزع بين المثير والاستجابة في شعر ما قبل الإسلام ، رجاء لازم رمضان ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1425هـ . 2004م.
- القيم الخلقية والاجتماعية في الشعر العربي في صدر الإسلام من خلال تقويم فنيّ المديح والهجاء ، فاضل عواد أحمد، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1402هـ . 1982م.
- المناسبات في الشعر العراقي الحديث ، مرحلة الاحياء . دراسة موضوعية فنية ، فالح عبد الله سلامي الشمري ، رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، 1999م.
- المنصفات في الشعر العربي حتى نهاية العصر الراشدي ، محمد مفتاح جباوي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1988م.
- النابغة الجعدي ، حياته وشعره ، حسن مصطاف فرحان ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1405هـ . 1985م.

البحوث :

- أبو الطمحان القيني ، حياته وما تبقى من شعره ، جمع وتحقيق محمد نايف الدليمي، مجلة المورد ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ، 1988م.
- أثر الإسلام في شعر معن بن أوس المزني وأشكاله ، د. عمر بن الرحمن السارسي ، الأدب الإسلامي الواقع والطموح ، بحوث المؤتمر الثاني ، كلية الآداب ، جامعة الزرقاء ، الأردن ، ط1، 2001م.
- الأغلب العجلي ، حياته وشعره ، د. نوري حمودي القيسي ، المجمع العلمي العراقي ، المجلد الحادي والثلاثون ، العدد الثالث ، شعبان 1400هـ . تموز 1980م .
- البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي، محاضرة ألقاها الأستاذ محمد مهدي مجذوب في مؤتمر الأدباء العرب الرابع ، الكويت ، د.ت .
- بنائية المعنى في الشعر من خلال قصيدة أبي العلاء المعري ، فايز عارف القرعان ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد العاشر ، تشرين الأول ، 1982م.
- الحلم في الشعر الجاهلي ، د. عبد الرزاق خليفة الدليمي ، مجلة المورد ، المجلد الحادي والثلاثون ، العددان الثالث والرابع ، 2004م ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد .

- شعر الحصين بن الحمام المري ، جمع وتحقيق د. مهدي عبيد جاسم ، مجلة المورد ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ،1408هـ ـ 1988م ، وزارة الثقافة والأعلام ، العراق .
- في ذكر بكاء الناس على الشباب وجزعهم من المشيب ، الباب التاسع ، تصنيف عبد الرحمن علي بن الجوزي ، تحقيق وتقديم هلال ناجي ، مجلة المورد ، المجلد الثاني ، العدد الثالث ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1393هـ . 1973م.
- قصيدة الحرب العربية ، د. محمود عبد الله الجادر ، مجلة آفاق عربية ، العدد التاسع ، السنة العاشرة ، 1985م.
- وأد البنات بين الواقع والحكم المطلق ، د. نوري حمودي القيسي ، دراسات الأجيال ، العددان الرابع والخامس ، نقابة المعلمين ، السنة الخامسة ، 1983م.

CONTRADICTORY DUALITIES IN THE POETRY OF POETS WHO LIVED THROUGH PAGANISM AND ISLAM

A DISSERTATION SUBMITTED BY

NIDAL AHMED BAQIR

TO THE COUNCIL OF THE COLLEGE OF ARTS IN BAGHDAD UNIVERSITY

IN A PARTIAL FULFILLMENT OF THE REQUIREMENTS OF A DOCTORAL DEGREE IN ARABIC LANGUAGE

SUPERVISED BY

PROF. DR.

ABDULLATTIF HAMMUDI AL-TTA'I

Contradictory Dualities in the Poetry of Poets Who Lived through Paganism and Islam

In order to get my doctoral certificate, I submitted this dissertation to the College of Arts, Baghdad University.

Being common in their poetry, "the contradictory dualities in the poetry of poets who lived through paganism and Islam" is a very important subject; and that is why I studied it.

Since that poet lived through two different epochs, pre-Islamic epoch and Islamic epoch; the dualism is obvious in his poetry. After I collected the scientific material from certain books and references, I rearranged this material into a preface and four chapters.

In the preface, I tried to clarify the concept of contradiction and the bilateral relations and their relation to human being. It was the poet's means which he could use to express some intellectual, civilizational and cultural breakdowns.

The first chapter deals with contradictory dualities in the intellectual trends. This chapter includes three themes:

The first theme deals with the contradictory duality (life versus death)

The second theme deals with the contradictory duality (old age versus youth)

The third theme deals with the contradictory duality (discernment versus foolishness)

I tackled some patterns for each duality, analyzed them, and clarified intellectual contents. I focused on common contents, but did not forget special contents and rare contents.

The second chapter deals with contradictory dualities in the social trends. This chapter includes three themes:

The first theme, in which I studied the contradictory duality (hatred versus love)

The second theme, in which I studied the contradictory duality (pride versus subservience)

The third theme, in which I studied the contradictory duality (obedience versus disobedience)

The third chapter deals with contradictory dualities in the economical trends. This chapter includes three themes:

The first theme deals with the contradictory duality (generosity versus stinginess)

The second theme deals with the contradictory duality (poverty versus affluence)

The third theme deals with the contradictory duality (strength versus weakness)

The fourth chapter deals with contradictory dualities in the moral trends. This chapter includes three themes:

The first theme deals with the contradictory duality (good versus evil)

The second theme deals with the contradictory duality (honesty versus lying)

The third theme deals with the contradictory duality (faithfulness versus unfaithfulness)

I concluded my research with the most important findings that I reached, including:

- Contradictory dualities had an impact on all aspects of life, and they had a significant impact on the intellectual aspect.
- Islam had changed the philosophy of the poet who lived through paganism and Islam when it comes to the poet's view of the duality of life and death. Islam did so via softening the poets' emotional gushes vis-à-vis the death issue. Hence, this duality had been converted into a new dimension which stimulates the poets to express the duality in new meanings and conceptions that the poet who lived through paganism and Islam never knew before.
- The picture of the body as (strength versus weakness) dominated the poet's vision in pre-Islamic epoch. Such vision is materialistic and does not involve the spiritual dimensions that Islam brought afterwards. This vision is the product of

the nomadic life that based on the concept of strength and superiority that requires physical strength.

- The influence of Islam was pretty obvious on the duality of honesty and lying in both the moral level and the artistic level.

The Researcher